د. أيوب دخل الله

التربية المستمرة وتعليم الكبار

رؤية إسلامية

دار المعرفة
بيروت - لبنان

التربية المستمرة
وتعليم الكبار

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com
lisanerab.com
رابط بديل

التربية المستمرة وتعليم الكبار

رؤية إسلامية

د. أيوب دخل الله

دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by **Dar Al-Marefah**
Beirut - Lebanon

ISBN 9953-85-226-X

الطبعة الاولى
1431هـ - 2010م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing

جسر المطار شارع البرجاوي • هاتف: ٨٣٤٣٠١-٨٣٤٣٣٢
فاكس: ٨٣٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

إهداء

إلى زوجتي وأبنائي

بلال، سهام، هلال، علي

قرة العين وسلوة القلب

المقدمة

تكاد التربية المستمرة أن تكون على رأس قائمة الأولويات التي تشغل بال المهتمين بالتربية والتنمية في هذه الأيام. ولا يخفى أنّ الحلقات الدراسية والمؤتمرات الدولية والإقليمية والمحليّة التي عُقدت لمناقشة هذه المسألة كثيرة جداً، لدرجة يَصْدق معها القول بأنّها قتلتها بحثاً. فلقد قيل الكثير عن أهمية التربية المستمرة، وتعليم الكبار وانعكاس ذلك على التنمية، ودرء خطر الأمية عن الأفراد والجماعات.

والإجماع قائم على أنّ التربية المستمرة هي السبيل لتحرير «الإنسان من قيد العجز الفكري، وإطلاق طاقاته الخلّاقة، وصقل قدراته المبدعة، وتأهيل مهاراته وتقنين خبراته تمكيناً له من التداول على مستوى المجتمع وعلى مستوى العصر»[1].

ولا يعني هذا أنّ التربية المستمرة وتعليم الكبار هي اكتشاف جديد أو من مستحدثات العصر. فالفكرة التي تشير إلى «تعليم» يبدأ من لحظة الميلاد، ولا ينتهي إلّا عند الممات، دعا لها الإسلام ومارسها المسلمون اقتداءً بالرسول ﷺ. إذ ليس للتعليم سِنٌ محددة في الإسلام ولا مكان محدد، إضافة إلى أنّ الإسلام عمل على المساواة بين الجنسين الذكر والأنثى، وأتاح فرص التعليم للجميع، وكان بذلك سبّاقاً لتقرير مبدأ التربية المستمرة وتعليم الكبار استجابة لدواع دينية تتعلق بنظرة الإسلام الشاملة في حقوق وواجبات الإنسان، الذي يُعَدُّ خليفة الله ﷻ في الأرض.

واتّسم تعليم الكبار في الإسلام بظاهرتين أساسيتين: **أولاهما**: «شعبيته وديمقراطيته» كمؤسسة وارتباطه العضوي بالمجتمع كمؤسسة أم، **وثانيهما**: الزاميته

---

(1) سعيد إسماعيل علي: **الأمية في الوطن العربي**، ص: 13.

بمعنى أنّ تعليم القراءة والكتابة كان مدخلاً إلى تعليم الدين، أي تمكين المسلمين من القيام بالواجبات الدينية المفروضة عليهم[1].

وبلغت حيوية العرب وتشجيعهم لتعليم الكبار أنّهم رأوا حسب ما عبّر الغزالي عن ذلك في تحديده لوظائف المُعلم: أنّ على الأخير «أن يقتدي بصاحب الشرع، فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاءً وشكراً، بل يعلّم لوجه الله تعالى»[2] ولم تكن هناك عقبات من أي نوع تحول دون تلقي العلم ـ على اعتبار أنّ العلم فريضة ـ في أية مرحلة عمرية بعيداً عن قيود الزمان أو المكان.

ويستمد البحث الذي بين أيدينا أهميته من عظمة وعمق التجربة الإسلامية في مجال تعليم الكبار. هذه التجربة التي انتقلت بالمجتمع العربي من مستنقع التخلف والجهل إلى قمم التقدم والإزدهار، حيث حلّ النور مكان الظلام، والعلم مكان الجهل، والإسلام مكان الكفر والإلحاد؛ وانتقل الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الدّيان.

ومما يزيد في أهمية البحث تطلع المجتمع العربي الإسلامي اليوم لإيجاد نظام للتربية المستمرة، وتعليم الكبار يلبي حاجات هذا المجتمع وتطلعاته للّحاق بركب التقدم والتطور. لذا فإنّ كل جهد أو سعي يهدف للإفاذة من التجربة الإسلامية ـ في مجال تعليم الكبار ـ من خلال إلقاء الضوء على عناصرها ومقوماتها المختلفة لا بد وأن يكون له أهمية كبيرة، خاصة، وأنّ تعليم الكبار اليوم يستحوذ على اهتمام كافة دول العالم دون استثناء.

وهكذا فإنّ أهمية البحث تكمن في أهمية الموضوع الذي يتناوله بالمعالجة، إضافة إلى عدد من العوامل التي يمكن إيجازها فيما يأتي:

1 ـ الحاجة إلى مواكبة التقدم العلمي و«التكنولوجي» الهائل مما يستدعي تعليم وتدريس الناس من جميع الأعمار على اعتبار أنّهم يُمَثّلون القوى العاملة في المجتمع.

---

(1) صالح عزب وزميله: **الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار، الفلسفة المسيرة، الآفاق**، ص: 5.

(2) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 3/ 70.

2 ـ يعتبر تعليم الكبار ضرورة لا غنى عنها من أجل تطوير وتجديد معارف الكبار في مواجهة التفجر المعرفي الذي تشهده الساحة الدولية، حيث إنّ النظم التعليمية المعروفة أعجز من أن تقدم ذلك القدر المتنامي من المعلومات إلى طلاب العلم.

3 ـ يساعد تعليم الكبار على تحقيق تفاهم أفضل بين فئات المجتمع، إضافة إلى أنه يسهم في رفع كفاياتهم لحل ما يواجههم من المشاكل على الصعيد الفكري والاجتماعي والمهني، مما يؤثر إيجاباً في مجالات الإنتاج، ومن ثم بالتنمية بكافة أشكالها البشرية والاقتصادية.

4 ـ يشكل الانفجار السكاني مشكلة من أخطر المشكلات التي تواجه العالم اليوم، لما لذلك من آثار مباشرة تتسبب في تفشي ظاهرة الأمية التي تتزايد باستمرار نتيجة الكثافة السكانية المطردة، وهو ما يتطلب إعادة النظر في النظم التعليمية القائمة على أمل التوصل إلى حل جذري لهذه المشكلة، التي أصبح من الواجب القضاء عليها بشتى الأساليب.

وعلى ضوء هذه المعطيات يتوقع من القارىء أن يتمكن من تحقيق ما يأتي:

1 ـ تكوين إطار مرجعي مشترك لمفهوم التربية المستمرة، وتعليم الكبار عند المسلمين يتضح من خلال الأسس التي يُبنى عليها هذا المفهوم.

2 ـ معرفة دوافع وأهداف التربية المستمرة، وتعليم الكبار في ضوء التربية الإسلامية، ونظرة الإسلام لله والكون والإنسان.

3 ـ تحديد طرائق وأساليب تعليم الكبار والإفادة منها في ميدان التعليم المستمر والتعلم الذاتي انطلاقاً من كون الإنسان صاحب رسالة وخليفة الله في الأرض.

4 ـ التعرف على أماكن تعليم الكبار عند المسلمين، وكيفية العمل فيها، ومحاولة الإفادة من النظم الإدارية والإشرافية التي كانت تحكم هذه المؤسسات.

5 ـ الوقوف على أنواع تعليم الكبار عند المسلمين، والتحقق من أهمية كل منها في دفع حركة التربية المستمرة وتعليم الكبار إلى الأمام.

6 ـ العمل على تطوير الممارسات الحالية المتصلة بتعليم الكبار من خلال الإفادة من تجربة تعليم الكبار عند المسلمين، واستخدامها استخداماً وظيفياً إلى جانب الاتجاهات الحديثة المقترحة في هذا المجال، والعمل على تطويعها لخدمة الحاجات العملية الواقعية للمجتمع العربي الإسلامي في مجال تحسين الممارسات التعليمية والتعلمية لمعلمي الراشدين والمتعلمين الراشدين.

وعلينا أن ندرك أنه لا تنمية حقيقية بدون تنمية الإنسان، الذي يُمثل أعظم مجالات التنمية وأكثرها نفعاً في كافة المجتمعات وعلى مرّ الأزمان.

والله ولي التوفيق

د. أيوب دخل الله

الفصل الأول

التربية المستمرة وتعليم الكبار في ضوء تعاليم الإسلام

تمهيد

التربية المستمرة من المنظور الإسلامي

تعليم الكبار من المنظور الإسلامي

التكليف وتعليم الكبار

تعليم الكبار فريضة إسلامية

أهداف التربية المستمرة وتعليم الكبار

الفصل الأول

التربية المستمرة وتعليم الكبار في ضوء تعاليم الإسلام

تمهيد

صحيح أن التربية المستمرة قد تعززت وقويت خلال السنوات الأخيرة، إلّا أنه من الوهم الادعاء بأنها من مستحدثات العصر. والمتتبع للقضايا التربوية يدرك أنّه لا شيء جديد في فكرة متابعة العملية التربوية. فالإنسان عن قصد أو غير قصد يتابع تدريب نفسه وتأهيلها خلال حياته عبر تأثير المحيطين به، ومن خلال الخبرات المختلفة التي تسهم في بلورة اتجاهاته ومواقفه في الحياة.

والمتتبع لآداب الحضارة الإسلامية لا يجد كبير مشقة في العثور على الأدلة المقنعة في كون فكرة التربية المستمرة مدى الحياة، تشكل حجر الزاوية في البناء التربوي الإسلامي. فالإنسان الذي كرّمه الله تعالى هو محور العملية التربوية. وبسبب طبيعة تكوينه والفطرة التي فطره الله عليها، فإنّه قد يرتفع ليصبح سيد الوجود المحسوس، وقد يهبط ليصبح أدنى من أدنى الكائنات المحيطة. لذلك فهو بحاجة للرعاية والتوجيه الدائمين حتى يحفظ من خطر الانزلاق إلى مدارك الحيوان، وحتى يبقى منسجماً مع القوانين التي فطر عليها، وحتى يتمكن بالتالي من سلوك سبيل الرشاد سواء في التعامل مع خالقه جلّ وعلا أو مع العوالم المحيطة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾[1].

ومما لا شك فيه: أن «التربية هي وسيلة هذا الإيمان، وأداة الإعداد لإتقان الصالحات من الأساليب والممارسات. وهي مستمرة باستمرار وجود الإنسان على

---

(1) سورة: التين، الآيات: 4-6.

الأرض»[1]. ولذلك لم يكن غريباً على هذه التربية أن تُعنى بالإنسان حتى قبل ولادته. فالرجل في الإسلام مطالب باختيار المرأة الصالحة، مثلما أن المرأة عليها أن تختار الزوج الذي تتوفر فيه الشروط المناسبة، حتى يقوم البناء على أسس سليمة، وحتى تتوفر لهما الشروط المناسبة، وأهمها الدين والخلق ـ كي يَقُوما بواجبهما لجهة الرعاية والقوامة والتربية ـ وفي ذلك يقول ﷺ «**من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلاّ دناءة، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلاّ أن يغض بصره ويحصن فرجه ويصل رحمه كان ذلك منه وبورك له فيها وبارك الله لها فيه**»[2]. وجاء في الحديث أيضاً: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، ألاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد**»[3]. فذات الدين هي التي تقوم بحق الله، وحق الزوج، وحق الأمة، في التربية المستمرة للأجيال المؤمنة بالله السائرة على هديه.

التربية المستمرة من المنظور الإسلامي

لما كانت العملية التربوية «ليست... مجرد تعليم معلومات، وإنما هي أولاً وبالدرجة الأولى عملية تنمية بشرية»[4]، فإنه لا بد من الخبرة المربية التي تؤمن الأثر الإيجابي المستمر لمراحل النمو المتعاقبة. «والتربية الإسلامية التي تضع كل شيء في موضعه الطبيعي اعتبرت النمو بجميع جوانبه وسيلة لتحقيق مثلها الأعلى»[5]. ولذلك فإن الإسلام «يحض على النمو بكل أشكاله، أي التربية الإسلامية تشمل رعاية النمو من كل جوانبه: الجسمية، والعقلية، والخلقية، والاجتماعية، والذوقية، والروحية، والوجدانية»[6].

وحتى يكون النّمو وسيلة لتحقيق العبودية لله تعالى فلقد أوصى الرسول ﷺ بطلب العلم، وجعله فريضة على المسلمين. وبذلك جعل من العلم أساساً للدعوة إلى الإسلام. لأن القرآن يأبى «إلّا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادىء، ولأجل هذا صاح القرآن في أصحاب العقائد

(1) ماجد عرسان الكيلاني: **تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية**، ص: 29.
(2) علاء الدين الهندي: **كنز العمال**، 16/ 301.
(3) الترمذي: **سنن الترمذي**، 3/ 395.
(4) سعيد إسماعيل علي: **فلسفات تربوية معاصرة**، ص: 34.
(5) عبد الرحمٰن النحلاوي: **أصول التربية الإسلامية وأساليبها**، ص: 115.
(6) عبد الرحمٰن النحلاوي: **أصول التربية الإسلامية وأساليبها**، ص: 115.

الباطلة»[1]: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2].

ولذلك كان من الطبيعي أن يحظى العلم والعلماء في الإسلام بقيمة رفيعة ودرجة عالية عند الله تعالى، وعند الناس في الدنيا والآخرة يقول ﷺ: «**ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ حَفَّتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[3].

والرسول عندما يقول: «**اطلبوا العلم ولو في الصين**»[4] و «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[5]. فهو بذلك يضع الأسس والمبادىء التي يجب أن تقوم عليها التربية في المجتمع الإسلامي «ومن تلك المبادىء الغاء البعد الزمني، فليس للتعليم عمر تعليمي محدد في الإسلام، وكذلك فليس للتعليم مكان محدد، ولا مؤسسة محددة إلى جانب أن المساواة فيه بين الجنسين الرجل والمرأة تامة، على أن الإسلام يقدّر في تصوره للتعليم المتطلبات المتجددة للمستقبل، فيجعل من التعليم نشاطاً دائماً متصلاً، ونامياً، ومتكاملاً»[6].

والرسول ﷺ يحفز المسلمين على الاستمرار في طلب العلم، حتى آخر لحظة من حياتهم؛ لأن من يقضي وهو على هذه الحال يقضي شهيداً لقوله ﷺ: «**إذا جاء الموت طالب العلم وهو على تلك الحال مات شهيداً**»[7] ويقول أيضاً: «**من جاءه الموت، وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام، لم يكن بينه وبين الأنبياء إلاّ درجة في الجنة**»[8].

---

(1) يوسف القرضاوي: **الرسول والعلم**، ص: 13.
(2) سورة: البقرة، الآية: 111.
(3) مسلم: **صحيح مسلم**، 4/ 2074.
(4) علاء الدين الهندي: **كنز العمال**، 10/ 138.
(5) الطبراني: **المعجم الكبير**، 10/ 195.
(6) محي الدين صابر: «**علامات على الطريق، تعليم الكبار في الإسلام**»، **في تعليم الجماهير**، القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، يناير 1975، عدد 2، ص: 16.
(7) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم وفضله**، 1/ 96.
(8) علاء الدين الهندي: **كنز العمال**، 10/ 160.

فطلب العلم في الإسلام يجب أن يكون ملازماً للمسلم إذا كان يريد مرضاة الله تعالى. وهذا ما عبّر عنه ومارسه السلف الصالح. فقد روي أنّه قيل لابن المبارك (181 هـ/ 797م): «إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات إن شاء الله»[1] وقال أيضاً: «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإن ظن أنّه علم فقد جهل»[2]. والإمام علي ﷺ يرى: «أن الحكمة ضالة المؤمن»[3] لذلك فهو يحث على مداومة التعلم والتعليم قائلاً: «تزاوروا وتذاكروا الحديث فإنكم إلاّ تفعلوا يدرس عليكم»[4] وسفيان بن عيينة (198 هـ/ 814م) عندما سئل: «من أحوج الناس إلى طلب العلم؟» قال: «أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح»[5]. فكل هذه النصوص تعبر عن الطبيعة الدائمة للتربية والتعليم في الإسلام.

ولما كانت التربية الإسلامية هي الترجمة العملية للتصور الإسلامي، ولما كان العلم يشكل إحدى مرتكزاتها الرئيسة النابعة من هذا التصور، فإن هذا يعزز القناعة في كون التربية الإسلامية تربية مستمرة مدى الحياة. وهو ما يميزها عن غيرها من التربويات. لأن التربية مدى الحياة «هي الأساس في الإسلام، ومن هذا الأساس ـ أو الأصل ـ تتفرع ألوان التربية الأخرى. فبينما في المجتمعات القديمة والمعاصرة تعتبر «التربية» والتربية المدرسية بوجه خاص هي الأساس أو الأصل، ومنه تتفرع التربية المستمرة. وذلك سبق إسلامي في التربية لم تصل إليه المجتمعات المتقدمة ذاتها بعد»[6].

فمبدأ التربية المستمرة وإن لم يكن معروفاً بهذه التسمية كان في جوهره معتمداً في التربية العربية الإسلامية. «فإن العقيدة التي تعتمد على العقل واستثماره باستمرار في الحياة، وتجعل التفكير قوام الإيمان وقوام مواقف الإنسان إزاء الكون والحياة، وقوام تنظيم المجتمع والتعاون فيه، والعقيدة التي تحض النّاس بأن الله لا

(1) ابن عبد البر: م. س، ص. ن.
(2) الغزالي: إحياء علوم الدين، 1/ 74.
(3) الشريف الرضي: نهج البلاغة، ص: 481.
(4) ابن عبد البر: م. س، 1/ 101.
(5) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، 1/ 96.
(6) عبد الغني عبود: في التربية الإسلامية، ص: 159.

يغير ما بأحوالهم، حتى يغيروا ما بأنفسهم لهي عقيدة تتطلب استمرار الإنسان في طلب التعليم والتعلم»[1]. فدعوة القرآن الكريم للنبي ﷺ للاستزادة من العلم في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2]، إشارة إلى أن العلم واسع لا ينتهي وطلبه دائم لا ينقطع. وما الحث على الاستزادة منه إلّا تعبير صريح، ودعوة واضحة لمبدأ التربية المستديمة[3]. التي تجعل من المسلم طالباً للعلم ما دامت هناك حياة.

تعليم الكبار من المنظور الإسلامي:

إن الحديث عن تعليم الكبار من الوجهة الإسلامية يستوجب إلقاء الضوء على مفهومي: «الأمّي» و«الكبير» من المنظور عينه... وذلك لارتباطهما الوثيق بعنوان الدراسة. هذا بالإضافة إلى ما للتوضيح من دلالات تربوية قد تسهم في إلقاء مزيد من الضوء على صورة ومضامين مفهوم تعليم الكبار. هذا المصطلح الذي يبقى عرضة لأن تتغير مفاهيمه، والوظائف المنوطة به، تبعاً للتطور الحضاري في مستوياته العالمية، وما ينجم عن ذلك من تأثيرات في مختلف الصُعد.

من هو الأُمّي؟

الأُمّي حسب علماء اللغة: من لا يكتب أو العيي الجافي قليل الكلام، وقيل: أمّي؛ لأنه على ما ولدته أمّه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان[4]. **والأمّي**: الذي لا يحسن الكتابة إنما سمّي أمّياً لأحد وجوه. **أحدهما**: أن الأمّة الخلقة، فسمي أمّياً لأنه باق على خلقته، ومنه قول الأعشى:

وأن معاوية الأكرمين بيض الوجوه طوال الأمم

وثانيهما: أنّه مأخوذ من الأمّة التي هي الجماعة، أي هو على أصل ما عليه الأمّة في أنّه لا يكتب لأنّه يستفيد الكتابة بعد أن لم يكن يكتب. **وثالثهما**: أنّه

---

(1) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: **إستراتيجية تطوير التربية العربية**، ص: 61.
(2) سورة: طه، الآية: 114.
(3) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: **إستراتيجية تطوير التربية العربية**، ص: 61.
(4) ابن منظور: **لسان العرب**، 2/ 34.

مأخوذ من الأمم أي هو على ما ولدته أمّه في أنّه لا يكتب[1]. وقيل: إنما نسب إلى أمّه لأن الكتابة هي مكتسبة فكأنّه نسب إلى ما يولد عليه. وفي الحديث: «إنّا أمّة أمّية لا نكتب ولا نحسب»[2]، أراد أنهم على أصل ولادة أمّهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى[3]. وهكذا فإن «الأمّي من لا يكتب منسوب إلى أمّة العرب، المشهورين بعدم الخط والكتابة، ووصف نبينا محمد ﷺ بالأمّي لذلك»[4].

ويرى الراغب الأصفهاني (502 هـ/ 1108 م) في معنى الأمّية: أنّ الأمّي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وعليه حمّل ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[5]، وقيل: الأمّية الغفلة والجهالة، فالأمّي منه وذلك هو قلة المعرفة[6].

وقد أشار القرآن الكريم إلى الأمّيين في مواقع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[8].

يقول الطبري (310 هـ/ 923 م) في تفسير الأمّية في الآية الأولى: إن المقصود بذلك «وقل يا محمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنّصارى والأمّيين الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب أأسلمتم...»[9]. وفي هذا يلتقي الطبري مع كثيرين من المفسرين الذين يرون بأن المقصود بالأمّيين من لا كتاب لهم من غير اليهود والنّصارى.

---

(1) الزبيدي: تاج العروس، 8/ 189 ـ 191.
(2) مسلم: صحيح مسلم، 2/ 761.
(3) ابن منظور: لسان العرب، 2/ 34.
(4) بهاء الدين العاملي: الكشكول، 2/ 393.
(5) سورة: الجمعة، الآية: 2.
(6) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص: 22.
(7) سورة: آل عمران، الآية: 20.
(8) سورة: الجمعة، الآية: 2.
(9) الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، 3/ 143.

وفي تفسير الأمّية في الآية الثانية يَنحو الطبري تقريباً المنحى نفسه عندما قال والأمّيون هم العرب. فعن قتادة (118 هـ/ 736 م) ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[1] قال «كان هذا الحي من العرب أمة أمّية، ليس فيها كتاب يقرأونه فبعث الله محمداً ﷺ رحمة وهدى يهديهم به». وقال «كانت هذه الأمة أمية لا يقرأون كتاباً» وقال: «إنما سميت أمّة محمد ﷺ الأمّيين لأنّه لم ينزل عليهم كتاباً»[2].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾[3].

يقول ابن عباس: (68 هـ/ 687 م) في تعريف الأمّيين الذين وردوا في الآية بأنهم: «قومٌ لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ولا كتاباً أنزله الله فكتبوا كتاباً بأيديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند الله. وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أمّيين لجحودهم كتب الله ورسله»[4]. «فأمّية هذا الفريق ليست أمّية كتابية لأنّه قد أخبر أنهم كانوا يكتبون بأيديهم وإنما هي أمّية دينية، أي جهل بالدين وإنكار له وعدم تصديق»[5].

فاصطلاح أمّي طبقاً لهذا الرأي لا يعني الجهل بالكتابة على الرغم من أن التعريف العام للأمّي في الكتب المتخصصة بأنّه «الشخص الذي لا يعرف القراءة والكتابة بأية لغة، وقد تجاوز سن التعليم الأولي»[6].

وفي كلا الحالين إن المقصود هو الكبير الذي يحتاج لمحو أمّيته حتى يواكب تطور المجتمع، الشيء الذي يجعل من محو الأمّية محطة أساسية على طريق

(1) سورة: الجمعة، الآية: 2.
(2) الطبري: **جامع البيان عن تأويل أي القرآن**، 28/ 94.
(3) سورة: البقرة، الآيتان، 78، و79.
(4) الطبري: م. س، 1/ 374.
(5) ناصر الدين الأسد: **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية**، ص: 45.
(6) Paul Foulque, Dicitionnaire de la Langue Pedagogique, P. 18.

التعليم المستمر الذي طالما دعا إليه الإسلام، ولكن من هو هذا الكبير الذي تستهدفه هذه العملية التعليمية المستديمة؟

الكبير من المنظور الإسلامي

من خلال أمعان النظر في الأصول الإسلامية، يلاحظ أنه لم يرد تحديد للسن التي يبدأ عندها الصبي التعلم أو عدد السنين التي يجب أن يقضيها في تحصيل العلم. ولكن يمكن الاستدلال على ذلك عبر عدد من الشواهد، في الوقت الذي يجب أن لا يغيب عن البال أن الإسلام قد ألغى الحد الزمني للتعليم من خلال جعل التعلم فريضة؛ علاوة على تكريسه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يجعل من التربية والتعليم عملية مستمرة ما استمرت الحياة. ولذلك لم يكن غريباً أن تكون دعوة المسلمين لطلب العلم من المهد إلى اللحد.

غير أن رسول ﷺ يقيد التعلم بالعقل ولذلك **فهو «يعفي من لا عقل له ومن كان عقله غير ناضج من تحمل المسؤولية الكاملة عن السلوك غير السوي؛ لأن المؤاخذ هو العاقل فقط»**[1]. وهو ما يشير إليه الإمام علي ﷺ عندما يقول: «إن القلم رفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يدرك وعن النائم حتى يستيقظ»[2]. لذلك فإن علماء الفقه «أجمعوا على ضرورة توافر العلم للإنسان ليصبح عليه التكليف بالواجب. ومن ثم نجدهم قد رفعوا التكليف عمّن لم يصل سن البلوغ على أساس أنّه لم يكتمل نموه بعده، وبالتالي لم يتوافر له نضج العقل الذي يعتبر الأداة الصحيحة لتحصيل العلم، ولذلك أسقط التكليف للسبب نفسه عن المجنون، وهو فاقد العقل، وكذلك البهيمة والجماد»[3].

لذا يمكن القول: إن الكبير هو الصبي الذي نضج عقله، ولم يسبق له أن تَلَقّى العلم الأساسي. وبما أن المُكَلّف هو العاقل الذي بلغ سن الرشد، وهو ما أشار له القرآن الكريم بلفظة: «الحلم»[4] فإن الكبير إذن هو العاقل الذي بلغ الحلم

(1) عبد الرحمٰن صالح عبدالله: **ابن الجوزي وتربية العقل**، ص: 19.
(2) البخاري: **صحيح البخاري**، 7/ 81.
(3) عبد الحي محمد قابيل: **المذاهب الأخلاقية في الإسلام**، ص: 47.
(4) انظر: سورة: النور، الآيتين، 58 و59.

ولم يسبق له أن تلقى العلم الأساسي. ووجهة النظر هذه يعبر عنها الإمام علي ﷺ في قوله: «يُرخى الصبي سبعاً، ويؤدب سبعاً...»[1].

ومن جهة أخرى قد يكون الكبير هو الصبي الذي نضج عقله وبلغ سن العاشرة، ولم يتلق العلم الأساسي. وهذا ما يمكن استخلاصه من قول الرسول ﷺ **«مروا أولادكم بالصلاة، وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها، وهم أبناء عشر»**[2].

غير أن هناك من كانوا يدفعون بأولادهم لتلقي العلم في سن مبكرة بدليل وصية القابسي (403 هـ/ 1012 م) للمعلم لما يجب أن يقوم به تجاه الصبيان إذ «ينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين»[3]، وفي هذا إشارة واضحة إلى أنّه كان بين الصبيان من هم دون السابعة مما يعني أنهم لم يتقيدوا بسن معينة للبدء بتعليم الأولاد وإنما كانوا يقيدون ذلك بقدراتهم العقلية. وهذا ما يفصح عنه ابن العربي (543 هـ/ 1148م) عندما يقول: «وللقوم في التعليم سيرة بديعة، وهي أنّ الصغير إذا عقل بعثوه إلى المكتب»[4].

وفي الوقت الذي يرى فيه بعضهم أن سن السابعة تعتبر البداية العملية لتلقي العلم عند أطفال المسلمين ينتقد الأهواني مثل هذا الرأي معتبراً «أن هذه السن لم تكن محدودة، وإنما كانت تشمل مرحلة بين الخامسة والسابعة، تبعاً لاختلاف نضج الصبيان وتقدمهم في الفهم والتمييز»[5]. ويعزز الأهواني وجهة نظره بما روي عن الإمام مالك عندما سئل عن تعليم الصبيان في المسجد فقال: «لا أدري ذلك يجوز لأنهم لا يتحفظون من النجاسة»[6]. لذا كما يقول الأهواني «فالطفل الذي لا يتحفظ من النجاسة، ولا يستطيع الاستقرار، هو طفل دون السابعة في الغالب»[7].

---

(1) الطبرسي: **مكارم الأخلاق**، ص: 223.
(2) أبو داود: **سنن أبي داود**، 1/ 334.
(3) أبو داود: **سنن أبي داود**، 1/ 334.
(4) ابن العربي: **أحكام القرآن**، 2/ 291.
(5) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام**، ص: 60.
(6) القابسي: **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين**، ص: 324.
(7) أحمد فؤاد الأهواني: م. س، ص. ن.

والاختلاف لم يقتصر على سن الابتداء بالتعليم، وإنما سحب نفسه على سن الانتهاء من مرحلة التعليم الأساسي أيضاً. ويبدو أن من بين الصبيان من كانوا يبلغون سن الاحتلام. وهو ما يتضح من قول القابسي «وإنه لينبغي للمعلم أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده، يناهز الاحتلام، أو يكون له جرأة»[1]. ومن جهة أخرى كان هناك صبيان ينهون هذه المرحلة من التعليم وهم في سن العاشرة. وهو ما يعبر عنه ابن عباس في قوله: «توفي رسول ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم»[2]. وكذلك ابن سينا (428هـ/ 1037م) الذي يشير إلى ذلك في قوله: «ثم انتقلنا إلى بخارى وأحضرت معلم القرآن، ومعلم الأدب وأكملت العشر من العمر، وقد أتيت على القرآن، وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضي مني العجب»[3].

ويخلص الأهواني إلى القول: بأن النابغين لا يؤخذون «مقياساً في الحكم على العامة وأوساط الناس، فإذا قدّرنا أنّ الممتاز النابغ النابة يحفظ القرآن في العاشرة فإن المتوسط العادي يحفظه في الثانية عشرة، أما المتأخرون فإنهم يحتاجون إلى زمن أطول وهذا هو السر في تخلف بعض الصبيان في الكتاتيب حتى سن الاحتلام»[4]. وهكذا فإن مرحلة التعليم الأساسي ـ في نظر الأهواني ـ تستمر خمس سنين تبدأ في السادسة، وتنتهي في سن الثانية عشرة[5].

وتبعاً لوجهة النظر هذه فإن الكبير هو الصبي العاقل الذي بلغ سن الثانية عشرة، ولم يتم مرحلة التعليم الأساسي (الكتاب).

أما عبد الله فياض فبعد أن يستعرض عدداً من الشواهد المنتمية، يقرّ بصعوبة تحديد السن التي يبدأ عندها تعلم العلوم ـ وهي المرحلة التي تلي مرحلة الكتاب... إلّا أنّه يخلص في النهاية إلى القول بأنه لا يمكن استنتاج «قاعدة عامة نستند إليها في تقدير السن التي يبدأ بها الطلبة تعلم العلوم. ولمّا كان الصبي ينهي

(1) القابسي: **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين**، ص: 316.
(2) القابسي: م. ن، ص: 289.
(3) ابن أبي أصيبعة: **طبقات الأطباء**، 3/ 3.
(4) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام**، ص: 60.
(5) أحمد فؤاد الأهواني: م. ن، ص. ن.

تعلّمه الأولي حوالي الرابعة عشرة من عمره... يمكننا أن نقترح سن الخامسة عشرة بداية لمرحلة تعلم الطلبة العلوم»[1].

وبناء على هذا الرأي فإن الكبير هو العاقل الذي بلغ سن الرابعة عشرة ولم ينه مرحلة التعليم الأساسي.

يتضح مما سبق صعوبة الجزم بالوصول إلى قاعدة عامة وثابتة في شأن تحديد من هم الكبار. إلّا أن هذا لا يمنع من أن يدلي المرء برأيه على ضوء ما لديه من معطيات. فمن هذا المنطلق واستناداً لما سبق يمكن القول: إن الكبير هو الصبي العاقل الذي يتراوح سنّه بين العاشرة والرابعة عشرة ولم ينه مرحلة التعليم الأساسي. وإذا كانت هذه وجهة نظر غير قطعية فإن ما هو قطعيّ، هو أن النّصوص ذات الصلة بالموضوع جميعها تؤكد على أهمية العلم وضرورة الشروع به في سن مبكرة ـ على أساس أن الإسلام دعوة إلى العلم ـ وهو عين ما عبّر عنه الرسول ﷺ عندما قال: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[2]. وامتثال المسلمين لأمر الرسول جعل من طلب العلم من المهد إلى اللحد حقيقة واقعة بين صفوف أبناء المجتمع الإسلامي. وبهذا يكون الإسلام قد أسقط الحد الزمني لهذه العملية التي يفترض أن تستمر ما استمرت الحياة، مع مراعاة حقيقة أن «أقوَم التقويم ما كان في الصغر فأما إذا ترك الولد وطبعه فنشأ عليه ومرّن كان ردّه صعباً»[3].

وفي جميع الأحوال: إن «تعليم الكبار ليس وقفاً على طلقاء الأميّة ولا يشكل مراحل متابعة متقدمة للأميين وحدهم فتعليم الكبار عملية مستمرة، وتخدم أشكالاً متعددة من جوانب النشاط التعليمي، فقد يكون تعليماً تكميلياً لبعض المراحل، وقد يكون تأهيلياً، وقد يكون إعداداً جديداً، وقد يكون متابعة ضرورية لفروع التخصص، أو الثقافة العامة، وهي ممارسة يومية لكل إنسان يكتسب جديداً من خبرة أو فكرة أو علاقة... فتعليم الكبار في هذا المفهوم عملية تكيّف، ثقافي،

(1) عبدالله فياض: **تاريخ التربية عند الأمامية وأسلافهم من الشيعة في عهدي الصادق والطوسي**، ص: 206.

(2) الطبراني: **المعجم الكبير**، 10/ 195.

(3) ابن الجوزي: **الطب الروحاني**، ص: 45، 46.

واجتماعي، وسياسي، ومهني، وديني مستمر مدى الحياة»[1]. مما يعني أن تعلم الكبار في الإسلام يُعَبِّر تعبيراً صادقاً عن التربية الإسلامية التي تتميز عن غيرها بصفات الاستمرارية والتكامل والشمول على قاعدة من التوازن في مراعاة حاجات الروح والجسد ومتطلبات الحياة الدنيا والآخرة بما يكفل عمارة الأرض وتحقيق الخلافة الصالحة التي تعتبر مسوغ وجود الإنسان في هذه الحياة.

التكليف وتعليم الكبار

لقد كان الإنسان وما يزال عرضة لكثير من التعاريف. إلّا أنّه «إذا كان للمناطقة أن يعرفوا الإنسان... بأنّه حيوان ناطق. أو جاز للاجتماعيين أن يعرّفوه... بأنه حيوان مدني بالطبع، فإنّه يمكن تعريف الإنسان من وجهة نظر الشريعة بأنّه الكائن المكلّف، لأنّه ـ من بين سائر المخلوقات التي تعيش على وجه الأرض ـ مناط بالتكليف والمسؤولية»[2]. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[3].

والراشد هو المكلف في الإسلام لأنه «الوحيد بين هذه الكائنات الذي يملك إرادة حرة يستطيع أن يختار طريقه ضمن نطاق السنن والقوانين والأقدار التي أحيط بها. فالجماد يطيع إطاعة آلية دون إرادة أو اختيار خاضعاً للقوانين والسُّنن التي وضعها الله. أما الحيوان فإنّه محكوم بغرائزه التي ركّبها الله فيه ولا يستطيع الخروج على قواعد هذه الغريزة المسيطرة»[4].

وأمام هذا الواقع، ورغم صعوبة الجزم في تحديد من هو الكبير في إطار ما يعرف اليوم بتعليم الكبار، يشكل «التكليف» نقطة تقاطع لشتى وجهات النظر على اعتبار أنّه أمر موجب للتعلم في الإسلام. فالتعليم والتكليف حقيقتان متلازمتان على طريق تحقيق حكمة الله في خلق هذا الكيان المسمى إنساناً. وحتى تتحقق الرسالة

(1) محي الدين صابر: **الأمية مشكلات وحلول**، ص: 28.
(2) عبد الكريم عثمان: **معالم الثقافة الإسلامية**، ص: 158.
(3) سورة: الأحزاب، الآية: 72.
(4) عبد الكريم العثمان: **معالم الثقافة الإسلامية**، ص: 158.

وتتم العبادة على الوجه الأمثل كان لا بد من التعليم. وهل ينفع القرآن إلّا بالعلم؟

التبليغ وتعليم الكبار

صحيح أن الإنسان جُبِلَ على الإسلام وفُطِرَ على التزامه كغيره من مخلوقات هذا الكون. «ومن الجهة الأخرى هو بالخيار في كونه مسلماً أو غير مسلم. وهذه الخيرة هي التي تجعل الإنسان على نوعين: إنسان يعرف خالقه ويؤمن به رباً ومالكاً وسيداً لنفسه ويتبع قانونه الشرعي في حياته الاختيارية. كما هو تابع لقانونه الطبيعي في حياته الجبرية. وهذا هو المسلم الكامل الذي قد استكمل إسلامه... وأزائه إنسان آخر ولد مسلماً وعاش مسلماً طول حياته، من غير أن يشعر بإسلامه أو يفطن له. ولكنه ما أعمل قوته العملية والعقلية ليعرف من خلقه، وشق سمعه وبصره، فأنكر وجوده، واستكبر على عبادته، وأبى أن ينقاد لقانونه الشرعي فيما أوتي فيه حق التصرف والاختيار من أمور حياته، أو أشرك به غيره وأبى أن يؤمن بآياته الدّالة على وحدانيته وهذا هو الكافر»[1].

إلّا أن الله تعالى رحمة بعباده «أرسل للناس رسلاً مبشرين ومنذرين وأنزل عليهم شرائع تبين للناس ما يحتاجون إليه من بيان للعقيدة الصحيحة، وللمناهج التي يجب أن يسلكها الإنسان ليصل إلى رضوان الله سبحانه، وإلى السعادة والحياة الطيبة في الدنيا، ثم الفوز برضوان الله والجنّة في الآخرة، وذلك لئلا يكون للناس على الله حجة بأنّه لم يرسل لهم من يبلغهم أوامره ونواهيه وسائر شرائعه، ويرغبهم بثوابه، وينذرهم عقابه، حتى يعرفوا واجبهم نحو ربهم»[2]. قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[3].

فالرسول بمثابة الميزان العادل بين الطبقات، والهادي المرشد المنقذ من الضلالات، فيه تعرف كل نفس ما لها وما عليها، وبه ينصف المظلوم ويتبيّن الرشد من الغي. فمتى آمن الناس به واتبعوه وصدّقوا ما جاء به انتظمت شؤونهم وسعدت معيشتهم، وتهذبت نفوسهم، واستقامت أمورهم وانقلب شقاؤهم إلى سعادة.

---

(1) أبو الأعلى المودودي: **مبادىء الإسلام**، ص: 7-9.

(2) عبد الله عرواني: **أصول العقائد الإسلامية**، ص: 59.

(3) سورة: النساء، الآية: 165.

وحتى يقوم الرسل بمهامهم كان لا بد لهم من العلم والتعلم. ولقد كان أبرز موقفين تعليميين في حياة البشرية هما: الموقف التعليمي الأول: لآدم ﷺ، والموقف التعليمي الأخير: لمحمد ﷺ. وإذا كانت رسالة السماء إلى البشر بدأت بتعليم آدم الأسماء كلها، فإنها ختمت بالرسالة الخاتمة التي بدأت أيضاً بأمر الله لمحمد ﷺ بأن يقرأ. يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1].

فآدم ومن جاء بعده من الرسل وكان آخرهم محمد ﷺ عُلّموا ما لم يعلّمه غيرهم من البشر، والمعرفة التي اختصوا بها كانت وسيلتهم ليقوموا بمهام التكليف، ويعلّموا الناس الأحكام والمعتقدات التي علموها حتى يعملوا بها. ولما كان التكليف بالتبليغ مناطاً بالعاقل الراشد الذي أختير من صفوة الناس. فإن الإيحاء لهذا الصنف من البشر يعبر ـ من جملة ما يعبر عنه ـ عن مواقف تعليمية خاصة بالكبار الذين وضع الله حداً لأميتهم عن طريق العلم الذي تلقوه والمعرفة التي زودوا بها، حتى ليتمكن الإنسان من خلالهم أن يقف على ما لا بد من معرفته، وما تعجز أدوات حسه وعقله من دركه. والقرآن الكريم يتحدث عن هذه المواقف التعليمية ويبرزها في أكثر من موقع.

ومن أمثلة ذلك ما ورد بشأن تعليم آدم ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾[2]. فكان هذا أول موقف تعليمي تشهده الخليقة. خُصّ به آدم ليقوم بمهمة التكليف وليحمل الرسالة، الأمر الذي خفيت فيه على الملائكة حكمة المشيئة العليا في هذا التكليف.

وتتابعت المواقف التعليمية مع باقي الرسل وفي مقدمتهم نوح ﷺ الذي

---

(1) سورة: العلق، الآيات: 1 ـ 5.

(2) سورة: البقرة، الآيات: 31 ـ 33.

جاء فيه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وكذلك بشأن إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾[2].

أما خاتم الرسل ﷺ فقد بعثه الله تعالى «ليعلّم المسلمين القرآن والسنة وينقذهم من مهاوي الشرك والوثنية، ويهديهم إلى العقيدة الصحيحة والشريعة الخاتمة للشرائع، ويسن لهم الطرق القويمة في الأخلاق والمعاملات، وما ينفعهم في شؤون الدنيا والآخرة، ويقص عليهم الأخبار الصحيحة للماضين عظة وذكرى»[3]، يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[4].

ولقد «بدأ هذا الأمّي ﷺ الذي لم يولد ولم يقم طول حياته إلّا في الصحراء بين الأميين، يأتي بحكم ومواعظ لم ينطق بها أحدٌ قبله، ولا استطاع أن ينطق بها أحد بعده، بل لم يسمعها الناس من لسانه نفسه قبل أن يبلغ أربعين من عمره»[5].

فحكمة المولى ﷻ اقتضت أن يجعل من الرجل الذي نشأ على الفطرة في أمّة عريقة في الجهل، ولم يعمل إلاّ برعي الغنم أو التجارة أن يتعلم وهو في الأربعين من عمره وأن يربى على عين ربه لقوله جلّ ثناؤه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[6].

ومن أبرز صفات هذا التعليم الموجه لواحد من كبار الأميين الذين اصطفاهم الله تعالى أنّه كان تعليماً مستمراً بدليل أن الرسول ﷺ استمر في التلقي والتعليم في

(1) سورة: هود، الآيتان، 36، 37.
(2) سورة: الأنعام، الآيتان، 74، 75.
(3) سعيد إسماعيل علي: رؤية إسلامية لقضايا تربوية، ص: 19.
(4) سورة: البقرة، الآية: 151.
(5) أبو الأعلى المودودي: مبادىء الإسلام، ص: 67.
(6) سورة: الطور، الآية: 48.

مدرسة الألوهية طيلة فترة حياته، وهو ما يؤكده «نزول القرآن منجماً وموزعاً على مدى الزمن الذي ابتعث فيه الرسول ﷺ هادياً ومعلماً ـ وهو ثلاث وعشرون سنة ـ حتى إن آخر آية نزلت عليه وهي: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] كانت في حجة الوداع حيث العام الأخير من حياة الرسول ﷺ والمعروف أن القرآن الكريم دستور المسلمين ومنبع التشريع لهم، وأصل الأصول في المعرفة»[2].

وهناك خاصية أخرى يمكن الوقوف عليها، وهي أن هذا النشاط التعليمي له وجهان متلازمان: الأول: تعلّمي، والآخر: تعليمي. فالرسول ـ وهو المعلم الأول ـ كان متعلّماً بالنسبة لله تعالى الذي يُشكل مصدر العلم كله.

وهكذا فإن كل من جاء بعد الرسول الكريم فإنّه متعلّم بالنسبة لمن فوقه، ومعلّم لمن دونه في العلم والمعرفة، وهذا ما يفترض أن يكون عليه المجتمع الإسلامي حتى يصدق فيه قول الله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3].

يتضح من خلال السياق أنّ التربية التي حظي بها خاتم الأنبياء ومن سبقه من الرسل، تعتبر الأصول الذي يرتكز إليها الكثير من المبادىء والمفاهيم الخاصة بما هو متعارف عليه اليوم بتعليم الكبار. وما يعزز هذه القناعة أكثر فأكثر هو أن الأوامر أو التكاليف الإسلامية بتحصيل العلم والسير في ركابه «إنما هي أوامر أو تكاليف تتجه إلى الكبار والراشدين، ولا تتجه إلى أطفال، ومن ثم كان تعليم الأطفال في الإسلام هدفه تمكين هؤلاء الأطفال من تحصيل العلم عندما يصلون إلى سن التكليف»[4]. مما يعني أن التعليم في الإسلام عملية مستمرة ما استمرت الحياة، وما تعليم الكبار إلاّ مرحلة من مراحل هذا التعليم المستديم.

---

(1) سورة: المائدة، الآية: 3.

(2) حسين سليمان قورة: **«التربية مدى الحياة أساس واضح في منهج التربية الإسلامية»**، مجلة التربية، الدوحة، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، جمادى الأولى 1396 هـ/ أيار 1976 م، عدد 15، ص: 37.

(3) سورة: التوبة، الآية: 122.

(4) عبدالغني عبود: **في التربية المستمرة ومحو الأمية وتعليم الكبار**، ص: 281 ـ 282.

العبادة وتعليم الكبار

للوقوف على طبيعة العلاقة بين العبادة وتعليم الكبار في الإسلام لا بد من تحديد مفهوم هذه العبادة في ضوء نظره الإسلام للإنسان لما لذلك من فائدة على صعيد توضيح طبيعة هذه العلاقة وأهميتها في تحديد دور الإنسان في هذه الحياة.

معنى العبادة

لطالما تساءل الإنسان عن سبب خلقه والغاية منه. هذا السؤال الذي شغل بال الفلاسفة والمفكرين عبر تاريخ البشرية، إلاّ أنهم لم يهتدوا إلى رأي ثابت في حل أسراره. وإذا كان هناك من يرى أن «أعظم مسائل الفلسفة وأجلّها شأناً ثلاث مسائل وهي: أولاً: ما الذي نستطيع معرفته؟ وثانياً: ما الذي يجب أن نعلمه؟ وثالثاً: ما الذي نرتجيه ونعلق آمالنا عليه؟»[1] استطاع الإسلام أن يضع حداً لهذه التساؤلات من خلال الإجابة الواضحة عن هذه المسائل التي شغلت بال الكثيرين. وذلك عندما حدد القرآن الكريم بوضوح الغاية من خلق الإنسان.

وآيات القرآن الكريم في هذا الشأن كثيرة، ومنها على سبيل المثال قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾[3].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[4].

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[5].

---

(1) عفيف طبارة: روح الدين الإسلامي، ص: 191.
(2) سورة: الذاريات، الآيات: 56 ـ 58.
(3) سورة: البقرة، الآية: 21.
(4) سورة: الأنبياء، الآية: 25.
(5) سورة: النحل، الآية: 36.

ففي هذا بيان واضح على أن الله خلق الناس جميعاً لعبادته، وأرسل الرسل جميعاً إليهم يأمرونهم بعبادته ﷻ، ومن ثم فعليهم أن يتعلموا ما يُعينهم على عبادة الله ﷻ[1]. مما يعني أن «من أبرز سمات المنهج الإسلامي أنّه منهج عبادة. ولكن العبادة في هذا المنهج تحتاج إلى توضيح»[2] لأن هناك من «لا يفهم من معنى العبادة إلّا أنها الصلاة والصوم والزكاة والحجّ والصدقة وبعض الأذكار والأدعية، مع أن هذا جانب واحد فقط من جوانب العبادة. فالعبادة تشمل النشاط الإنساني كله؛ لأن نشاط الإنسان المسلم كله حركة واحدة متجهة نحو تحقيق غاية وجوده»[3].

ولما كان الإنسان هو العبد والله ﷻ هو المعبود فإن «كل ما يأتي به العبد في طاعة معبوده هو العبادة... وجملة القول: إن خوفك لله تعالى في كل شأن من شؤون حياتك، وفي كل حين من أحيانك، وجعلك مرضاة الله نصب عينيك واتباعك لقانونه، ورفضك كل منفعة تنالها أو يمكن أن تنالها بمعصية، وصبرك على مضرة تصيبك أو يمكن أن تصيبك بطاعته، ذلك كله عبادتك لله تعالى، وحياتك بهذا الطريق من أولها إلى آخرها عبادة، وليس الأكل والشرب والنوم واليقظة والقعود والقيام والمشي والكلام والسكوت إلّا من العبادة في حياة كهذه»[4].

ولهذا فإن «الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر الشعائر التعبدية إن هي إلّا مفاتيح... مجرد مفاتيح للعبادة أو «محطات» يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد. ولكن الطريق كله عبادة، وكل ما يقع فيه من نُسك أو عمل، أو فكر أو شعور فهو كذلك عبادة... ما دامت وجهته إلى الله»[5].

فالعبادة بهذا المعنى تجعل وعي الإنسان للبعيد الآجل أقوى من وعيه

(1) عبد الفتاح جلال: **من الأصول التربوية في الإسلام**، ص: 81.
(2) محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**، 2/ 34.
(3) علي أحمد مدكور: «**المضامين الإسلامية لتعليم الكبار في ضوء القرآن والسنة**»، علم تعليم الكبار، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 6/ 62.
(4) أبو الأعلى المودودي: **مبادىء الإسلام**، ص: 128، 129.
(5) محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**، 1/ 34.

للقريب العاجل. وبهذا فهو يبتعد عن الحيوانية ويرتفع عن مستواها ليصبح أرق روحاً وعقلاً؛ لأنه أصبح يدرك أن «الحلقة النهائية من هذه الحلقات، والدائرة القصوى من هذه الدوائر المحيطة به هي تلك التي تحدد موقعه من الكون وخالق الكون وهي أهم تلك الحلقات، وموقعه منها أهم وأسمى من موقعه من الحلقات الأخرى، فهي التي تريه موقعه هو والكون ـ باعتباره وجوداً عارضاً ـ من الوجود الأزلي الثابت، أي باعتباره مخلوقاً لخالق، وخاضعاً لأمر حقيقي أعلى ومرتبطاً ارتباطاً دائماً ومفتقراً مستمراً لغني عن وجود غيره ولقائم بنفسه وذاته»[1].

فقيمة العبادة في الإسلام أن تكون منهج حياة والمتتبع لما جاء في القرآن الكريم يجد أن «مدلول العبادة في القرآن شامل لا يقتصر على الفرائض، فالحياة في منهجه وحدة، كل ما فيها لله، لا يفصل بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، ولا يفرق بين الفرائض والسلوك، ويجعل كل حركة في حياة المسلم وثيقة الصلة بعقيدته، متجهاً بها إلى ربه منفذاً بها أمره ومحققاً رسالته»[2].

وحتى يسهل على الإنسان أن يعبد الله في كل حين من أحيانه «افترض عليه لهذا الغرض مجموعة من العبادات تهيئه لهذه العبادة الكبيرة، فكأنه ليست هذه العبادات المفروضة إلاّ بمثابة التربية للعبادة الكبيرة المنشودة، فكل من يتلقى هذه التربية على أحسن وجه يؤدي العبادة الحقيقية على الوجه المراد.

ومن أجل ذلك جعلت هذه العبادات عين الفريضة في الإسلام، وقيل: إنها أركان الدين أي دعائمه... فكما أن كل بناء لا يقوم إلّا على مجموعة من الدعائم كذلك لا يقوم بناء الحياة الإسلامية إلّا على هذه الدعائم. فمن هدمها فقد هدم بناء الإسلام»[3].

فالعبادة في الإسلام إذن تقسم إلى قسمين: «عبادة بالمعنى الخاص» وهي التي أنشأها الله لتكون الصلة المباشرة بين الإنسان وخالقه، وتشكل الحد الأدنى

(1) محمد المبارك: **نظام الإسلام العقيدة والعبادة**، ص: 191.
(2) محمد شديد: **منهج القرآن في التربية**، ص: 214.
(3) أبو الأعلى المودودي: **مبادىء الإسلام**، ص: 130.

المفروض للعبادة والمتمثل بالفرائض المعروفة. و«عبادة بالمعنى العام» وتشمل كل عمل صالح أريد به رضوان الله.

والإسلام عندما ينظر إلى كل عمل صالح على أنّه عبادة، فهو بذلك إنما يحارب «الفلسفة» الانهزامية الانعزالية التي تدعو إلى النسك الأعجمي وإلى الضعف والكسل في حياة تحتاج إلى القوة والغنى والعمل. وهذا التفسير المزدوج لمعنى العبادة هو التفسير السليم لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1].

تعليم الكبار والعبادة بمعناها الخاص

إن خطاب الرسول المتعلق بالشعائر المكتوبة في قوله: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان**»[2] خطاب مُوجّه للكبار من أبناء المسلمين الذين يقع عليهم التكليف، على أساس أن الرشد شرط موجب للعبادة في الإسلام ـ غير أنه لا تجب أية فريضة من الفرائض على الكافر وجوب مطالبة بها في الدنيا لعدم صحتها منه، لكن تجب عليه وجوب عقاب عليها في الآخرة ـ ولطالما أن هذه العبادة فرض على هؤلاء الكبار فإن تعلمها واجب لأن «هذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب»[3] الأمر الذي يجعل من تعلم وتعليم الكبار في الإسلام أمراً ملزماً إلزامية أداء الشعائر التي أمر بها الله تعالى ورسوله الكريم.

فالمسلم ـ مثلاً ـ لن يكون بمقدوره أداء الصلاة ما لم يكن على علم بالطهارة وشروطها وصحتها ومفسداتها. هذا إلى جانب حفظه لقسط من القرآن الكريم وشيء من الأدعية التي تمكنه من توفير الحد اللازم لأداء هذه الفريضة بالشكل المطلوب. لذلك فإن طلب العلم للكبار والحرص على تحصيله يعتبر مهمة رئيسة من المهام الملقاة على عاتق الذكور والإناث من أفراد المجتمع الإسلامي

(1) سورة: الذاريات، الآية: 56.
(2) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 14؛ مسلم: **صحيح مسلم**، 1/ 45.
(3) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 26.

طالما أن المسلم يطلب العلم ليعلم دينه، ويؤدي ما فرض عليه من تصور وعمل.

ولما كان الإحسان مبدأ الإسلام في كل شيء فإن هذا المبدأ يرتب على المسلم الاستزادة المستمرة من العلم والمعرفة كي يؤدي كل شأن من شؤون حياته على الوجه الأمثل طمعاً في أن يرقى لمرتبة الإحسان. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[1]. ويقول محمد ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، ويرح ذبيحته**»[2]. فإذا كان هذا هو المطلوب في شؤون الحياة العامة فمن باب أولى أن تحظى عبادة الله على هذا المستوى الرفيع من الأداء الذي يرقى بصاحبه لمرتبة الإحسان التي قال عنها الرسول ﷺ «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لا تراه فإنه يراك**»[3].

ولا شك أن الإحسان في العبادة دليل على المواظبة عليها، والعبادات الخمس في الإسلام لا تخرج عن كونها محطات دائمة للتربية المستمرة وتعليم الكبار. فالصلاة مثلاً تؤدى عدة مرات في اليوم. والدروس التي تذكّر بها الصلاة خمس مرات في الليل والنّهار، يذكر بها الصوم في كل حين من الأحيان على مدار شهر كامل من كل سنة، وكذلك بالنسبة للزكاة التي تؤدى مرّة كل عام. والحج الذي يؤدى مرة في العمر لمن استطاع إليه سبيلا.

فالدروس التي يستقيها المسلم الكبير من هذه العبادات تستمر معه لتؤكد على ضرورة التعلم المستمر للكبار. هذه العملية التي ينبثق عنها كثير من المعاني الإنسانية التي «تجمع الناس على إلفة بارّة، ومحبة صادقة، وأمن موفور، وبها تتحقق الوحدة الإنسانية التي ينشدها الإسلام بعقائده الراسخة وآدابه الكاملة وفرائضه الهادفة»[4].

وجملة القول: إن التعليم المستمر للكبار حقيقة واقعة في إطار العبادات

---

(1) سورة: النحل، الآية: 90.

(2) مسلم: صحيح مسلم، 3/ 1548.

(3) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، 1/ 24.

(4) محمد الراوي: الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، ص: 18.

المكتوبة، انطلاقاً من ضرورة الاستمرار في طلب العلم، حتى تؤدى هذه العبادات على الوجه الشرعي المطلوب، علاوة على أن هذه العبادات بمثابة مواقف تعليمية متكررة تساعد كل من يرغب الإفادة منها على أن يرقى لمرتبة الإحسان، وهي المرتبة التي يتوق أن يصل إليها كل مؤمن بالله، ومحب لرسوله الذي يقول: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[1]. وما الإحسان في العبادة إلّا ثمرة من ثمرات هذا التفقه الذي طالما دعا الرسول ﷺ إليه، إذ يقول: «**تعلموا الفرائض وعلموها فإنه نصف العلم وهو ينسى**»[2].

وبما أن النسيان وكذلك «الجهل بأركان الإيمان، وأركان الإسلام وأحكام الشريعة الربّانية المتعلقة بالأعمال التي يقوم بها كل إنسان، مفضياً إلى ضرر محقق ينزل بالإنسان وهو عقاب الله يوم القيامة بالإضافة إلى المضار الدنيوية الأخرى. كان تعلم هذه الأمور وتعليمها مما هو مفروض في الشريعة الإسلامية، وكان الإستمرار على الجهل بها مع توافر الوسائل لتعلمها محرماً لا يعذر به صاحبه»[3] الأمر الذي يجعل من مسألة تعليم الكبار مسألة من أشرف المسائل التي يتحمل مسؤوليتها الإنسان.

لأن هذه المسألة تصبح فرضاً لازماً بالنسبة للأمور التي يؤدي الجهل بها إلى الضرر بالمجتمع، وهو ما يرفضه الإسلام الذي ينهى عن الضرر والإضرار بالناس.

تعليم الكبار والعبادة بمعناها العام

يعتبر الشمول من السّمات البارزة والمميزة للعبادة في الإسلام على أساس أن الإسلام منهج حياة. ولذلك فإن مفهوم العبادة وفق هذه النظرة لا يقتصر على أداء الشعائر التعبدية المعروفة، وإنما يتميز لكونه أعمق من ذلك بكثير[4]. والإسلام «يوسع مفهوم العبادة حتى تشمل كل الحياة. كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة، وكل عمل يتركه الإنسان تقرباً واحتساباً فهو عبادة. وكل شعور نظيف في

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 46.
(2) ابن ماجه: **سنن ابن ماجه**، 2/ 908.
(3) عبد الرحمٰن حسن حبنكه الميداني: **أسس الحضارة الإسلامية**، ص: 58 ـ 59.
(4) أنظر: أبو الأعلى المودودي: **مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة**، ص: 39 ـ 42.

باطن النفس فهو عبادة، وكل امتناع عن شعور هابط من أجل مرضاة الله فهو عبادة، وكل ذكر لله في الليل والنهار فهو عبادة، ومن ثم تشمل الحياة ويصبح الإنسان عابداً لله حيثما توجه إلى الله»[1].

فالإسلام صريح وواضح في اعتبار العمل هو العبادة ما دام المقصود به مرضاة الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[2].

وفي هذا تأكيد على أن «العبادة ليست انزواء عن الحياة، أو اعتكافاً بالمساجد، وإنما العبادة في مفهومها الواسع المحقق للعقيدة تشمل جميع أعمال الإنسان التي يقصد بها رضاء الله وتحقيق العبودية الكاملة له ﷻ، والعبودية تتطلب إعمار الأرض وهو الرسالة الدنيوية للإنسان»[3].

وقد اقتضت خلافة الأرض وإعمارها أن يهيأ الإنسان لهذه المهمة، بما أكرمه الله من عقل وإرادة وقدرة على العمل وبما أودع في الأرض من موارد لاستخدامها من قبله.

ولما كانت عمارة الأرض وترقية الحياة عليها المهمة الأساسية للإنسان في هذا الوجود، فإن تحقيق الخلافة الصالحة في الأرض يشتمل على العديد من المعاني، والأمور التي لا تتحقق الخلافة الكاملة بدونها. ومن ذلك «العمل الدؤوب بجد وإخلاص وأمانة ودقة، من أجل تعمير الأرض، والاستمرار في إصلاحها، والانتفاع بخيراتها، وبكل ما أودعه الله فيها من ثروات وطاقات من أجل خدمة الإنسان وتحسين مستوى حياته، وتحقيق سعادته، وجعل هذه الأرض المكان الذي

(1) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 67.
(2) سورة: البقرة، الآية: 177.
(3) محمود أحمد موسى: «قضايا المجتمع»، في الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادىء، ص: 180.

ينال فيه الإنسان قسطاً من الجزاء الأكبر من عمله وكدّه وجهده في هذه الحياة، كما يشمل كل جهد يبذله الإنسان من أجل الكشف عن الحقائق والقوانين العلمية المختلفة، وعن ثروات الأرض وكنوزها والمحافظة على الثروات، والاقتصاد في استعمالها... إلى غير ذلك من الأمور التي تدخل في مفهوم خلافة الإنسان على الأرض»[1]. فالله جلّت حكمته «لم يخلق الإنسان ولا الكون عامة عبثاً وبدون حكمة، لأن العبث وفقدان الحكمة يتنافيان مع كماله تعالى»[2].

وعندما يتأمل المرء بحال الأرض «يرى في بعض تأمله أن الله قد استودعها من الخيرات ما هو ضروري لقيام البدن ووقايته عوادي الحر والبرد، ولكنه استودعها ـ عدا ذلك ـ من الثروات المعدنية، ودقائق القوانين، والطاقات ما لا حاجة بالبدن له... ويرى تجاه هذا أمراً عجباً... يرى أن الله استودع الإنسان من أسرار المواهب والقدرات ما يعتبر مفاتيح لكنوز هذه الثروات... أو استودعه من المواهب ما يلتئم مع قوانين طبيعة الأرض التئام السالب بالموجب، في تقدير محكم... ولم يكن ذلك رمية من غير رام... كلا بل هي الحكمة الإلهية التي جعلت في الأرض كنوزها وقوانينها، وجعلت مفاتيح هذه الكنوز فيما أوتي البشر من أسرار المدارك، وتقدير هذه المقابلة، بل الموافقة المحكمة بين هذين الطرفين يوحي ـ ولا بد ـ أن مراد الله سبحانه بها هو عمارة الأرض على أوسع وأروع ما تكون العمارة»[3].

فالعمل يشكل الدعامة الأساسية في بناء المجتمع وعمارة الحياة، وترقيتها فيه ولذلك فإن «العمل الجاد الذي تعمر به الحياة وترقى، هو أن ينصر كل منا الإسلام في ميدان تخصصه بالإنجاز فيه والإنتاج والإبداع»[4].

والرسول ﷺ يحث على إتقان العمل ويقول: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم

---

(1) عمر محمد التومي الشيباني: «قضايا الإنسان»، في الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادىء، ص: 165.

(2) عمر محمد التومي الشيباني، م. ن، ص. ن..

(3) البهي الخولي: الثروة في ظل الإسلام، ص: 62.

(4) علي أحمد مدكور: «المضامين الإسلامية لتعليم الكبار في ضوء القرآن والسنة»، في علم تعليم الكبار، 6/ 62.

عملاً أن يتقنه»[1]. لأن إتقان الإنسان لعمله يكسبه قيمة بين الناس ويرقى به في مجتمعه وعند بارئه، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[2]. فالعمل في نظر الإسلام هو الذي يعطي الإنسان قيمته. ومن دلائل عظمة العمل وجلال شأنه اشتمال القرآن الكريم على ثلاثمائة آية تتحدث عن العمل[3]. ولقد ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾[4]. ويقول الرسول ﷺ: **«ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدّقته الأعمال، وأن قوماً رحلوا من الدنيا وليس لهم عمل، وقالوا: نحسن الظن بالله، كذبوا، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل»**[5].

والمسلم المتذوق لدينه له منظور خاص للعمل فهماً وإتقاناً وشوقاً وإخلاصاً. فهو يخرج لعمله مدفوعاً بعقيدته وغير مساق سوق القطعان وغير واقع تحت قهر أو ضغط أو تهديد يشهر عليه سيف التلويح بالجوع أو الحرمان، وإنما يدفعه إيمانه بأن نجاحه في الدنيا وسعادته في الآخرة موقوفان على عمله، فالجنة ليست لمتكاسل أو لذي بطالة[6].

وليس العمل في الإسلام للحاجة فحسب بل لتحقيق مفهوم الخلافة، وهو ما يعبر عنه عمر ﷺ عندما يقول: «يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس»[7]. فهو بخطابه يحث على العمل بصفة عامة، وعلى المسلم أن يكسب قُوته من أي حرفة، أو صنعة، أو وظيفة، أو مهنة من المهن ما دام اكتسابه يقوم على ما يرضي الله لأن ذلك يسهم في خدمة الإنسان وعمارة الحياة وترقيتها وفق منهج الله تعالى. ولذلك فقد «جعل الله طلب الرزق مفروضاً على الخلق كله

---

(1) أبو يعلى الموصلي: **مسند أبي يعلى الموصلي**، 7/ 349.
(2) سورة: النجم، الآيات: 39 ـ 41.
(3) محمد فؤاد عبد الباقي: **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، ص: 483 ـ 488.
(4) سورة: المائدة، الآية: 9.
(5) ابن عدي الجرجاني: **الكامل في ضعفاء الرجال**، 6/ 289.
(6) يوسف القرضاوي: **الإيمان والحياة**، ص: 286.
(7) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، 2/ 306.

من الإنس والجن والطير والهوام، منهم بتعليم ومنهم بإلهام، وأصل التحصيل والنظر من الناس يطلبونه بأحسن وجوه من التصرف والتحرز وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال والخلابة والاحتيال»[1].

ولذلك يمكن القول إن الزارع والعامل والتاجر والموظف وكذلك الطبيب والمهندس والمخترع والمدرس والطالب والفرّاش والوزير والرئيس وكل ذي حرفة في حرفته يستطيع أن يجعل من عمله المعاشي صلاة وجهاداً في سبيل الله إذا التزم فيه الشروط الآتية[2]:

1 ـ أن يكون العمل مشروعاً في نظر الإسلام.

2 ـ أن تصحبه النية الصالحة بنفع نفسه وأمته وعمارة الأرض وفق منهج الله.

3 ـ أن يلتزم الإتقان والمهارة والإحسان في العمل.

4 ـ أن يلتزم فيه حدود الله بالبعد عن الظلم والغش والجور.

5 ـ ألّا يشغله عمله هذا عن أداء التزاماته التعبدية الأخرى.

ويبدو واضحاً أن العمل الذي يحبب فيه الإسلام ويدعو إليه هو «العمل الصالح الذي تزكو به النفس. وتقوم به الأخلاق، وتتسع به دائرة البر، وتقوى به العلاقات الإنسانية، وتصان به الأديان، والأبدان، والأعراض، والأموال، والقلوب والعقول، العمل الذي ينمي الانتاج ويزيد الثروة، ويحفظ كرامات الأفراد، ويصل بالأمة إلى غايتها من السيادة والمجادة»[3].

ولذلك ليس غريباً على الإسلام أن «يفرض العمل فرضاً ولا يعد الإيمان إيماناً بدونه. ويوم المؤمن فيه يبدأ من مطلع الفجر الصادق وظهور النجم المتألق. فيبتدىء يومه بذكر ربه وعبادة خالقه، ثم ينطلق في الأرض يمشي في مناكبها ويبتغي من فضل الله»[4].

---

(1) ابن عبد ربه: **العقد الفريد**، 2/ 306..

(2) يوسف القرضاوي: **العبادة في الإسلام**، ص: 61، 62.

(3) السيد سابق: **عناصر القوة في الإسلام**، ص: 166.

(4) محمد الرواي: **الدعوة الإسلامية دعوة عالمية**، ص: 21.

وصفة الشمول التي تميز العقيدة الإسلامية عن غيرها من العقائد تمكن «الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته، وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه، وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين، في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض وفي تدبير أمر الرزق»[1] لطالما أنه مخلص في التوجه إلى الله تعالى.

ولكن العمل القويم في الإسلام لا يبنى على الظن، وإنما على المعرفة الصحيحة لأن عقيدة الإسلام عقيدة وضوح واستقامة ونصاعة. «فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة»[2].

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[3]. فالكلمات القليلة التي وردت في الآيات الكريمة «تقيم منهجاً كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثاً جداً، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة. فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل. ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم»[4].

فالله سبحانه وتعالى عندما يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[5] إنما يأمر الخلق بأن لا يتبعوا ما لم يعلموه علم اليقين وما لم يتثبتوا من صحته، سواء كان ذلك قولاً يقال، أو رواية تُروى، أو ظاهرة تفسر، أو واقعة تعلل، أو حكماً شرعياً، أو قضية اعتقادية.

والرسول ﷺ عندما يحذر من الظن ويقول: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب**

(1) سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي، ص: 109.
(2) سيد قطب: في ظلال القرآن، 15/ 34.
(3) سورة: الإسراء، الآية: 36.
(4) سيد قطب: في ظلال القرآن، 15/ 34.
(5) سورة: الإسراء، الآية: 36.

الحديث»[1]. وفي مقام آخر يقول «من أقرى الفرى أن يري الرجل عينه ما لم ترَ»[2]. والرسول بذلك إنما يقرّ مبدأ تلازم العلم والعمل من خلال ترابطهما في إطار السعي من أجل ترقية الحياة على الأرض وفق منهج الله تعالى.

فالعمل في الإسلام لا بد وأن يكون تبعاً للعلم بنفس القدر الذي يكون فيه العلم مفتاحاً للعمل والتغيير، لأن العلم النافع هو أداة التغيير الإيجابي على مستوى الفرد والجماعة. وهو ما عبّر عنه الإمام أبو حنيفة عندما قال: «أعلم أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر، فالعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير»[3].

ويعتبر الغزالي أن العمل ميزان في القرب من الله تعالى لذلك فهو يوصي تلميذه قائلاً: «العلم بلا عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون، واعلم أن عملاً يبعدك اليوم عن المعاصي، ولا يحملك على الطاعة لن يبعدك غداً عن نار جهنم، وإذا لم تعمل اليوم، ولم تدارك الأيام الماضية تقول غداً يوم القيامة: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[4]. فيقال: يا أحمق أنت من هناك تجيء»[5].

فحتى يرقى الإنسان إلى المستوى الذي يمكّنه من تحقيق وظيفته كخليفة الله على الأرض، تبرز قيمة العلم كأساس لتحقيق العبادة بمعناها الشامل الذي لا يقتصر على الصلة بين العبد وربه، وإنما يتضمن معاني أوسع نطاقاً تمتد إلى مختلف جوانب الحياة، الأمر الذي يجعل من التعليم المستمر للكبار ضرورة حتمية لا غنى عنها لإنفاذ مشيئة الله في تمكين الناس من الأرض وتوجيه هذا التمكين إلى العمارة؛ لأنه يعسر على الإنسان أن يرقى لهذا المستوى وأن يحقق هذا المعنى للعبادة دون تعلم. وإذا كان الله ﷻ قد منّ على الإنسان، وأودعه من القدرات والمواهب والملكات ما يمكنه من أن يستغل كل ما أودع في هذه الأرض من كنوز

(1) الترمذي: سنن الترمذي، 4/ 356.
(2) البخاري: صحيح البخاري، 9/ 78.
(3) أبو حنيفة: العالم والمتعلم، ص: 9.
(4) سورة: السجدة، الآية: 12.
(5) الغزالي: أيها الولد، ص: 108 ـ 109.

وخيرات وموارد، فإن هذا الاستغلال لا يمكن أن يأتي على الوجه الأحسن بطريقة عفوية أو آلية لأنّ مثل هذه القدرات والمواهب والملكات تحتاج ـ بلا شك ـ إلى تعليم، وتدريب، وتأهيل، وتهذيب، وصقل وتنمية، وتنشئة ورعاية دائمة حتى تتمكن من القيام بدورها في عمارة الأرض وتنمية الحياة عليها.

تعليم الكبار فريضة إسلامية

حتى يكون الإنسان أهلاً للتكليف الذي خلق من أجله والتفضيل الذي فضل به على سائر المخلوقات، لا بد وأن يملك أدوات السيطرة على البيئة المحيطة، حتى يتمكن من تسخيرها وفق سنن الكون، وبما ينسجم مع مشيئة الله تعالى في عمارة الأرض التي استخلفه فيها.

ولن يتأتى للمكلف ذلك ـ حسب الإسلام ـ إلاّ عن طريق التعلم. فالعقيدة الإسلامية لا تتنافى مع العقل ـ ويجب أن لا تتنافى معه ـ حيث إنها تبقى ناقصة ما لم تنسجم معه لأن الدين الإسلامي دين عقلي «والقرآن لا يفسح المجال للبحث فحسب بل يشيع كذلك الغريزة العقلية في الإنسان ويستميلها بل يدفعها ويلزمها أن تقوم بوظيفتها بما يضربه لها من أمثال وما يذكره من آيات»[1].

فليس غريباً إذن على الإسلام أن ينوّه بالعقل ويهتم به ويعول عليه «في أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف. ففي كتب الأديان الكبرى إشارات صريحة، أو مضمونة إلى العقل، أو إلى التمييز، ولكنها تأتي عرضاً غير مقصودة، وقد يلمح فيها القارىء بعد الأحايين شيئاً من الزراية بالعقل أو التحذير منه، لأنّه مذلّة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار. ولكن القرآن الكريم لا يذكر العقل إلّا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه. ولا يتأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التي يشرحها النفسانيون

(1) محمود حب الله: «موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكري»، في الثقافة الإسلامية المعاصرة، ص: 30 ـ 31.

من أصحاب العلوم الحديثة، بل هي تشمل وظائف الإنسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها»[1].

ومثلما أن الجسم لا يمكن أن يعيش بدون غذاء فكذلك العقل لا يمكن أن يعيش بدون غذاء أيضاً. وإذا كان غذاء الجسم الكلأ والماء فإن غذاء العقل العلم. وهكذا فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد شرفاً وفضلاً. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾[2]. كما وأن «من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»[3].

وينظر الإسلام إلى «العلم بمفهومه الشامل الذي ينتظم كل ما يتصل بالحياة، ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الديني كما يتبادر إلى بعض الأذهان، أو ما ذاع في عهود التخلف عن القرآن»[4] وتبعاً لهذا فإن العلم في الإسلام من حيث وجوبه وفرضه ينقسم إلى نوعين الأول فرض عين، والثاني فرض كفاية.

أما فرض العين فهو «ما يطلب تعلمه وجوباً من كل فرد مكلف ولا يعذر أحد في الجهل به، وهو ما يحتاج إليه الإنسان في إقامة دينه وقبول عمله عند الله تعالى واستقامة معاملته ومعاشرته للناس»[5].

وأما فرض الكفاية فهو «كل ما يحتاج المجتمع إليه من غير نظر إلى شخص بذاته، كتعلم الصناعات التي يحتاج إليها الناس، وتعلم المهن التي لا بد للناس عنها» أي «كل ما يحتاج إليها في شؤون المجتمع من تجارة وطب واقتصاد وهندسة... وكذا كل ما يستجد في المستقبل من الحاجة إلى علوم أخرى. فإنها تعتبر من فروض الكفاية، بحيث يجب على الأمة أن يكون فيها من العلماء بتلك

(1) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية، ص: 6.
(2) سورة: المجادلة، الآية: 11.
(3) أبو داود: سنن أبي داود، 4/ 57.
(4) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص: 139.
(5) مصطفى السباعي: إشتراكية الإسلام، ص: 103 ـ 104.

العلوم. ما يكفي لحصول الأمة على ثمار تلك العلوم. فلو كانت تحتاج في علم من العلوم إلى مائة عالم مثلاً، ولم يكن فيها إلّا خمسون عالماً تكون الأمة آثمة حتى يوجد فيها العدد اللازم من العلماء»[1].

ولطالما أن علم الدين لازم للكبير من حيث هو مسلم مكلف بإقامة الشعائر. وعلم الدنيا لازم له من حيث هو خليفة الله في الأرض، «مأمور أن يعمر الدنيا وأن ينميها ويرقيها، مأمور أن يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله فيها وينعم بطيباتها»[2]. ولطالما أن العلم لا يتحقق إلّا عن طريق التعلم والتعليم. ولما كان النبي ـ وهو قدوتنا ـ «أول من عني عناية خاصة بتعلم العرب الكتابة والقراءة»[3]. وهو القائل: بأن «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[4]. يمكن القول: إن تعليم الكبار فريضة إسلامية لا يمكن للحياة أن تستقيم دون أدائها.

أهداف التربية المستمرة وتعليم الكبار في الإسلام

ترتبط أهداف تعليم الكبار في الإسلام بأهداف التربية الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بحيث لا يمكن فصلها عن بعضها لأن التربية الإسلامية بمفهومها الشامل تربية مستمرة مدى الحياة. فأهداف تعليم الكبار في الإسلام تنضوي تحت أهداف هذه التربية التي تهتم بشؤون الإنسان منذ ما قبل لحظة تكوينه في بطن أمّه وحتى انتقاله إلى الملأ الأعلى. ولذلك يكتسب الحديث عن أهداف التربية الإسلامية أهمية خاصة في إلقاء الضوء على أهداف تعليم الكبار في الإسلام.

أهداف التربية الإسلامية: إنّ الأهداف التي تسعى التربية الإسلامية لتحقيقها ما هي إلّا مظهر من مظاهر القيم التي نادى بها الإسلام. فالقيم «هي التي توجه سلوك الأفراد وأحكامهم واتجاهاتهم فيما يتصل بما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه

(1) مصطفى السباعي: **اشتراكية الإسلام**، ص: 103، 104.
(2) يوسف القرضاوي: **الإيمان والحياة**، ص: 218 ـ 219.
(3) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام**، 1/ 66.
(4) الطبراني: **المعجم الكبير**، 10/ 195.

من أشكال السلوك في ضوء ما يضعه المجتمع من قواعد ومعايير. وقد تتجاوز الأهداف المباشرة للسلوك التي تحدد الغايات المثلى في الحياة»[1] وفي حال كان للقيم «ضمانها عند الله، كانت مصادر التربية وأحكامها تقع وراء الأفراد والجماعات وقد تكون وراء العقل الإنساني نفسه»[2]. وبذلك فإن العقل والدين هما العاملان الأساسيان في عملية توجيه النمو في إطار التربية الإسلامية، التي تطرح أهدافاً ذات قيمة وقدسية ونزاهة، تجعلها قادرة على تفسير وتوضيح معنى الحياة. «والغرض من هذه الأهداف هو بناء أفراد يمثلون مظهراً للقيم المقبولة في المجتمع ولا تتعارض رغباتهم مع النوايا السامية للمجتمع وهم يتخلصون من الضياع عن طريق جعل الأهداف موضع اهتمام والتحرك في الطريق الذي يوصلهم إلى الهدف بلا خسائر»[3].

وتتميز الأهداف في التربية الإسلامية عن غيرها لأن الإسلام يرسم مثلاً أعلى للحياة مغايراً لما نادى به فلاسفة ومفكرو الغرب وغيرهم. ولأن الإسلام ينظر للإنسان نظرة شمولية، تتفق مع الحكمة من وجوده على هذه الأرض، فإن «أهم أهداف التربية الإسلامية هو بلوغ الكمال الإنساني لأن الإسلام نفسه يمثل بلوغ الكمال الديني فهو خاتم الأديان وأكملها وأنضجها»[4]. وبلوغ الكمال الإنساني في الإسلام يعني تحقيق مقام العبودية لله تعالى. ولن يتأتى ذلك إلّا من خلال النّجاح في تربية العبد الصالح القادر على القيام بمهام الخلافة. وهو ما تسعى لتحقيقه التربية الإسلامية من خلال الوصول بالمتعلم لدرجة الرقي الإنساني أو أحسن تقويم - حسب القرآن الكريم - وذلك عندما تتمكن من أن ترقى به لتصبح علاقته بالخالق علاقة عبودية، وبالكون علاقة تسخير، وبالإنسان علاقة عدل وإحسان، وبالحياة علاقة ابتلاء وبالآخرة علاقة مسؤولية وجزاء[5].

وتسعى التربية الإسلامية لأن تكون علاقة الإنسان مع نفسه علاقة معرفة،

(1) عبد اللطيف محمد خليفة: **إرتقاء القيم**، ص: 16.
(2) فيليب فنكس: **فلسفة التربية**، ص: 825.
(3) علي القائمي: **أسس التربية**، ص: 146.
(4) محمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، ص: 52.
(5) انظر ماجد عرسان الكيلاني: **فلسفة التربية الإسلامية**، ص: 57.

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[1]. أي جهلها حيث لم يعرف ربّها، واستناداً لهذا يمكن القول: إن من عرف نفسه فقد عرف ربّه؛ لأن معرفة النفس تشكل الخطوة الأولى على طريق معرفة الله تعالى، إذ «ليس من شيء أقرب إليك من نفسك فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟»[2].

فالشخصية الإنسانية القادرة على إقامة هذه الشبكة من العلاقات المتوازنة، تعتبر الهدف الرئيس للتربية الإسلامية، هذا الهدف الذي يقوم على قاعدة من الشمول والتكامل والتوازن. وهو ما يسهم في القضاء على ظاهرة التمزق والاضطراب، التي تعاني منها المجتمعات الغربية، نتيجة الفلسفات التي تتناول الإنسان بشكل مجزء ومتقطع. وكأن هناك حدوداً بين جوانبه المختلفة مما يستدعي معالجة كل منها على انفراد، في الوقت الذي يعالج فيه الإسلام الإنسان كوحدة متكاملة.

ولذلك فإن من أبرز ما يميز أهداف التربية الإسلامية عن غيرها من الأهداف هو «وحدة الإتجاه وتكامل النظرة استمراراً من الفطرة والتقاء بالروح والعقل جميعاً»[3].

كل هذا يدعو إلى القول إن أهداف التربية الإسلامية لا يمكن أن تكون مجرد تحقيق للذات، أو عملية نمو أو بناء للمواطن الصالح، وإنما هي كل هذه الأهداف وغيرها مجتمعة بعد ضبطها وتهذيبها بالاتجاه الذي يساعد على بناء الشخصية على أساس من الإيمان بالله والعبودية له. ومعلوم أن «اتخاذ العبودية لله تعالى هدفاً نهائياً للتربية «يقضي على تشتت الشخصية وتمزقها ويورث الطمأنينة والراحة، كما يؤدي إلى الاستقامة في حياة الفرد والجماعة، والسمو بالإنسان إلى مستواه اللائق من حيث هو مخلوق مكرم»[4]. والتربية التي تسعى إلى تحقيق هذا الهدف النهائي «تقتضي فروعاً من التربية تتناول قيمة الإنسان وملكاته جميعاً»[5].

---

(1) سورة: البقرة، الآية: 130.
(2) الغزالي: كيمياء السعادة، في مجموعة رسائل الإمام الغزالي، 5/ 124.
(3) أنور الجندي: التربية وبناء الأجيال، ص: 164.
(4) عبد الرحمٰن الباني: مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، ص: 70.
(5) عبد الرحمٰن الباني: م. ن، ص. ن.

ومعلوم أن اختلاف الأهداف بين مجتمع وآخر مرده لاختلاف العقائد والفلسفات الذي يؤدي بدوره إلى اختلاف المفاهيم التربوية، التي إما أن تكون اجتماعية أو مثالية أو مادية... إلخ. وقد تختلف التربية الإسلامية في أهدافها عن غيرها من التربويات أو تتفق مع الكثير منها «ولكنها تتميز عن أنواع التربية الأخرى بأن أهدافها ثابتة لا تتغير بتغير المجتمعات أو الأزمنة أو الأمكنة. والسبب في ذلك بسيط هي أنها أهداف إلٰهية حددها الله سبحانه وتعالى لسعادة البشرية ما داموا على الأرض، فالتغير والتبدل قد يسري على الوسائل والطرق وليس على الأهداف»[1].

أهداف تعليم الكبار في ضوء أهداف التربية الإسلامية

صحيح أن أهداف تعليم الكبار قد تتعدد، غير أن ما هو صحيح أيضاً أن هذه الأهداف تتظافر وتتكامل لتخدم الهدف الرئيس لتعليم الكبار، والذي يتمثل في التربية الإسلامية بتحقيق العبودية لله تعالى والقيام بحق الخلافة. ويمكن في هذا الإطار الإشارة إلى ثلاث مجموعات من أهداف تعليم الكبار يمكن تصنيفها على النحو التالي[2]:

1 ـ أهداف حضارية تؤكد على فلسفة الأمة وعقيدتها ولغتها وهويتها. كما تؤكد على الطابع العام المميز لكل أمة من الأمم أو شعب من الشعوب.

2 ـ أهداف وظيفية تؤكد على الحقائق، والمعلومات، والخبرات، والمهارات، المتصلة بالنواحي الوظيفية في مجالات الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة والتعليم... إلى ما هنالك من خبرات إنسانية في أي مجال من مجالات العمل.

3 ـ أهداف هجائية تتصل بتعليم المهارات الأساسية اللغوية كالقراءة والكتابة والاستماع والكلام وغيرها من المهارات.

---

(1) عباس محجوب: **أصول الفكر التربوي في الإسلام**، ص: 156.

(2) علي أحمد مدكور: **منهج تعليم الكبار النظرية والتطبيق**، ص: 182.

فتعليم الكبار في الإسلام يشكل جزءاً لا يتجزأ من التربية الإسلامية ووجهاً من وجوهها، ووسيلة من وسائلها في تكييف الإنسان مع الواقع المراد، والبيئة المحيطة. فليس غريباً إذن على الإسلام أن يهتم بتعليم الكبار باعتباره حلقة من حلقات التربية المستمرة في الإسلام، ووسيلة من وسائلها في تحقيق أهدافها وحمل محتواها. وحتى يتمكن الكبير من الإسهام بفعالية وإيجابية ـ وفق قدراته واستعداداته ـ في عمارة الأرض، ولكي يكون قادراً على القيام بهذه المهمة لا بد من أن يتحقق فيه ـ هو بذاته ـ مجموعة من الأهداف على المستويين الفردي والإجتماعي:

أ ـ الأهداف على المستوى الفردي:

لقد أدرك علماء المسلمين أهمية تعلّم الكبار، وأثر ذلك في بناء الشخصية الإنسانية. يقول الغزالي: «ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها»[1]. وفي هذا تعبير عن توجه علماء المسلمين لبناء الشخصية المتكاملة ـ مما يعني أن التربية الإسلامية استهدفت الشخصية الإنسانية من كافة جوانبها بشكل مترابط ومنسق:

1 ـ الجانب الجسمي

وما يجب أن يلفت إليه في هذا المقام هو أنّه «حيث نتحدث عن الجسم في مجال التربية فليس المقصود هو عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب. وإنما نقصد كذلك الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم، والمتمثلة في مشاعر النفس. طاقة الدوافع الفطرية والانفعالات... طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق»[2].

ويشكل الجسد «الأداة التي عن طريقها تترجم الذات الإنسانية الأعمال. وتتبدى أهمية ذلك جيداً، إذا عرفنا أن النشاط الإنساني في عمومه عبادة ما دامت لوجه الله تعالى»[3]. لذا فإن القرآن الكريم يوصي بالاهتمام بالجسم والعناية به. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[4]، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[5]. وعن عبدالله بن عمر (73 هـ/ 696م). أن الرسول ﷺ قال له:

---

(1) الغزالي: ميزان العمل، ص: 36.
(2) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 104.
(3) علي خليل أبو العنين: فلسفة التربية في القرآن الكريم، ص: 160.
(4) سورة: النساء، الآية: 29.
(5) سورة: القصص، الآية: 77.

«صم وأفطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً وإنك عسى أن يطول بك عمر وإن من حسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام فإن بكل حسنة عشر أمثالها فذلك الدّهر كله»[1].

فالإسلام يدعو لحفظ الجسم حتى يقوم الكبير بواجباته، وحفظ البدن يكون «بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك»[2]. ولطالما أن الإنس والجن ما خلقوا، إلّا ليعبدوا الله فإن «الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله ﷻ . . . وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى»[3].

وفي مجال رعاية التنمية الجسمية للمتعلم يعتمد برنامج تعليم الكبار على تعاليم الإسلام. فالرسول عندما يقول: «فإن لجسدك عليك حقاً»[4] يؤكد على ضرورة مراعاة حقوق الجسم بحيث تعتبر الرعاية الصحية وممارسة الرياضة وتوفير الغذاء من أبرز مجالاتها الحيوية.

وفي مجال الرعاية الصحية تعتبر «النظافة إحدى العناصر المهمة في تكوين الحياة الصحية وازدهارها، وجعلها بمأمن من التلوث بالأمراض السارية والأوبئة الفتاكة وقد تبناها الإسلام ـ بصورة إيجابية ـ ورتب عليها بعض أحكامه وواجباته، ومنح الله تعالى وسام حبه لمن يتصف بها»[5]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[7].

وللطهارة في الإسلام أربع مراتب هي[8]:

---

(1) البخاري: صحيح البخاري، 3/ 87.
(2) الغزالي: إحياء علوم الدين، 3/ 7.
(3) الغزالي: م. ن، 3/ 79.
(4) البخاري: م. س، 7/ 56.
(5) باقر شريف القرشي: النظام التربوي في الإسلام، ص: 302.
(6) سورة: البقرة، الآية: 222.
(7) سورة: المائدة، الآية: 6.
(8) الغزالي: إحياء علوم الدين، 1/ 151.

1 ـ تطهير الظاهر عن الأحداث، وعن الأخباث، والفضلات.

2 ـ تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

3 ـ تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

4 ـ تطهير السر عمّا سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين. والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها.

ومعلوم كم للطهارة الخاصة بنظافة الظاهر من أثر على صحة البدن. وتقسم هذه الطهارة إلى ثلاثة أقسام هي «طهارة عن الخبث، وطهارة عن الحدث، وطهارة عن فضلات البدن»[1]. ولقد اهتم الإسلام اهتماماً كبيراً بهذا النوع من الطهارة من خلال التشريعات الخاصة بالغسل والوضوء والاستنجاء ونظافة الثياب والحلق وتقليم الأظافر. يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[2] إشارة إلى فرض الاغتسال عقب الاتصال الجنسي، لما لذلك من فوائد بإعادة الحيوية والنشاط بعد انتهاء عملية الجماع. وكذلك بعد أن تطهر المرأة من دم الحيض. فالغسل يعيد لها حيويتها ويخلّصها من القذارة والأوساخ التي قد تكون سبباً لكثير من الأمراض فيما لو تركت على حالها.

كما وأن للوضوء الذي يتكرر خمس مرات يومياً فوائد جمّة على صعيد تنشيط أعضاء الجسم المختلفة ووقاية الجسد من الإصابة بالأمراض الجلدية، وكذلك إبعاد الجراثيم التي قد تدخل عن طريق الفم أو تلوث اليدين. فالوضوء من أهم الأنشطة الوقائية لجسم الإنسان حيث إنّه يحول دون إصابته بكثير من الأمراض الخطيرة.

أما السواك بعود الأراك فهو مستحب عند كل صلاة، وعند كل وضوء. ويقول عنه الرسول ﷺ: «**السواك مطهرة للفم مرضاة للرب**»[3]. ولقد ثبت في هذه الأيام ما لهذا النبات من فائدة لما يحتويه من مواد عطرية وأملاح معدنية. إضافة إلى ذلك فإن نظافة الأسنان تجنب الإنسان أمراض التسوس، وغيرها من الأمراض

(1) الغزالي: م. ن، 1/ 153.
(2) سورة: المائدة، الآية: 6.
(3) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، 1/ 106.

الناجمة عن بقايا الطعام بين الأسنان. قال ﷺ: «**لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة**»[1].

وفي الاستنجاء الذي شرعه الإسلام لنظافة مخرج البدن أو الغائط غسلاً بالماء، أو مسحاً بما يقلع النجاسة بالغ الأثر في نظافة الجسم والوقاية من الأوساخ، والجراثيم التي يحملها كل من البول والغائط.

ولا يخفى ما لطهارة الثوب ـ التي تعتبر شرطاً من شروط صحة الصلاة ـ من فوائد جمّة على الصحة إضافة إلى أنّها توفر الوقاية من بعض الأمراض.

ويوصي منهج تعليم الكبار في الإسلام بالتربية الرياضية لما لها من آثار إيجابية على صعيد التنمية الجسدية. ومن أنواع الرياضة التي شرعها الإسلام السَّبَق والرماية والصيد. وفي كل ذلك تنشيط للعضلات وتقوية للجسم وتنمية للإرادة والاعتماد على النفس.

وتستلزم هذه التربية الجسدية القائمة على القوة، والإعداد لمواجهة مصاعب الحياة «أن ينشأ الشباب على الرجولة والخشونة، لا على الميوعة والدعة»[2]. فلقد كان الصحابة رضوان الله عليهم بعد الانتهاء من صلاة المغرب يمارسون ألواناً مختلفة من الرياضة. قال رافع بن خديج (74 هـ/ 693م): «كنّا نصلي المغرب مع النبي ﷺ فينصرف أحدنا وإنّه ليبصر مواقع نبله»[3]. ويروى عن عبد الله بن عمر أنّه قال: «إن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التي لم تضمّر من الثنية إلى مسجد بني زريق»[4].

ويوصي منهج تعليم الكبار في الإسلام بالتغذية التي تقوم على الاعتدال في الطعام بعيداً عن الإسراف. يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[5]. فالآية الكريمة توصي بعدم

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، 2/ 31.
(2) عبد الرحمٰن النحلاوي: **أصول التربية الإسلامية وأساليبها**، ص: 116.
(3) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 233.
(4) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 182.
(5) سورة: الأعراف، الآية: 31.

الإفراط في الأكل منعاً لإلحاق الأذى بالجسم، كما وأنّها تضع قاعدة صحية للمسلمين كي يتبعوها، تقوم على ضرورة الاعتدال بالأكل. ولا يخفى على أحد ما للإسراف في الأكل من مضاعفات خطيرة قد تؤدي بصاحبها إلى الهلاك.

ومعلوم أنّه ما لم يتمتع الجسم بمستوى لائق من الصحة لن يكون بمقدور صاحبه أن يقوم بواجباته تجاه ربه وبيته ومجتمعه، فالعمل ضرورة حتمية لاستمرار الحياة. وتختلف وجهة نظر الإسلام في العمل عن وجهة نظر غيره من الأديان حيث إن «العمل في النظرية الدينية المسيحية تكفير عن الخطيئة أما في الدين الإسلامي، فالعمل لا يقصد به عقاب إنما هو تعمير للدنيا. فالإنسان خليفة الله في الأرض وبالعمل تعمر الأرض، ويسعد الإنسان»[1].

وإذا كان الجسم ضعيفاً عليلاً لن يكون بمقدور الفرد المسلم أن يقوم بواجباته والتزاماته تجاه دينه ودنياه، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّه من حق الجسد على صاحبه «الاعتدال في العمل فلا إجهاد ولا بطالة»[2].

ومنهج تعليم الكبار في الإسلام يتيح الفرصة للإنسان كي يتعرف على قدراته الخاصة كما وأنّه يوجه ويذكي ويكرّس الجهود للأعمال التي تتناسب وقدرات الإنسان استجابة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[3].

وفي مطلق الأحوال لا بد من توفر الصحة الجسمية حتى يقوم الإنسان بواجباته. ولذلك فإن منهج تعليم الكبار في الإسلام يضم في طياته تنمية الجسم وتربية الجوارح، ويوجه طاقات المكلفين من أبناء المجتمع الإسلامي نحو خير الإنسان وخير المجتمع.

2 ـ الجانب العقلي/ الفكري

يستلهم برنامج تعليم الكبار في الإسلام منهجه في مجال تنمية القدرات

---

(1) صلاح عبد الجواد: **اتجاهات جديدة في التربية الصناعية**، 1/ 69.

(2) محمد علم الدين: **التربية الإسلامية**، ص: 16.

(3) سورة: البقرة، الآية: 286.

العقلية للكبار من القرآن الكريم عبر الدعوة الدائمة إلى إعمال العقل في النظر إلى ملكوت الله في السموات والأرض والإنسان.

فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[1].

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[2].

فمعرفة أسرار مخلوقات الله تعالى من: جماد ونبات وحيوان وبشر، تؤدي إلى معرفة الله تعالى. ولذا فإنّ القرآن الكريم يوجه العقل لتدبر آيات الله في الكون حيث تبدأ هذه العملية «بالتفكر وتنتهي بالعمل... العمل بمقتضى الدستور «الحق» الذي نزل به القرآن... والجهاد في سبيل إقرار هذا الدستور وتسيير دفّة الحياة على نهجه وشريعته. ثم تصل إلى الغاية القصوى. تصل إلى الجزاء في الآخرة، فتصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة، وتصل البشر بالله... وحيث يقيس الإنسان هذا اللون من التوجيه للطاقة العقلية في تدبر حكمة الله وتدبره، بالفلسفة قديمها وحديثها والمعاظلات الذهنية المنبثقة من تضاعيفها يدرك في الحال عظم الفرق وعظمة المنهج الإلهي في تربية العقل البشري، ويعلم أنه سبحانه خلق كل شيء بالحق وجعله منهجاً لإقامة الحق في الحياة»[3]. تصديقاً لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[4] وقوله أيضاً: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[5] إلى جانب عدد آخر «من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها متدبرها والمترقي في اختلاف

(1) سورة: عبس، الآيات: 24 ـ 32.
(2) سورة: آل عمران، الآيتان، 190 ـ 191.
(3) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 83، 84.
(4) سورة: يونس، الآية: 101.
(5) سورة: الأنبياء، الآية: 30.

معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة والفوز بما وعد به عباده»[1].

فالتفكّر الذي يستند إليه منهج تعليم الكبار في الإسلام تفكر هادف يؤدي إلى معرفة خالق الكون. ولذلك فإن التطرق لدراسة الكون أو ما يطلق عليه اسم الطبيعة يجب أن يهدف إلى استحضار عظمة الله تعالى الذي يرعى كافة شؤون هذا الكون، والنظم التي تتحكم بحركة أفلاكه وسيره ودورانه. فعقيدة التوحيد القائمة على معرفة الله تعالى والإيمان به «تنظم... حياة الإنسان النفسية، وتوحد نوازعه، وتفكيره وأهدافه وتجعل كل عواطفه، وسلوكه وعاداته، قوى متضافرة متعاونة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله وحده والشعور بألوهيته وحاكميته ورحمته وعلمه لما في النفوس وقدرته وسائر صفاته»[2].

3 ـ الجانب النفسي

يدعو الإسلام لضبط النفس وتهذيبها بعيداً عن كبتها وقمعها لأنها طاقة يحتاج إليها الكبير. لذا فإن تعليم الكبار في الإسلام لا يستهدف قمع هذه القوة من قوى الإنسان أو محوها بالكلية لأن «الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة. فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك»[3]. «وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»[4]، وإلاّ لما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[5]. ولقال: والفاقدين الغيظ[6]. فكظم الغيظ الذي دعا إليه الله تعالى رد للغضب والشهوة «إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه»[7].

---

(1) الغزالي: الحكمة في مخلوقات الله، في مجموعة رسائل الغزالي، 1/ 4.
(2) عبد الرحمٰن النحلاوي: أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص: 80.
(3) الغزالي: إحياء علوم الدين، 3/ 62.
(4) الغزالي: المصدر نفسه، 3/ 62.
(5) سورة: آل عمران، الآية: 134.
(6) الغزالي: إحياء علوم الدين، 3/ 62.
(7) الغزالي: المصدر نفسه، 3/ 62.

فالمطلوب إذن هو الاعتدال لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[1]. وبالنسبة لشهوة الطعام أيضاً يجب الاعتدال بعيداً عن الشره والجمود لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[2].

فهذا هو المطلوب بالنسبة لمنهج تعليم الكبار في الإسلام لأن هذا المنهج لا يكبت رغائب النفس «فيقتل حيويتها ويبرد طاقتها ويشتت كيانها فلا تعمل ولا تنتج ولا تصلح لعمارة الأرض وترقية الحياة. وفي الوقت ذاته لا يطلق رغائبها بلا ضوابط... ووسيلته إلى ذلك... هي الضبط إنه يعمل على تربية القوة الضابطة وتنميتها منذ نعومة الأظفار»[3].

وفي جميع الأحوال يشكل بناء النفس هدفاً رئيساً من أهداف التربية المستمرة وتعليم الكبار في الإسلام. وعلى الرغم من أن النفس هي مركز اللذات إلّا أنها حارس للحياة ومرشد للنور وسبب في بناء العلاقة مع الله. وفوق ذلك كله فإنها أقوى القوى ذات الصلة بحقائق الإنسان. وبما أن النفس إحدى قوى الإنسان فإن منهج تعليم الكبار في الإسلام يتعامل معها على هذا الأساس، حتى يتمكن الكبير من أن يكون عبداً صالحاً، لأن العبودية هي جوهر الإنسانية.

ب ــ الأهداف على المستوى الاجتماعي:

يهدف منهج تعليم الكبار إلى أن يعد الإنسان للحياة في المجتمع على قاعدة احترام ومراعاة حقوق الآخرين. كما ويعمل على تعزيز العلاقة والتفاهم بين مختلف الفئات دون النظر إلى اللون أو الجنس، فلقد عني منهج تعليم الكبار في المجتمع العربي الإسلامي - من جملة ما عني به - بالسلوك الإنساني وتنميته وتطويره وتغييره وفق نظرة الإسلام العقدية. ولذلك فإن أنشطة تعليم الكبار سعت لتنشئة أفراد

---

(1) سورة: الفرقان، الآية: 67.
(2) سورة: الأعراف، الآية: 31
(3) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 119.

المجتمع الإسلامي على القيام بوظائفهم والمشاركة في كافة القضايا الاجتماعية وفق معايير الإسلام وقيمه.

ومن القيم التي سعى لتحقيقها منهج تعليم الكبار في الإسلام:

1 ـ قيمة الإخاء التي عبّر عنها الرسول الكريم في قوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[1].

2 ـ قيمة التعاطف والتواد لقوله ﷺ: **«ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»**[2].

3 ـ قيمة المسؤولية الاجتماعية لقوله ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**[3].

ولا شك في أن منهج تعليم الكبار في الإسلام الذي استوحى هذه القيم، مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف كان يسعى من خلالها إلى تحقيق عدد من الأهداف منها:

1 ـ تمكين الكبير من أن يقيم علاقات تتسم بروح المحبة والتعاون والتفاهم.

2 ـ تعزيز ثقة المكلف بنفسه وتشجيعه على تحمل المسؤولية الفردية باعتبارها جزءاً من المسؤولية الجماعية.

3 ـ تعويد الكبير على الالتزام بآداب العادات، والمعاملات الإسلامية لما لذلك من أثر بالغ في تحقيق التربية الاجتماعية المتكاملة النابعة من القيم التي دعا إليها الإسلام.

فالكبير في الإسلام يحب أن يتخلق بالأخلاق الكريمة أسوة بالرسول الكريم الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[4]. وهو عندما يتخلق

(1) البخاري: صحيح البخاري، 1/ 17.
(2) البخاري: م. ن، 8/ 17.
(3) البخاري: م. ن، 2/ 33، 9/ 111.
(4) سورة: القلم، الآية: 4.

بهذه الأخلاق الحسنة يقترب من الكمال الإنساني الذي مثّله محمد ﷺ خير تمثيل. وكان عن حق ما قال فيه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1].

والرسول ﷺ عندما سئل عن حسن الخلق استشهد بقوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[2]، وأضاف قائلاً بأن حسن الخلق: «**هو أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك**»[3].

فمنهج تعليم الكبار في الإسلام سعى إلى إقامة علاقات إنسانية بين الناس تقوم على الثقة، والاحترام المتبادل، والشعور بالالتزام تجاه الجميع، ومراعاة الإنصاف في التعامل وغيرها من الاتجاهات الكثيرة التي عمل على تكريسها الرسول ﷺ قولاً وعملاً في كل ظرف وحين.

وفي جميع الأحوال يهتم منهج تعليم الكبار في الإسلام «بتربية الوجدان عن طريق توجيه المتعلم إلى حب الله وخشيته، فهذان الخيطان هما اللذان يربطان القلب البشري بالله، كما أنّهما خلاصة العبادة وثمرتها. والوسيلة هي ممارسة العبادة بكل ألوانها دون قهر، ولكن بالترهيب والترغيب. وقراءة القرآن بتدبير... وقراءة أحاديث الرسول ﷺ وسير الصحابة، فهذه نماذج بشرية عالية فائقة كانت تعيش كل حياتها مع الله»[4].

ولا ريب في أنّ تحقيق هذه الأهداف في ذات الكبير يشكل مدخلاً لتحقيق مزيد من الأهداف، عن طريق استكمال تأهيله ليقوم بمسؤولية التكليف التي أنيطت به ليكون خليفة لله في الأرض، ومن هذه الأهداف[5]:

1 ـ تعميق شعور الإيمان والأخوة في الله في نفسه.

2 ـ العمل على تطبيق وسطية الأمة وشهادتها على الناس.

3 ـ القيام بواجبات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(1) سورة: الأنبياء، الآية: 107.

(2) سورة: الأعراف، الآية: 199.

(3) الزبيدي: إتحاف السادة المتقين، 7/ 318.

(4) علي أحمد مدكور: منهج التربية في التصور الإسلامي، ص: 349.

(5) علي أحمد مدكور: منهج تعليم الكبار النظرية والتطبيق، ص: 183 وما بعدها.

4 ـ العمل على استعادة تميز الأمة الإسلامية.

5 ـ تحقيق الذات وفق الفطرة.

6 ـ تصحيح مفاهيم الكبار.

7 ـ عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها.

8 ـ تنمية الإتجاهات نحو التربية المستمرة.

9 ـ تنمية القدرة على مواجهة المتغيرات.

10 ـ المساهمة في بناء المجتمع المتحضر الإسلامي.

يتضح مما سبق أنه يصعب الفصل بين أهداف التربية الإسلامية، وأهداف تعليم الكبار في الإسلام، وذلك لأنّ التربية الإسلامية تربية مستمرة مدى الحياة، وما تعليم الكبار إلّا وجه من وجوه التعبير عن هذه التربية التي تُعنى بالإنسان، حتى من قبل ولادته كي يكون ـ عند الراشد ـ قادراً على القيام بمهمة التكليف والاستخلاف التي ارتضاها لنفسه والتي كانت سبباً لتكريمه وتفضيله على بقية مخلوقات الله.

الفصل الثاني

طرائق تعليم الكبار عند المسلمين

الطرائق التفاعلية

- المناقشة
- المناظرة
- المراسلة

طرائق التعلم الذاتي

- القراءة
- المذاكرة
- الممارسة والعمل
- الرحلة

طرائق العرض والإلقاء

- التلاوة
- المحاضرة
- الإملاء
- القدوة
- القصة

الفصل الثاني

طرائق تعليم الكبار عند المسلمين

تمهيد

تعتبر الطريقة والأسلوب من الوسائط الرئيسة في العملية التعليمية. ووجودهما وتطبيقهما ذو أهمية استثنائية في إطار القيام بأي عمل منظم وهادف. وهما لا يقتصران على كونهما مجرد جهاز أو أداة، لأنهما يعبران عن تنظيم لمجموعة من المداخلات، التي من شأنها في حال تم توظيفها بفعالية وبحدود الإمكانيات المتاحة والوقت المحدد أن توصل إلى أفضل النتائج المتوخاة في ضوء الأهداف المخطط لها. فمن الوجهة التربوية يمكن القول بأنّ الطريقة تعني «مجموع الأنشطة والإجراءات التي يقوم بها المدرس، أو التي تبدو آثارها على ما يتعلمه التلاميذ»[1].

وإذا كان التعلّم يعرّف بأنّه «حصيلة من حواصل التفاعل المتبادل ما بين الفرد ومحيطه، والتي تتمثل في إدراك الفرد بنفسه للأشياء من حوله، واكتسابه للمعلومات والمعارف والخبرات التي يستطيع عن طريق معالجتها في دماغه أن يوظفها في الحفاظ على بقائه، وتلبية حاجاته، وتحقيق أهدافه، وتعديل سلوكه، وتطوير أساليب عيشه، واستمرار تقدمه في شتى المجالات والأصعدة»[2]. فإنّ الطريقة في العملية التعليمية التعلمية ذات أهمية كبيرة لأنّها «الوسيلة التي تربط بين المتعلمين، وبين أهداف التعليم ومواده ومعيناته في علاقة منظمة. ولهذا يجب عند النظر في

---

(1) أحمد حسين اللقاني وزميله: **تدريس المواد الاجتماعية**، ص: 178.

(2) أحمد فوزي الصاحب: **دليل المعلم حول المبادىء الأساسية في التعليم والتعلم**، ص: 12 ـ 13.

أي طريقة أن ننظر إليها من حيث الأهداف التعليمية أو التغيرات السلوكية التي تسعى إلى إحداثها، والمتعلم الذي تغير سلوكه المواد التي تستخدمها والمعينات والأمكانيات المتاحة»[1].

فالطريقة قد تتضمن معنًى ضيقاً والمقصود به توصيل المعلومات، ومعنًى واسعاً شاملاً هو اكتساب المعلومات، مضافاً إليه وجهات نظر وعادات في التفكير وغيرها[2]. إلّا أنّ هذه الطرق من الوجهة الإسلامية يجب أن تبقى مترابطة ومتكاملة، لأن الإنسان في نظر الإسلام يبقى بحالة تعلم مستمر، يضاف إلى ذلك أن لكل طريقة من هذه الطرق آثارها في بناء جانب من جوانب شخصية الفرد.

لذا فإن الطريقة تعتبر ضرورة لا غنى عنها في المجال التربوي. ففي ظل وجود طريقة أو أسلوب يمكن لبرنامج تعليم الكبار أن يخطو خطوات ثابتة إلى الأمام بحيث يمكن أن[3].

1 ـ تكون إمكانية التعلم أسرع.

2 ـ تقل الخسارة في الوقت والزمان.

3 ـ تقل الحاجة لممارسة الضغط على التلاميذ.

4 ـ تزداد إمكانية التعلم.

5 ـ تسهل عملية التقويم لمستوى التقدم.

6 ـ تزداد مراعاة النظم في نقل المفاهيم.

7 ـ يصبح المعلم أكثر واقعية في عمله.

وبما أنّ التربية الإسلامية منهج حياة كان على معلم الكبار أن «يستخدم أفضل الطرق والوسائل التي تحقق الأهداف العامة لهذا المنهج والأهداف الخاصة

---

(1) محمود رشدي خاطر: طرق تعليم الكبار وإمداداته، ص: 2.
(2) صالح عبد العزيز وزميله: التربية وطرق التدريس، 1/ 239.
(3) علي القائمي: أسس التربية، ص: 193.

لمادته ودرسه»[1]، بحيث يكون موجهه في سلوكه وأدائه لمهمته قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]. وقول الرسول ﷺ: «أنتم أعلم بأمور دينكم»[3].

ومن يسترشد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لا بد وأن «يهتدي إلى بعض ما اختطته العناية الإلٰهية من أساليب مؤثرة بليغة ربّت النفوس وارتقت بالهمم، حتى حدث ببضع عشرات من ألوف المؤمنين أن يفتحوا قلوب البشر للهدي الإلٰهي، وللحضارة الإسلامية، ومكنت لهم في الأرض في سعتها وفي عمق الزمان ما لم يتح لغيرهم من أمم الأرض أن يتمكنوا فيه»[4].

وهذا ما يقود إلى القول: «إنّ نجاح أي عملية تعليمية يعتمد على الطريقة التي يستخدمها المعلم في توصيل المعلومات والمعارف إلى تلاميذه، مما يحقق اكتساب التلاميذ لهذه المعلومات عن رغبة واقتناع بها. كما يتوقف على قدرة المعلم في تهيئة نفوس المتعلمين، مما يجعلهم على استعداد للاستيعاب وقبول كل معلومة تقدم إليهم»[5].

وقد اعتمد الرسول ﷺ ومن جاء بعده من المربين المسلمين «طرقاً عدة في تربية الإنسان المسلم، طرقاً تراعي الفروق الفردية بين المتعلمين، وتحترم طاقاتهم ومواهبهم، وتعمل على تنميتها»[6].

ويمكن تحديد أهم الطرائق التي استخدمها المسلمون في تعليم الكبار مع الإشارة إلى أن الطرائق التي ستطرح هنا ليست نهائية أو هي فصل الخطاب في هذا المقام، وإنما هي مجرد نماذج من الطرائق التي كانت معتمدة والتي سنقوم باستعراض بعضها على ضوء فاعلية ودور كل من المتعلم والمعلم في الموقف التعليمي.

---

(1) علي مدكور: **منهج التربية في التصور الإسلامي**، ص: 429.
(2) سورة: الحج، الآية: 78.
(3) مسلم: **صحيح مسلم**، 4/ 1836.
(4) عبد الرحمٰن نحلاوي: **أصول التربية الإسلامية وأساليبها**، ص: 205.
(5) أمينة أحمد حسن: **نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول**، ص: 235.
(6) عبد الجواد السيد بكر: **فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف**، ص: 313.

وبناء على هذا المعيار يمكن تصنيف طرائق تعليم الكبار إلى ثلاثة أنواع هي:

أ ـ الطرائق التفاعلية:

وهي التي تقوم على جهد المعلم والمتعلم بمعنى أن يشترك كلاهما بفاعلية في العملية التعليمية التعلمية كما هو الحال في طرائق:

1 ـ المناقشة

تحظى هذه الطريقة بتقدير كبير من العاملين في مجال التعليم عامة وتعليم الكبار بشكل خاص. كما وأنها تأتي في طليعة الطرق المستخدمة في برامج تعليم الكبار في العالم. ومعلوم أنّ «المناقشة هي أن يشترك المدرس مع المتعلمين في فهم وتحليل وتفسير وتقويم موضوع أو فكرة أو عمل أو مشكلة ما، وبيان مواطن الاختلاف والاتفاق فيما بينهم من أجل الوصول إلى قرار»[1].

وقد تأخذ المناقشة أحياناً «شكل الحديث الذي يلعبه رائد المناقشة وتعطيه بعض الأسئلة التي يثيرها الرائد أو يوجهها المستمعون. وأحياناً أخرى تأخذ شكل الحوار الحر الأصيل الذي يجري بين أعضاء الجماعة. وهي في أحسن أشكالها إلتقاء عدد من العقول حول مشكلة أو قضية أو مسألة لتدريسها دراسة عميقة مستفيضة بقصد الوصول إلى حل، والاهتداء إلى رأي، أو وضع للعمل. وللمناقشة عادة رائد وظيفته المعاونة في بدء المناقشة، وإحاطتها بالمناخ الملائم وتوجيهها إلى الخط السليم»[2].

ومن ينظر إلى الموقف التعليمي يلاحظ أنه يقوم أصلاً على الاتصال اللغوي الذي يمكن أن يتم من خلال أوجه ثلاثة: **أولاها**: أن يقوم المعلم بتوجيه الحديث إلى المتعلمين. **وثانيها**: أن يقوم المتعلمون بتوجيه الحديث إلى المعلم. **وثالثها**: أن يتبادل الدارسون والمعلم الحديث والاستماع إلى بعضهم البعض، وهذه هي المناقشة[3].

---

(1) علي أحمد مدكور: **منهج تعليم الكبار، النظرية والتطبيق**، ص: 220.

(2) محمود رشدي خاطر: **طرق تعليم الكبار وإمداداته**، ص: 9.

(3) علي أحمد مدكور: **«المناقشة وأهميتها في تعليم الكبار»، مجلة التربية المستمرة**، المنامة، م.

وكان استخدام رسول الله ﷺ لهذه الطريقة عن حكمة، في إطار قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[1]. ومعلوم أنّ «الجدل القائم على العلم هو نوع من المناقشة تدور بين سائل ومسؤول ويكون فيه المسؤول أجلّ من السائل ويتوفر فيه قوة الحجة والبلاغة»[2].

وقد استعمل الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم هذه الطريقة في التعليم، فكانوا يسألون ويشجعون الناس على السؤال حتى يتم التفاعل وتتحقق الغاية من التعليم. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**شفاء الجهل السؤال**»[3]، وأنّ «**العلم خزانة مفتاحها السؤال**»[4].

ومن يتحقق في سيرة الرسول ﷺ التعليمية لصحابته رضوان الله عليهم يجد أنها «كثيرة هي المفاهيم التي أوصلها إلى أصحابه عن طريق السؤال أولاً، حتى إذا سئلوا أعملوا فكرهم محاولين التوصل إلى الإجابة. فإمّا أجابوا وإما عجزوا، ويكونون حينئذٍ قد تلقوا درساً في ضرورة التفكير الشخصي والاستقلال العقلي في الفهم والاستنباط ثم يقرّهم على جوابهم أو يصحح لهم إجابتهم»[5]. ومن أمثلة هذه الطريقة قوله ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**»[6] وقوله: «**أتدرون من المفلس.؟**»[7] إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية القائمة على السؤال والجواب.

وفي حديث عن معاذ بن جبل قال: «قال رسول الله ﷺ: «**أتدري ما حق الله تعالى على العبد؟**» فقال الله ورسوله أعلم. قال: «**يعبدون الله لا يشركون به**

- ع.ت.ث.ع، مركز تدريب قيادات تعليم الكبار لدول الخليج بالبحرين، سنة 5، عدد 80، حزيران 1987 م، ص: 46.

(1) سورة: النحل، الآية: 125.

(2) أمينة أحمد حسن: **نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول**، ص: 246.

(3) ابن قتيبة الدينوري: **عيون الأخبار**، 2/ 122.

(4) ابن قتيبة الدينوري: م.ن، ص. ن.

(5) فريد الأنصاري: **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**، ص: 76.

(6) مسلم: **صحيح مسلم**، 4/ 2001.

(7) مسلم: م.ن، 4/ 1997.

شيئاً. قال: أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟» فقال الله ورسوله أعلم، قال: **«أن لا يعذبهم»**[1].

ومن الشواهد المعبّرة عن هذه الطريقة التعليمية أيضاً الحديث الشريف المروي عن الرسول ﷺ، والذي يدور فيه حوار بين جبريل عليه السلام والرسول ﷺ حول الإيمان والإسلام والإحسان وموعد الساعة[2].

وكان الرسول ﷺ أيضاً يحاور لإقناع الآخر وإقامة الحجة. ومن أمثلة ذلك ما روي عن الشخص الذي أتى الرسول ﷺ ليدخل الإسلام شريطة أن يبيح له الزنا. فقال له الرسول ﷺ: **«أتحبه لأمك»** فقال: لا يا رسول الله جعلني الله فداك. فقال رسول الله ﷺ: **«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم»**. قال: **«أفتحبه لابنتك»**، قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك. فقال: **«ولا الناس يحبونه لبناتهم»**. قال: **«فتحبه لأختك»** قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: **«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»**[3]. وهنا أدرك الرجل خطأ ما ذهب إليه نتيجة الحوار الذي أداره الرسول ﷺ بهدوء وعقلانية، ونجح من خلاله بإقناعه ضرورة التراجع عن موقفه، والإقرار بصوابية الإلتزام بمبدأ التعامل بالمثل الذي دعاه إليه.

فالسؤال بالنسبة للرسول ﷺ غالباً ما كان مفتاحاً للحوار والمناقشة. فلقد روي «عن عبد الرحمٰن بن أبي بكرة (101 هـ/ 718م) عن أبيه، ذكر أنّ النبي ﷺ قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه، قال: **«أي يوم هذا؟»** قال: فسكتنا حتى ظننا أنّه سيسميه سوى اسمه، قال: **«أليس يوم النحر؟»** قلنا: بلى، قال: **«فأي شهر هذا؟»** فسكتنا حتى ظننا أنّه سيسميه بغير اسمه فقال: **«أليس بذي الحجة؟»** قلنا: بلى، قال: **«فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإنّ الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه»**[4].

ولقد حذا الصحابة رضوان الله عليهم حذو الرسول في استعمال أسلوب

---

(1) أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 5/ 230.
(2) انظر: مسلم، م.س، 1/ 37.
(3) البيهقي: **شعب الإيمان**، 4/ 362.
(4) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 45.

السؤال والمناقشة في تعليم المسلمين. فعن ابن عباس ﷺ قال: «كان عمر بن الخطاب إذا دعا الأشياخ من أصحاب محمد ﷺ دعاني معهم وقال: لا تتكلم حتى يتكلموا. قال: فدعانا ذات يوم، أو قال: ذات ليلة، فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: في ليلة القدر ما قد علمتم: **«التمسوها في العشر الأواخر وتراً»** ففي أي الوتر ترونها؟ فقال: بعضهم تاسعة، سابعة، خامسة، ثالثة، فقال لي: يا ابن عباس ما لك لا تتكلم؟ فقلت: إن شئت تكلمت، قال: ما دعوتك إلّا لتتكلم، فقلت: أقول فيها برأيي؟ فقال: عن رأيك أسألك. فقلت: إنّي سمعت الله تبارك وتعالى أكثر ذكر السبع فقال: السمٰوات السبع والأرضون السبع حتى قال: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾[1]. فالحدائق كل ملتف وكل ملتف حديقة، والأب ما تنبت الأرض مما لا يأكل الناس. فقال عمر: أعجزتم أن تقولوا مثلما قال هذا الغلام الذي لم تشتق شؤون رأسه ثم قال: إني كنت نهيتك أن تتكلم فإذا دعوتك معهم فتكلم»[2].

وهكذا فإنّ الصحابة كانوا يشجعون المسلمين على الحوار والمناقشة في الدراسات الشرعية حيث كانت تطرح المسألة للحصول على أجوبة المتعلمين، وكان الإمام أبو حنيفة من المعجبين بهذه الطريقة حيث تبناها في تدريسه[3]، شريطة أن لا يكون الهدف «من المباحثة إلزام الخصم وقهره فلا تحل وإنّما يحلّ ذلك لإظهار الحق»[4].

فالإمام أبو حنيفة كان يعتمد هذه الطريقة لاستخراج الأحكام في جو مفعم بالحرية مشجع للطلاب للتعبير عمّا في أنفسهم من آراء. وكان منهجه في ذلك يقوم على عرض المسألة ليبدي كل تلميذ ما عنده في حكمها، فإذا اتفقوا على شيء أمر أحدهم أن يكتبه[5].

---

(1) سورة: عبس، الآيات: 26 ـ 31.
(2) الخطيب البغدادي: **الفقيه والمتفقه**، 2/ 133.
(3) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 12/ 308.
(4) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 103.
(5) محمود بن محمد بن عرنوس: **تاريخ القضاء في الإسلام**، ص: 40.

وللحوار آداب على الطالب أن يراعيها بحيث يختار الوقت المناسب لإلقاء السؤال، فلا يقاطع مدرّسه وهو يتكلم ولا زميله وهو يسأل[1]. ومن يرجع إلى حديث الإيمان والإسلام والإحسان، يجد كيف أنّ الرسول ﷺ لم يقاطع جبريل قط. وإنّما كان يتكلم عندما يفرغ جبريل عليه السلام من كلامه[2].

ويشير ابن جبير (614 هـ/ 1217م) إلى مثل هذا الأسلوب في المناقشة عندما يتحدث عن زيارته لبغداد وحضوره في النظامية خطبة الشيخ الإمام رضي الدين القزويني (590 هـ/ 1194 م)، رئيس الشافعية وفقيه النظامية، الذي ما أن انتهى من شروحاته وتعليقاته حتى «رشقته شآبيب المسائل من كل جانب فأجاب وما قصّر وتقدم وما تأخر، ودفعت إليه عدّة رقاع منها فجمعها جملة في يده وجعل يجاوب عن كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها[3].

ومن آداب الحوار أيضاً حسن النيّة والابتعاد عن التشنج والغضب لأنّ «المشاورة إنّما تكون لاستخراج الصواب وذلك إنّما يحصل بالتأمل والتأني والإنصاف ولا يحصل بالغضب والشغب[4].

وليس من العيب بشيء أن يعاود المتعلم السؤال، ويراجع مستفسراً عن المسألة المطروحة حتى يدرك معانيها لطالما أنّ ذلك يحصل ضمن «آداب المحاورة والنقاش. فعائشة رضي الله عنها «كانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلّا راجعت فيه حتى تعرفه، وأنّ النبي ﷺ قال: «**من حوسب عُذّب**»، قالت عائشة فقلت: أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[5] [الإنشقاق: 8] قال: فقال: «**إنّما ذلك العرض ولكن من نوقش الحساب يهلك**»[6].

وهكذا فقد كان للمناقشة آدابها التي تكفل لطرفي العملية التعليمية حقوقهما واحترامهما في مناخ من الحرية يحقق للطالب أعلى درجات الاستفادة. وكما أنّ من

(1) ابن الحاج العبدري: **المدخل**، 1/ 57.
(2) انظر: مسلم، **صحيح مسلم**، 1/ 37.
(3) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص: 195.
(4) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 103.
(5) سورة: الانشقاق، الآية: 8.
(6) البخاري: **صحيح البخاري**، 1/ 61.

حق التلميذ على المعلم أن لا يمنع عنه العلم الذي هو حق له وأن يحترمه، ولا يهزأ برأيه فإنّ «من حق العالم ألاّ تكثر عليه بالسؤال، ولا تعنّته في الجواب وأن لا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشين له سراً»[1].

فإذا قُدِّر للمناقشة أن تحصل في مثل هذا المناخ الحافز على التعلم، فإنها بلا شك ستكون من أخصب طرق التعليم وأكثرها فعالية، لأنها تتمتع بعدد من المزايا التي جعلت التربويين يفضلونها على غيرها من الطرق. ومن هذه المزايا «أنها تدفع المتعلم إلى أن يقوم بدور إيجابي في عملية التعلم، وإنها تقيم التعليم على أساس الخبرات الفعلية للدارسين، وأن الآثار التعليمية التي تحدثها تتميز بنوع من الثبات، وأنها تتيح الفرصة لتنمية الإتجاهات السليمة نحو التعاون والعمل الجماعي ولاكتساب المهارات التي تتطلبها ممارسة الأساليب الديمقراطية في حل مشكلات الجماعة. أمّا عيوبها فيذكر ناقدوها أنها تضيع كثيراً من الوقت، وأنها لا تصلح إلّا مع الجماعات الصغيرة، وأنها محدودة بالموضوعات التي تدور حول المشكلات والقضايا الخلافية، وأنها تفتقر في كثير من الأحيان إلى الرواد المدربين الذين يشجعون كل عضو على أن يعطي ما عنده، ويساعدون الجماعة على أن تمضي قدماً نحو الهدف الذي تبتغيه»[2].

وعلى الرغم من العيوب التي قد يثيرها البعض إلّا أنّ ذلك لا يقلل من القيمة التربوية لهذه الطريقة التي تعتبر «من أهم ألوان النشاط التعليمي للكبار والصغار على السواء»[3]، لما لها من دور في تقوية الحجة وتنمية القدرة على التعبير، والتعويد على الثقة بالنفس مما يجعل المتعلم قادراً على المناقشة وإحقاق الحق، وبذلك يستطيع أن يقوم بدوره كإنسان له حق وعليه واجبات.

وخلاصة القول: إنّ أسلوب الحوار والنقاش من أساليب التربية الناجحة. وقد كان الرسول ﷺ حريصاً على تعليم الصحابة الكرام بهذه الطريقة. وما الموقف

---

(1) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، 1/ 129.
(2) محمود رشدي خاطر: طرق تعليم الكبار وإمداداته، ص: 9.
(3) علي أحمد مدكور: منهج تعليم الكبار، ص: 220.

التعليمي ـ الذي حاوره فيه جبريل بشأن الإيمان والإسلام والإحسان على مرأى ومسمع من الصحابة الذين كانوا يتابعون بكل لهفة وحماس ـ إلّا نموذج تعليمي كي يتبعوه في منهجهم التعليمي فيما بعد.

2 ـ المناظرة

تعتبر المناظرة من أهم طرائق تعليم الكبار بمستوياته العليا؛ لأنها غالباً ما كانت تتم بين معلم ومتعلم أثناء الدرس. فإذا كان طرفا المناقشة هما الأستاذ والطالب فإنّ طرفي المناظرة هما أستاذان، وقد يكونا أديبين أو لغويين أو شاعرين أو طبيبين... إلخ.

وتعتبر المناظرة من أقدم طرائق التعليم التي استخدمها المسلمون، وكان الجدال الذي يدور بين الرسول ﷺ، وبين أهل الكتاب وغيرهم من أصحاب الرأي والبرهان بمثابة نواة هذه الطريقة التعليمية، التي ما لبثت أن تطورت فيما بعد عندما أصبحت «المناظرة في القرن الثاني هي الوسيلة المفضلة بين الفقهاء لاستنباط حقائق الفقه، واستخراج أصوله وقواعده... وهذا الشافعي يضع كتابه (جماع العلم) وكله يدور على أسلوب الجدل والتناظر فيلقي السؤال على خصمه، ويتلقى الاعتراف منه ويرد كل منهما على الآخر»[1]. ويبدو أنّ هذه الطريقة مهدت للبحث العلمي المنظم عند المسلمين فيما بعد. ولا يخفى مدى ولع علماء المسلمين بها. «حتى إنّ المعتزلة جعلوا المناظرة والمجادلة، وهذا النوع من الثقافة ركناً كبيراً من أركان الإسلام»[2].

ولشدة تقدير علماء المسلمين لهذه الطريقة وإدراكهم لأهميتها لم يكن غريباً أن يعتبروها من أفضل طرائق التدريس إن لم تكن أفضلها على الإطلاق. وهو ما يفهم من كلام ابن خلدون الذي يعزي تردي الحالة الفكرية في أيامه لجهل المعلمين بطرائق التدريس، وخاصة طريقة المناظرة التي يعتبرها أساساً في عملية الفهم والقدرة على التعبير، وبالتالي حصول الملكة العلمية والحذق في العلوم حيث يقول: «وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة، والمناظرة في المسائل

(1) محمد عبد الرحيم غنيمة: **تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى**، ص: 204.
(2) أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، 2/ 129.

العلمية فهو الذي يقرب شأنها، ويحصّل مرامها فنجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون. وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعلم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنّه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم. وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده وإلاّ فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك»[1].

وإذا كان ابن خلدون يعيب على أهل المغرب تغليب الحفظ على المناظرة، فإنّ الزرنوجي(*) بدوره يقدم المناظرة على التكرار ويقول: «وفائدة المطارحة والمناظرة أقوى من فائدة مجرد التكرار لأن فيه تكراراً وزيادة»[2].

والغزالي الذي ناظر العلماء في مجلس نظام الملك وظهر عليهم[3]. يرى أنّ المناظرة حتى تكون وسيلة تعليمية ناجحة تسهم في التعاون على طلب الحق من الدين لا بد أن تراعي شروطاً وعلامات ثماني يمكن إيجازها فيما يلي[4]:

1 ـ أن لا يشتغل بالمناظرة التي هي من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان. ومن عليه فرض فاشتغل بفرض كفاية، وزعم أنّ مقصده الحق فهو كذّاب.

2 ـ أن لا يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره فقد عصى.

3 ـ أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما. وأمّا من ليس له رتبة الاجتهاد فله أن يفتي فيما يسأل عنه ناقلاً عن مذهب صاحبه، ولكن في حال ظهر له ضعف مذهبه لم يجز له أن يتركه.

---

(1) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: 432.

(*) من تلامذه الفرغاني له كتاب تعليم المتعلم طريق التعلم كان حيًا قبل عام 593/ 1196 م.

(2) الزرنوجي: **تعليم المتعلم طريق التعلم**، ص: 104.

(3) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، 4/ 103.

(4) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 56 وما بعدها.

4 ـ أن لا يناظر إلّا في مسألة واقعية أو قريبة الوقوع فإنّ الصحابة ﷺ ما تشاوروا إلّا فيما تجدد من الوقائع أو ما يغلب وقوعه كالفرائض.

5 ـ أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين وذلك دركاً للحق وتحاشياً للرياء.

6 ـ أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرى رفيقه معاوناً لا خصماً ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق أسوة بالصحابة رضوان الله عليهم. فعمر ﷺ عندما نبهته امرأة على الحق وهو في خطبته على ملأ من الناس قال أصابت امرأة وأخطأ عمر.

7 ـ أن لا يمنع معينه في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال فهكذا كانت مناظرات السلف.

8 ـ أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم.

وفي الختام يلفت الغزالي إلى أنّ «المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام وإظهار الفضل، والشرف، والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي مبلغ جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس»[1].

ويعتبر الغزالي أنّ العلماء بشكل عام، وبالمناظرة بشكل خاص على ثلاثة أنواع «إما مهلك نفسه وغيره وهم المغرمون بطلب الدنيا والمقبلون عليها، وإمّا مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً وإمّا مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصد في الباطن قبول الخلق وإقامة الجان، فانظر من أي الأقسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له؟ فلا تظنن أنّ الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل»[2].

(1) الغزالي: إحياء علوم الدين، 1/ 58.
(2) الغزالي: م. ن، 1/ 61.

ولقد حظيت المناظرة بقدر كبير من الأهمية عند المسلمين «وكان للخلفاء مجالس مناظرات كثيرة ولا سيما المأمون، فقد كان مثقفاً واسع الثقافة يجيد فروعاً كثيرة من العلوم وفيها كلها يناظر»[1].

فكان من الطبيعي إذن أن تكتسب المناظرة قيمة علمية متقدمة مما جعلها «تدور على أعلى صعيد بين فقهاء المذاهب المختلفة، ويشارك فيها الأساتذة والمتبحرون من الطلاب مشاركة فاعلة بينما يظل سائر الحاضرين منصتين»[2] ولشدة اهتمام العلماء بهذه الطريقة أصبحت المناظرة «الأسلوب الشائع في مختلف العلوم وحتى الشعراء عرف عنهم أنهم كانوا يناظرون مع بعضهم بعضاً في مثل هذه الاجتماعات»[3]. والحقيقة أنّ أسلوب المناظرة شكّل مرتكزاً رئيسا من مرتكزات تعليم الكبار في مستوياته المتقدمة الخاصة بالتعليم العالي المستمر. ولقد تجلى ذلك زمن الدولة العباسية.

3 ـ المراسلة

تعتبر طريقة المراسلة اليوم من أكثر الطرق استخداماً لتعليم الكبار في كثير من بلدان العالم. وتقوم هذه الطريقة على ثلاثة مرتكزات: **أولاً**: توفير المادة التعليمية المنظمة المبرمجة. **ثانياً**: إقامة نظام ناجح للمراسلة. **وثالثاً**: إعداد جهاز خاص مهمته حل التمرينات والاختبارات وتزويد المتعلمين بالتوجيهات اللازمة.

ولقد استخدم المسلمون هذه الطريقة منذ نشأتهم الأولى، وكانت بسيطة تقوم على حب المعرفة عند أبنائهم الذين كانوا لا يترددون في أن يسألوا عن أية قضية أو موضوع قد يصعب عليهم. وفي حال بعدت الشقة بين الأستاذ وتلميذه لم يكن يجد الأخير حرجاً في أن يبعث بسؤاله كي يحصل على جواب للمسألة التي

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام، 2/ 57.

(2) جورج مقدسي: «مؤسسات العلم الإسلامي ببغداد» في مجلة الأبحاث، بيروت، الجامعة الأميركية، السنة 14، الجزء 3، أيلول 1961، ص: 292.

(3) منير الدين أحمد: «دور المجالس والحلقات في النظام التربوي الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي» في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، 1/ 311.

تشغل باله. فرسالة «أيها الولد» كانت جواباً لسؤال تلقاه الإمام الغزالي من تلميذ «اشتغل بالتحصيل وقراءة العلم عليه حتى جمع دقائق العلوم، واستكمل فضائل النفس، ثم إنه تفكر يوماً في حال نفسه وخطر على باله فقال: إني قرأت أنواعاً من العلوم. وصرفت ريعان عمري على تعلمها وجمعها، والآن ينبغي أن أعلم أي نوعها ينفعني ويؤنسني في الآخرة وأيها لا ينفع حتى أتركه... فاستمرت له هذه الفكرة حتى كتب إلى حضرة الشيخ حجة الإسلام محمد الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ استفتاء وسأل عن مسائل والتمس منه نصيحة ودعاء. قال: وإن كانت مصنفات الشيخ كالإحياء وغيره تشتمل على جواب مسائلي لكن مقصودي أن يكتب الشيخ حاجتي في ورقات تكون معي مدة حياتي وأعمل بما فيها مدة عمري إن شاء الله تعالى. فكتب الشيخ هذه الرسالة إليه جواباً»[1].

ولم يقتصر هذا النوع من الرسائل التعليمية على الطلاب وأساتذتهم، وإنّما تعدى ذلك ليكون بين العلماء أنفسهم وبين الحكام وعامة الشعب من جهة والعلماء من جهة أخرى. فكان إذا ما اشتهر عالم بفن أو علم في أي بلد إسلامي «تأتيه الرسائل من جميع الأقطار تسأله في مسائل هامة في التفسير أو النحو أو الفقه فيجيب الأستاذ بأجوبة مختلفة»[2]. فهذا أبو جعفر ملك سجستان يكتب إلى أبي سعيد السيرافي (368 هـ/ 979م) كتاباً «سأله عن سبعين مسألة في القرآن، ومائة كلمة في العربية، وثلاثمائة بيت من الشعر... وأربعين مسألة في الأحكام، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين»[3].

ولقد اعتمد أبو حيان التوحيدي (400 هـ/ 1010م) هذه الطريقة التعليمية. ويروى أنّه بعث «إلى ابن مسكويه (421 هـ/ 1030م) بكتاب يشتمل على جملة أسئلة مما احتار فيها. بعضها لغوي، وبعضها ديني، وبعضها أخلاقي، وبعضها اجتماعي. ووضع هذه الأسئلة في كتاب سماه الهوامل. والهوامل: هي الإبل المهملة السائمة.

(1) الغزالي: **أيها الولد**، ص: 86.
(2) أحمد أمين: **ظهر الإسلام**، 2/ 227.
(3) أبو حيان التوحيدي: **الإمتاع والمؤانسة**، 1/ 130.

فرد عليه ابن مسكوية بكتاب يجيب فيه على أسئلته سؤالاً سؤالاً وسماه الشوامل. كأنه شمل الهوامل وضبطها»[1].

وقد كانت هناك رسائل بين الجنيد (297 هـ/ 909م) وأبي بكر الكسائي (189 هـ/ 805م) وكانت كتاباتهم بعيدة عن ذوق العامة لأنهم «كانوا يتكاتبون بما يشق فهمه على عامة الناس»[2].

ولا يخفى أنّ رسائل إخوان الصفاء قد جاءت في هذا السياق التعليمي الخاص بالكبار. حيث إنّ جماعة الإخوان استعملوا الرسائل في تعليمهم أتباعهم الذين لم يكن بمقدورهم أن يحضروا مجالسهم. وكان هؤلاء منتشرين بين مختلف فئات الشعب. وقد شكلت الرسائل الاثنين والخمسين التي سميت برسائل إخوان الصفاء المادة التعليمية التي طالما دعوا «الأخ حيثما كان في البلاد لأنّ ينظر فيها إذا لم يكن يستطيع الحضور إلى مجلسهم وسماع محاوراتهم ومناقشاتهم، ونتيجة لبعد الإخوان عن مركز الدعوة في البصرة، فإنهم كانوا يقومون بإرسال هذه الرسائل إليه، كي تتاح له قراءتها معتمداً في هذا على نفسه، ومجهوده الشخصي ما أمكن إلى هذا سبيلاً»[3].

فالمراسلة كما يبدو لم تكن حكراً على فئة دون أخرى، وإنّما كانت طريقة من طرائق التعليم التي لجأ إليها الطلاب، والحكام، والعلماء، والعامة عندما كانت تدعو الحاجة لذلك. فعن طريق المكاتبات تمكن الجميع من أن يتعلموا ما يشاءون وحينما يريدون.

ب ــ طرائق التعلم الذاتي:

وهي التي تقوم على جهود المتعلم بحيث يقوم المتعلم بتعليم نفسه بنفسه، أو يكون فيها دور المعلم محدوداً جداً، ومن هذه الطرائق:

---

(1) أحمد أمين: ظهر الإسلام، 2/ 226.

(2) زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ث2/ 80.

(3) نادية جمال الدين: فلسفة التربية عند إخوان الصفاء، ص: 254.

1 ـ القراءة

استخدمت هذه الطريقة في مراحل التعليم الأولي والعالي على حد سواء. وكانت على مستوى التعليم الأولي (الأساسي) لصيقة بتعليم القرآن الكريم ومبادىء المهارات الأولى لتلاوته، وبالتالي اتقان القراءة والكتابة بشكل عام حتى يتمكن المتعلم من الاتصال بالكتب وكل ما هو مخطوط أو مطبوع بقصد الإفادة أو الاستماع. فبالنسبة لتعليم القرآن الكريم كانت القراءة على الشيخ «هي المستعملة سلفاً وخلفاً»[1]. وكان ذلك يتم من خلال قراءة المعلم لآيات القرآن الكريم، قراءة نموذجية تتصف بالخشوع وجودة الإلقاء، يتبعه التلاميذ بعدها فيقرأون واحداً تلو الآخر حتى يتقنوا التلاوة. وفي حال كان الوقت ضيقاً يكتفي المعلم بأن يعيدوا القراءة عليه بشكل جماعي. «ولأن قراءة المعلم النموذجية خطوة جوهرية كان لا بد من أن يراعي الالتزام بقواعد التجويد الأساسية»[2] كالإظهار والإقلاب والإدغام والإخفاء وغيرها من أحكام التلاوة. «ويحكى أن الشيخ شمس الدين ابن الجزري(*) لما قدم القاهرة وازدحمت عليه الخلق لم يتسع وقته لقراءة الجميع فكان يقرأ عليهم الآية ثم يعيدونها عليه دفعة واحدة فلم يكتف بقراءته»[3].

وكانت القراءة بعيداً عن تعليم القرآن الكريم «وسيلة لتدريس ورواية عمل علمي ليس من انتاج الأستاذ نفسه في غالب الأحيان»[4] ومعلوم أنّ «أكثر المحدثين يسمونها (عرضاً) من حيث أنّ القارىء يعرض على الشيخ ما يقرؤه. كما يعرض القرآن على المقرىء. وسواء كنت أنت القارىء، أو قرأ غيرك وأنت تسمع، أو قرأت من كتاب، أو من حفظك، أو كان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه أو لا يحفظه لكن يمسك أصله هو أو ثقة غيره»[5].

غير أنّ القراءة مع مرور الوقت تطورت وأصبحت أفضل وسيلة للتعلم الذاتي

---

(1) طاش كبرى زادة: **مفتاح السعادة**، 2/ 401.
(2) محمد عبد القادر أحمد: **طرق تعليم التربية الإسلامية**، ص: 217.
(*) محمد بن عبد الله شمس الدين الجزري الشافعي (بعد 660 هـ/ بعد 1262 م).
(3) طاش كبرى زادة: م. س، 2/ 402.
(4) محمد عبد الرحيم غيمة: **تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى**، ص: 186.
(5) سعيد إسماعيل علي: **الأصول الإسلامية للتربية**، ص: 386 ـ 387.

على الإطلاق، وذلك عندما أصبح طلاب العلم لا يكتفون بالقراءة على معلم، وإنّما يقرأون على أنفسهم وهو ما يصرح عنه ابن سينا في قوله: «ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق»[1].

ولقد كان المصري(*) «يشتري من الوراقين الكتب التي لم يكن سمعها ويسمع فيها لنفسه»[2]. ولا يخفى أنّ الغزالي بدوره قد وقف على علوم الصوفية خلال قراءته لكتبهم دون القراءة على أستاذ أو شيخ. وهذا ما يصرح به قائلاً: «فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي. وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، وغيرهم من المشايخ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع»[3].

وهكذا فإنّ القراءة على النفس أصبحت من العوامل المساعدة للقراءة على الغير، إضافة إلى أنّ القراءة لم تعد تقتصر على القرآن الكريم، والحديث الشريف، وإنّما امتدت لتستوعب كل ما هو مكتوب أو مخطوط في ذلك الوقت، ومن السمات الظاهرة لهذه الطريقة جدية المتعلم في اختيار المادة التعليمية التي يرغب في تعلمها سواء كان يقرأ على نفسه أو على غيره. فإذا كان يقرأ على غيره «يعرض الطالب أو غيره الكتاب الذي يراد درسه بحضور الشيخ، وحينئذ يتحقق اطلاع الشيخ على المعلومات التي احتواها الكتاب أو الكتب التي تدرس بإشرافه وبحضرته، وبعد أن تتم عملية التعليم يصح للتلميذ أن يروي الكتاب أو الكتب التي درسها على شيخه»[4]. ولا شك أنّ الذي شجع طريقة القراءة هو ازدهار الحركة العلمية، وكثرة التراجم والمؤلفات وانتشار الفهارس وقوائم الكتب والمكتبات. ولقد كانت لهذه التطورات انعكاسها الإيجابي على حركة التربية المستمرة وتعليم الكبار.

---

(1) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 3/ 4.

(*) محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن أبو الفتح (440 هـ/ 1048م).

(2) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 1/ 354.

(3) الغزالي: **المنقذ من الضلال**، ص: 131 ـ 132.

(4) عبد الله فياض: **تاريخ التربية عند الأمامية وأسلافهم من الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي**، ص: 154.

2 ـ المذاكرة

إنّ عناية الصحابة بالحديث وحفظه أكسب المذاكرة قيمة كبيرة جعلها ترقى إلى أرقى المراتب في الإسلام، فكانت بنظر البعض في مقام العبادات المفروضة، إذا لم تكن تتقدمها. فعن المعتمر بن سليمان (187 هـ/ 803 م) عن أبيه قال: بأنه كان يتذاكر الفقه والسنة مع آخرين فقال بعضهم: «لو قرأت علينا سورة من القرآن فقال: ما أنا بالذي أزعم أنّ قراءة القرآن أفضل مما نحن فيه»[1]. وعن ابن مسعود ﷺ قال: «الدراسة صلاة»[2]. وعن الرسول ﷺ أنّه قال: «**لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير لك من أن تصلي مائة ركعة**»[3].

ولقد أجمع الصحابة على أهمية أسلوب المذاكرة وأثره في ترسيخ الأحاديث في الذهن وبالتالي دراستها. ولما كان من الصعب على المتعلم أن يحتفظ بما تعلم بمجرد السماع، كان الصحابة يلتقون ليتذاكروا ما أخذوه عن الرسول بعد انفضاض مجلسه كما في رواية أنس بن مالك ﷺ حيث يقول: «كنا مع النبي وربما كانوا نحواً من ستين إنساناً فيحدثنا رسول الله ﷺ ثم يقوم فنراجعه بيننا هذا وهذا فنقوم وكأنما قد زرع في قلوبنا»[4].

والمذاكرة لم تكن تتم خلال الجلسة التعليمية وإنّما كانت تعقب هذه الجلسات، سواء كان ذلك في عهد الرسول كما سبق وذكر، أو زمن التابعين وأتباعهم كما يروى عن أبي صالح السمان(*)، أنّه قال: قال حدثنا ابن عباس يوماً بحديث فلم نحفظه فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه. وعن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى (283 هـ/ 896 م) عن عطاء (114 هـ/ 732م) قال: «كنا نكون عند جابر بن عبد الله (78 هـ/ 697م) فيحدثنا فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه»[5].

---

(1) الخطيب البغدادي: **الفقيه والمتفقه**، 1/ 17.

(2) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، 1/ 22.

(3) ابن عبد البر: م. ن، 1/ 25.

(4) الخطيب البغدادي: م. س، 2/ 127.

(*) أبو صالح ذكوان بن عبدالله السمان، ويقال له: الزيات روى عنه مالك والثوري وشعبة وغيرهم.

(5) محمد عجاج الخطيب: **السنة قبل التدوين**، ص: 160.

ولم تكن جلسات المذاكرة حكراً على أحد دون الآخر وإنما كانت مفتوحة للجميع، وكانت في بعض الأحيان تتم صدفة، كأن يلتقي علماء أثناء زيارتهم لمكان ما مع علماء ذلك المكان فيفضلون تناول الحديث معهم في حلقات المذاكرة على تناوله في مجالس التدريب الشكلية[1]. وفي أحايين أخرى كانت تنظم جلسات خاصة لذلك[2]. ولقد ذكر ابن المديني (230 هـ/ 845م) أنه تداول الحديث مع أحمد بن حنبل على مدى أربعين سنة في كل رحلة كان يقوم بها إلى بغداد فقال: «كنت قدمت إلى بغداد منذ أربعين سنة كان الذي يذاكرني أحمد بن حنبل»[3].

ومن طالبي العلم من كان يلجأ إلى جاريته أو إلى الغلمان حتى يذاكرهم في حال لم يجد أحداً يحدثه. ومثل هذا ما روي عن الإمام الزهري (124 هـ/ 742م) أنه كان يبتغي العلم من عروة (93 هـ/ 712م) وغيره، فيأتي جارية له نائمة فيوقظها فيقول لها: حدثني فلان بكذا وفلان بكذا فتقول: مالي ولهذا؟ فيقول: قد علمت أنك لا تنفعين به ولكن سمعت الآن فأردت أن أستذكره. وكان إسماعيل بن رجاء[*] عندما يجد من لا يذاكره الحديث يلجأ إلى غلمان الكتب فيجمعهم ويحدثهم كي لا ينسى حديثه[4].

وفي حال تعذر وجود شخص لتحديثه لم يكن هناك ما يمنع من اللجوء لمذاكرة الحديث مع النفس. فعن إبراهيم النخعي قال: «إنه ليطول عليّ الليل حتى أصبح فألقاهم فربما أدسه بيني وبين نفسي أو أحدث به أهلي[5].

ولا ريب أن المذاكرة مع مرور الوقت سعت لتحقيق أهداف دينية وتعليمية متعددة كتصحيح الأخطاء، ومعرفة الأحفظ، والأضبط والأفقه، وغيرها من الأهداف التي يمكن إيجازها فيما يلي:

---

(1) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 1/ 354، 8/ 94.
(2) الخطيب البغدادي: م. ن، 6/ 310.
(3) الذهبي: **تذكر الحفاظ**، 14/ 182.
(*) إسماعيل بن رجاء بن ربيعة الزبيدي أبو إسحاق الكوفي تابعي من الطبقة الخامسة.
(4) محمد عجاج الخطيب: **السنة قبل التدوين**، ص: 161.
(5) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، 1/ 102.

1 ـ الحفظ كما في قول أبي سعيد الخدري (74 هـ/ 693م): تذاكروا الحديث فإن الحديث يهيج الحديث»[1].

2 ـ التفقه ونشر العلم كما في قول عبد الله بن عباس: «رووا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولنّ رجل لحديث قد حدثه: قد حدثته مرة. فإنه من كان سمعه يزداد به علماً، ويسمع من لم يسمع»[2].

3 ـ تصحيح الأخطاء كما في قول ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**والشهر تسع وعشرون**» فلما ذكروا ذلك لعائشة، قالت: «يرحم الله أبا عبد الرحمٰن إنما قال: «الشهر يكون تسعاً وعشرين»[3].

والحقيقة أنّ هذه الطريقة لعبت دوراً إيجابياً وبارزاً على الصعيدين: الديني والتعليمي، فعلاوة على اسهاماتها في نشر العلم وتعميمه، فإنّ دورها في ضبط السنة وحمايتها من الضياع لم يكن أقل شأناً من ذلك.

3 ـ الممارسة والعمل

إنّ تكوين الاتجاهات الدينية والاجتماعية وغيرها لا يمكن أن يتم بالوعظ، وإنما من خلال الممارسة والعمل لأنّ «تعود المرء على النظام في الحياة، وعلى ضبط النفس، وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية، وعلى التضحية في سبيل المجموع. وكلها تتطلب مراناً وممارسة يومية تلازم حياة الإنسان ليل نهار»[4].

ولما كان الإسلام قد أولى العلم والمعرفة قيمة عظيمة لأنه لا يمكن ـ حسب ما جاء في القرآن الكريم ـ أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون. فلا عجب إذن أن يكون الإسلام دعوة إلى العمل؛ لأنه يعتبر أن التلازم بين العلم والعمل ضرورة لا غنى عنها لنيل رضا الله تعالى الذي يحذر عباده من أن يخالف قولهم فعلهم. فيقول وهو أصدق القائلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ

(1) الدارمي: سنن الدارمي، 1/ 146.
(2) الدارمي: م. ن، 1/ 147.
(3) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، 6/ 51.
(4) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي، ص: 104 ـ 105.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[1]. لذلك فإن المقر بالشهادتين لا ينال الفوز، ولا يستحق احترام الإسلام إلّا بالعمل بمقتضاهما. «فإن المرء لا يكون مسلماً حقاً إلّا بالنطق بهما مع فهم مدلولهما والعمل بمقتضاهما، والتزام بقية دعائم الإسلام، لأنهما له كالمفتاح ولا بد لكل مفتاح من أسنان، فأسنانه هنا بقية أركان الإسلام»[2].

وممارسة العبادات في الإسلام عملية تعليمية مستمرة مدى الحياة «تتحول بها الكلمة إلى عمل بنّاء، أو إلى خُلُق فاضل أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام»[3]. خليفة الله في أرضه ومحققاً لسعادة الدنيا والآخرة من خلال الالتزام بتعاليمه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[4]. وهو ما ينصح به الرسول ﷺ في قوله: «**اعبدوا الله ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم**»[5]. فالرسول ﷺ يدعو لأداء هذه العبادات ـ التي تعتبر أهم أركان الإسلام ـ لأنها «ليست (حركات) شكلية تؤدي كفاية في حد ذاتها. وهي ليست مجرد (طقوس) و(شعائر) تشغل حيزاً من مكان ومن زمان. وإنما هي (وسائط) تقرب الإنسان من الخالق ﷻ وتسمو بهذا المخلوق إلى أرفع ما يطمح إليه من المستويات الدنيوية والدينية وتوثق بين أفراد الأمة بعضهم ببعض»[6].

ولذلك فإن العبادات من أهم طرق التعليم عند المسلمين لأنها تعلم المسلم تعظيم الخالق، وتهذيب الخلق، والدقة والانضباط، وتنظيم الوقت والتعاون، وتقوية الإرادة، وتعزيز الأخوة بين المسلمين. وكثيراً من الدروس الخاصة بصلاح الفرد والمجتمع، ويأتي في طليعتها ترسيخ العقيدة الإيمانية من خلال التوجه الصحيح إلى الله تعالى للرقي إلى مرتبة الإحسان التي قال فيها الرسول ﷺ:

---

(1) سورة: الصف، الآيتان، 2، 3.
(2) حامد بن محمد العبادي: **من حكم الشريعة الإسلامية**، ص: 19.
(3) عبد الغني عبود: **في التربية الإسلامية**، ص: 157.
(4) سورة: فصلت، الآية: 33.
(5) أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، 5/ 251، 262.
(6) سعيد إسماعيل علي: **الأصول الإسلامية للتربية**، ص: 304.

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

ولما كانت العبادات مفروضة على المكلفين فإنها تعتبر من أهم طرائق تعليم الكبار في الإسلام لأن هذه الطريقة تكرّس مبدأ التربية المستمرة التي نادى بها الإسلام. إضافة إلى أنه لا غنى عنها لأنها ملازمة للعبادات التي فرضها الله تعالى على كل مسلم عاقل.

وتعتبر هذه الطريقة مدخلاً لتوظيف العلم الوجهة الصحيحة، التي تسهم في تغيير سلوك الإنسان، وتساعده على اكتساب الاتجاهات والمواقف التي لا بد وأن تترجم عملاً صالحاً، حيث تشكل بدورها ثمرة هذا العلم. لذلك نبه علماء المسلمين إلى العلاقة المتلازمة بين العلم والعمل، فقال الإمام أبو حنيفة: «ما العلم إلّا للعمل به»[2]. وقال الإمام الغزالي: «العلم بلا عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون»[3]. وهذا يعني أن ممارسة العمل بحد ذاته وسيلة هامة وفاعلة من وسائل التربية، خاصة إذا كان هذا العمل يستند إلى العمل الواجب «وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة، ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله، ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء لا محالة»[4].

فالتعلم عن طريق ممارسة الأعمال أو أداء الفرائض يعوّد المرء على النظام: وضبط النفس والتعاون والتضحية، وكل ذلك يتطلب ممارسة يومية تلازم الإنسان طالما هو حي قادر على القيام بواجباته والتزاماته تجاه ربّه ومجتمعه ونفسه.

4 ـ الرحلة

إنّ ظاهرة السفر لتلقي العلم في بلد من البلدان أو في جامعة من الجامعات ليست وليدة هذا العصر. فلقد حرص المسلمون منذ أيامهم الأولى على قطع المسافات طلباً للعلم على أيدي من كان يشهد له بعلم من العلوم أو فن من الفنون. ولم يكن هذا الحماس للرحلة في طلب العلم وَلِيدُ الصدفة، أو طمعاً في نيل الشهرة، وإنّما كان ينبع من إيمان عميق بالإسلام، الذي طالما شجع على طلب

(1) مسلم: صحيح مسلم، 1/ 37.
(2) الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم، ص: 65.
(3) الغزالي: أيها الولد، ص: 108.
(4) الغزالي: إحياء علوم الدين، 1/ 191.

العلم واعتبر الرحلة من أجله مهمة عظيمة. يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]، أي أنّه «إذا لم يكن نفير الجميع، ولم يكن فيه مصلحة فهلّا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة. ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليصبحوا فقهاء، ويتكلفوا المشاق في طلب العلم. ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون عقاب الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه... وكان الظاهر أن يقال: (ليعلموا). بدل: (لينذروا) و(ليفقهوا) بدل: (يحذرون) لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنّه ينبغي أن يكون غرض العلم: الإرشاد والإنذار، وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار»[2]. فكانت هذه الآية بمثابة إعلان عام للمسلمين ليهبوا ويسافروا «من قطر إلى قطر في طلب العلم غير مبالين ما يعترضهم من مشقة وعناء وفقر، مع ما في السفر إذ ذاك من صعاب جعلته ـ كما عبروا عنه ـ قطعة من العذاب»[3].

والرحلة في زمن الرسول ﷺ كانت عامة من أجل معرفة تعاليم الدين الجديد. وهل هناك من هو أولى من الرسول ﷺ أن يسافر إليه ليأخذ عنه الدين؟ وهكذا فإن بعضاً ممن كان يسمع بالدين الجديد كان يسافر إلى الرسول ﷺ ليسمع القرآن الكريم ويتعرف على الإسلام، ثم يعود إلى قومه بعد أن يعلن إسلامه كما فعل ضمام بن ثعلبة (*) الذي بعثه قومه إلى النبي ﷺ[4].

وفي المقابل كان هناك رحلات هدفها نشر الدين الإسلامي، وكانت هذه الرحلات بمثابة بعثات تعليمية، توفر إلى حي من الأحياء أو قبيلة من القبائل، بناء على مبادرة من الرسول ﷺ، أو طلب يوجه إليه كي يعلم القوم أمور دينهم. ويروى عن أبي موسى الأشعري: «أنّ رسول ﷺ بعث معاذاً وأبا موسى ـ رضي الله

---

(1) سورة: التوبة، الآية: 122.
(2) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، 1/ 586.
(3) أحمد أمين: ضحى الإسلام، 2/ 69.
(*) ضمام بن ثعلبة السعدي من بني سعد بن بكر.
(4) ابن حجر: الإصابة، 2/ 202.

تعالى عنهما ـ إلى اليمن وأمرهما أن يعلما الناس القرآن»[1]. فيروي أنس بن مالك (93 هـ/ 712م) أنّه «جاء ناس إلى النبي ﷺ فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم: القراء... كانوا يقرأون القرآن ويتدارسون بالليل ويتعلمون»[2].

وكان لخروج الصحابة من المدينة وانتشارهم في الأمصار تأثير بالغ في «انتشار العلم وتفرق العلماء، وقد ظهرت تقاليد علمية استمرت راسخة لقرون طويلة، وتركت آثاراً عميقة في تواصل الحركة العلمية في أرجاء العالم الإسلامي، وفي توحيد الآداب والمناهج والتقاليد العلمية، وفي التقريب بين وجهات نظر العلماء الأخرى، وفي إعادة تجميع العلم المنتشر، تلك هي الرحلة في طلب العلم»[3]. في المرحلة التي تلت عهد الرسول ﷺ.

يقول بُسر بن عبيد الله الحضرمي (*) «إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه»[4]، «وكان مسروق (63 هـ/ 683م) يرحل في حرف وأبو سعيد (74 هـ/ 693م) يرحل في حرف»[5].

وروي أنّ أبا أيوب الأنصاري (52 هـ/ 672م) رحل إلى عقبة بن عامر (58 هـ/ 678م) وكان بمصر ليسمع منه حديث **«من ستر مسلماً على خزية ستره الله يوم القيامة»**[6]. ولم يحل رحله حتى رجع إلى بيته في المدينة[7]. وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله تعالى مني تبلغه الإبل لأتيته»[8].

---

(1) الأصبهاني: **حلية الأولياء**، 1/ 256.

(2) ابن سعد: **الطبقات**، 3/ 514.

(3) أكرم ضياء العمري: **«التعليم في عصر السيرة والراشدين»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 1/ 73.

(*) بُسر بن عبيد الله الحضرمي الشامي تابعي، ثقة، حافظ من الطبقة الرابعة.

(4) ابن عبد البر: **جامع بيان العلم**، 1/ 95.

(5) ابن عبد البر: م. ن، 1/ 94.

(6) ابن عبد البر: م. ن، 1/ 93ـ94.

(7) ابن عبد البر: م. ن، ص. ن.

(8) الخطيب البغدادي: **الكفاية في علم الرواية**، ص: 402.

ولا يخفى أنّ الحج كان سبباً رئيساً من الأسباب التي ساعدت على انتشار الرحلة كطريقة من طرق التدريس، ذلك لأن الطلبة استطاعوا أن يستفيدوا من قوافل الحجاج والتجار في تحقيق أهدافهم التعليمية بأمان[1]. وقد سهلت هذه القوافل إلى جانب قوافل التجارة الطريق أمام طلاب العلم ليصلوا إلى مراكز العلم التي كانوا يقصدونها. ومن العوامل التي ساعدت على انجاح الرحلات التعليمية أنّ هذه القوافل كانت تتوقف في جميع المدن الرئيسة التي تقع على خط سير الرحلة. ومن أمثلة ذلك رحلة الذهلي (258 هـ/ 872م) الذي ابتدأ من نيسابور وتوجه للدراسة في البصرة والحجاز، والجزيرة، ومصر، وسوريا، وعلّم فيما بعد في بغداد والبصرة ونيسابور[2].

ولم تكن الرحلة حكراً على أصحاب الحديث فقد «رحل علماء اللغة إلى البادية يقيدون اللغة والأدب... ورحل الأدباء إلى نواحي المملكة الإسلامية يأخذون عن أدبائها، ورحل طلاب الفلسفة إلى القسطنطينية وغيرها في طلب الكتب اليونانية للترجمة وكذلك الشأن في كل فرع من فروع العلم»[3].

وقد ساعد على تشجيع الرحلة ما كان يلقاه الطلبة من رعاية أثناء رحلاتهم بفضل التزام الناس بتعاليم الإسلام لجهة البر بأبناء السبيل، ورعاية المسافرين والعطف عليهم. كما وأنّ من تفرّغ للعبادة في الإسلام كان يجد أيضاً العناية والإعانة التامة على ذلك.

ويعبر ابن جبير عن هذا الواقع عندما يتطرق للحديث عن صلاح الدين الأيوبي، وعنايته بالغرباء من المتعلمين الذين كانوا يقصدون الإسكندرية طلباً للعلم فيقول: «ومن مناقب هذا البلد ومفاخره، العائدة في الحقيقة إلى سلطانه، المدارس والمحارس الموضوعة لأهل الطلب والتعبد يفرون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء ما يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 5/ 313 ـ 314.
(2) الخطيب البغدادي: م. ن، 3/ 415.
(3) أحمد أمين: ضحى الإسلام، 2/ 70.

مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم حتى يشيرون بها من علاج وغذاء»[1].

وحظيت الرحلة بثناء علماء المسلمين ومفكريهم الذين طالما حثوا عليها. وفي هذا يقول داود النبي ﷺ: «قل لصاحب العلم يتخذ عصاً من حديد ونعلين من حديد ويطلب العلم حتى تنكسر العصار وتنخرق النعلان»[2].

وعندما سئل أحمد بن حنبل أيرحل الرجل في طلب العلم أجاب قائلاً: «بلى والله لقد كان علقمة (62 هـ/ 681م) والأسود (75 هـ/ 694م). يبلغهما الحديث عن عمر ﷺ فيسمعانه منه»[3].

وفي تبيان مزايا هذه الطريقة وفضلها على العلم والتعلم يقول ابن خلدون «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً وتعليماً وإلقاء وتارة محاكاة وتلقيناً بالمباشرة. إلّا أن حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلّطة على المتعلم حتى لقد يظن بعضهم أنها جزء من العلم، ولا يرفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعود المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصل وتنهض قواه إلى الرسوخ والإستحكام في الملكات، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[4].

وقصارى القول: إن الرحلة كانت واحدة من طرائق التعليم التي تركت آثاراً طيبة على الصعيد الثقافي والعلمي في المجتمع الإسلامي، فقد كان العلماء

(1) ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، ص: 15.
(2) الدارمي: **سنن الدارمي**، 1/ 136.
(3) ابن الصلاح: **علوم الحديث**، 223.
(4) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: 541.

والطلاب يتنقلون بين البلدان لأحد ثلاثة أسباب: إمّا طلباً للمعرفة، وإمّا ضبطاً لها، وإمّا سعياً لنشرها. وفي كل هذا خير لأنه ترجمة عملية للنفير الذي دعا إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

ج ــ طرائق العرض والإلقاء:

وهي الطرائق التي تركز على دور المعلم حيث يقوم بعرض الموضوعات المختلفة على المتعلمين أو تلاوة المادة التدريسية بصورة مباشرة ومن أمثلتها:

1 ـ التلاوة (التلقين) والتكرار

تعتبر هذه الطريقة ركيزة التعليم الأولي الأساسي للصغار والكبار على حد سواء. ويبدو أنها سادت ـ في فترة من الفترات ـ لأنّ منهج التعليم بادىء الأمر كان يدور حول حفظ القرآن واستظهاره، وكان ذلك يعتمد على طريقة التلقين والتكرار، حيث كان التلاميذ يقومون بتقليد مُعلميهم والحفظ عنهم.

ولما كان على كل مسلم أن يحفظ شيئاً من القرآن الكريم يساعده على أداء ما فرض عليه من عبادات، فإن الرسول ﷺ كان يتلو: «الآيات كما أنزلت عليه من الوحي ويرددها بعده المسلمون حتى يحفظوها عن ظهر قلب. وطريقة التلاوة هي أمر من الله لرسوله»[2]. فلقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾[3]. وحتى تؤتي التلاوة ثمارها كان لا بد من الحفظ لما له من دور إيجابي في العملية التعليمية التعلمية. وفي هذه قيل: إنّ «أول العلم: الصمت. والثاني: الاستماع، والثالث: الحفظ، والرابع: العقل، والخامس: نشره»[4].

وبما أن الناس على مستويات متفاوتة من الفهم والإدراك فإنّ الرسول ﷺ

(1) سورة: التوبة، الآية: 122.
(2) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، 2/ 122.
(3) سورة: النمل، الآيتان، 91 ـ 92.
(4) ابن قتيبة الدينوري: م. س، 5/ 122.

استخدم التكرار ليساعدهم على الحفظ في كثير من المواقف التعليمية.

فعن الرسول ﷺ أنه قال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**»، ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**»، وجلس وكان متكئاً، فقال: «**ألا وقول الزور**»، قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[1]. وروي أيضاً أنه «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال ثم من؟ قال: «**أمك**»، ثم من قال: «**أبوك**»[2].

ولم يقتصر الحفظ والاستظهار على العلوم النقلية. بل تعدى ذلك إلى العلوم العقلية. وهو ما يمكن استخلاصه من قول ابن سينا: «وأكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب... ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق»[3].

ولقد أولى المسلمون الحفظ أهمية كبيرة في التعليم لإيمانهم بأنه أسلم لحفظ العلم من الضياع. ففي حال «استودع العلم في الكراريس فقد تفقد الكراريس أو تضيع، وعندئذ يضيع العلم أو ما تعلمونه»[4]. وهو عين ما حصل للإمام الغزالي عندما سلبه العيارون تعليقته إثر عودته من جرجان، فتوسل لمقدمهم أن يعيدها له لأنها لا تشتمل إلّا على الكتب التي هاجر لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها، عندها سخر منه مقدم العيارين قائلاً: كيف تَدَّعِي أنّك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليه المخلاة[5]. وكانت هذه الحادثة نقطة تحول في حياة الغزالي العلمية الذي علق قائلاً: إنّ «هذا مستنطق أنطقة الله ليرشدني به في أمري... فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت ما علقته، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي»[6].

---

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، 3/ 339.
(2) البخاري: م. ن، 8/ 2.
(3) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 2/ 3-4.
(4) أمينة أحمد حسن، **نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول**، ص: 240.
(5) السبكي: **طبقات الشافعية الكبرى**، 4/ 103.
(6) السبكي: م. ن، ص. ن.

والجدير بالذكر أنّ المسلمين في اعتمادهم طريقة التلقين كانوا يحذون حذو الرسول ﷺ الذي كان «يعلم الصحابة عشر آيات من القرآن الكريم، وبعد حفظها وفهم معانيها ينتقل إلى عشر آيات أخرى تعليماً وحفظاً». فعن ابن مسعود أنّه قال: «كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ والعمل بهنّ»[1]. واستمر المسلمون في اعتماد هذه الطريقة على الرغم من انتشار الكتابة فيما بعد. فكانوا لا يتردّدون في أن يكتبوا كل ما يسمعونه أو يحفظوا ما يكتبونه لينفعوا وينفعوا به. ومعلوم أنّ الانتفاع لا يتم إلّا بعد الفهم، والفهم يحتاج إلى شيء من الحفظ.

ويبدو أنّ أكثر الذين اشتغلوا بالعلم اعتماداً على الحفظ هم المحدثون واللغويون الذين لشدة اهتمامهم به اعتبروا درجة «الحافظ» أسمى درجات العالم بالحديث أو المشتغل باللغة. وبنظرهم أنّ «من بلغ الرتبة العليا من الحديث يسمى الحافظ»[2].

ويُروى أنّ الإمام البخاري عندما قدم بغداد أراد أصحاب الحديث أن يمتحنوه للوقوف على مدى حفظه ودرايته فعمدوا «إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوا إلى عشرة أنفس إلى كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم أن يلقوا ذلك على البخاري. فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري: لا أعرفه. فلما علم البخاري أنّهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا... حتى أتى على تمام العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه»[3].

وعلى الرغم مما يؤخذ على طريقة التلقين والحفظ إلّا أنها ـ بلا شك ـ كانت ذات أثر إيجابي على الصعيد التعليمي في المجتمع العربي الإسلامي، لأنّها جاءت منسجمة مع أهداف التعليم الإسلامي في الحفاظ على القرآن الكريم والسنّة

(1) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 1/ 35.
(2) السيوطي: المزهر في علوم اللغة، 2/ 312.
(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 2/ 20 ـ 21.

النبوية الشريفة، فليس غريباً على هذا المجتمع أن يعتمد هذه الطريقة التي كانت وليدة حاجات اجتماعية وثقافية ودينية، ومعلوم أنّ التربية عملية نابعة من حاجات المجتمع.

2 ـ المحاضرة

تعتبر هذه الطريقة من الطرق شائعة الاستعمال في جميع أنواع التعليم وخاصة في برامج محو الأمية وتعليم الكبار. وهي «في جوهرها عرض منظم للأفكار والمعلومات التي تتناول موضوعاً معيناً يقوم المحاضر بتقديمه لمجموعة من الذين يستمعون إليه ويتابعون أفكاره»[1].

وتبعاً لهذه الطريقة يقوم المحاضر بإعداد محاضرته وتدوينها نقطة نقطة «ثم يتكلم عن كل نقطة كلام أستاذ مُتمكن من مادته فيدوّن الطلبة ما يفهمونه من الآراء في مذكراتهم الخاصة. ولم يكن المحاضرون ممن يحفظون محاضراتهم. ويقولون ما لا يفهمون، بل كانوا يفهمون كل فكرة يذكرونها ويشرحونها بوضوح. ولو يكونوا ممن يعتمدون على ما في أيديهم من مذكرات، فإذا أخذت هذه المذكرات منهم وقفوا حَيَارى لا يستطيعون أن يذكروا شيئاً لطلابهم. فقد كانوا علماء حقاً، واسعي الإطلاع لا يحتاجون إلى النظر في كتب أو مذكرات في أثناء المحاضرات»[2].

ولا يخفى أنّ المسلمين الأوائل اعتمدوا على المحاضرة الشفهية اعتماداً كبيراً. وهو الأسلوب الذي اعتمده الرسول ﷺ في توضيح معالم الدين ونشر الإسلام[3].

وقد تطرق ابن خلدون لطريقة المحاضرة وشرحها، وكان له موقف من بعض الممارسات التي رافقت تنفيذ هذه الطريقة كانتقاده للاعتماد على المختصرات والمتون في العلوم، وتشجيعه للسهولة والإسهاب في تناول الموضوعات، ومناداته بالتدرج في العملية التعليمية مراعاة لطبيعة المادة التعليمية والفروق الفردية بين

---

(1) محمود رشدي خاطر: **طرق تعليم الكبار وإمداداته**، ص: 7.

(2) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 207 ـ 208.

(3) أكرم العمري: **«التعليم في عصر السيرة والراشدين»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 1/ 74.

المتعلمين. فرأى أنّ على المعلم أن يتدرج في تعليم تلميذه «شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً يلقي عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعي في ذلك قوة عقله أو استعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي إلى آخر الفن... ثم يرجع به إلى الفن ثانية، فيرفعه في التلقين من تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هناك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته ثم يرجع به وقد شدّ فلا يترك عويصاً ولا مهماً ولا مغلقاً إلّا وضّحه وفتح له مقفله، فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته. هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه»[1].

فالمحاضر حسب ما سبق كان يعتمد على الإلقاء والتكرار والتدرج ومراعاة الفروق الفردية، حتى يتمكن المتعلم من الحفظ والفهم وخاصة في حلقات الحديث.

ويرى أنصار هذه الطريقة أن الأفضلية لطريقتهم لعدة أسباب منها: قدرتها على تزويد المتعلم بكم كبير من المعلومات في وقت قصير نسبياً، إضافة إلى أنّ المحاضر الناجح بإمكانه أن يكون مصدر إلهام للمتعلمين وقدوة لهم في المثابرة على طلب العلم. غير أنّ ما يخشى منه هو أن تكون هذه الطريقة أحادية الرؤية في حال اعتمدت على خبرة المحاضر دون النظر إلى حاجات المتعلمين، إضافة إلى أنّها قد تكون سلبية وتبعث على الكسل والملل فيما لو لم يكن المحاضر بالمستوى المطلوب.

وقد تكون هذه المخاوف صحيحة في حال حافظت هذه الطريقة على السلبية، واقتصرت على الإلقاء ولم تتجاوز إلى السؤال، ومشاركة المتعلمين إيجاباً في العملية التعليمية. غير أنّ المدرس في الإسلام كان إذا فرغ من شرح مسألة على الطلبة سكت قليلاً ليفتح باب المناقشة، ولا بأس بطرح مسائل تتعلق بها عليهم ليمتحن فهمهم وضبطهم فمن فهم شكره ومن لم يفهم تلطف في الإعادة له[2]. والجدير بالذكر أن التركيز على مثل هذه الأنشطة التعليمية التعلمية يقرب هذه

(1) ابن خلدون: **المقدمة**، ص: 533.

(2) ابن جماعة: **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، ص: 53.

الطريقة من طريقة المناقشة، ولهذا ليس غريباً أن هناك من ينظر إلى الطريقتين كطريقة واحدة.

3 ـ الإملاء

تعتبر هذه الطريقة من أعرق طرق تعليم الكبار في الإسلام. وقد أكسبها تميزها في ضبطها للحروف والكلمات في الكتب قيمة تعليمية مَكّنتها من أن تتبوأ أعلى مراتب الرواية. وكان الرسول ﷺ أول من استعمل هذه الطريقة في التعليم حيث كان يملي كتبه على كتابه ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يقول: «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد أحفظه. وذكر الحديث وأنه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: «اكتب»[1].

وكان كل ما يمليه الرسول ﷺ على كتابه سواء كان وحياً أو حديثاً أو رسالة يقرأ عليه حتى يتأكد ﷺ من صحته وصوابيته. وهذا ما يستدل عليه من كلام أحد طلاب العلم عند أنس إذ يقول: «كنا إذا أتينا أنس بن مالك وكثرنا عليه أخرج إلينا مجالّ من كتب، فقال: هذه كتب سمعتها من رسول الله ﷺ وقرأناها عليه»[2].

وقد حذا المسلمون الأوائل حذو الرسول ﷺ فعقدوا مجالس الإملاء، ومنهم الصحابي واثلة بن الأسقع (83 هـ/ 702 م). فعن معروف الخياط (*) قال: «رأيت واثلة بن الأسقع يملي على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه»[3].

واستمرت مجالس الإملاء في الانعقاد، ومن أشهر الذين عرفوا بذلك: شعبة ابن الحجاج (160 هـ/ 776م)، ووكيع بن الجراح (197 هـ/ 812م)، وعاصم بن علي النعيمي (221 هـ/ 836 م)، وعمرو بن مرزوق الباهلي (224 هـ/ 904 م)، وجعفر بن محمد الفريابي (301 هـ/ 913 م)، وغيرهم.

ومع مرور الوقت تنوعت دروس الإملاء فمنها ما كان «يهدف إلى التوعية

---

(1) القاضي عياض: **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، ص: 146.
(2) الخطيب البغدادي: **تقييد العلم**، ص: 95.
(*) معروف بن عبدالله الخياط أبو الخطاب الدمشقي يقال إنه رأى أنس بن مالك.
(3) السمعاني: **أدب الإملاء والإستملاء**، ص: 13.

العامة بأمور الدين وأصوله وأحكامه، ومنها ما كان دروساً منظمة في علم من العلوم... وكان الشيخ يقوم بالإملاء بتؤدة وتأنٍ وبترتيب المسائل والأمور ويقوم الطلاب بتسجيل ما يملي عليهم... وقد يقوم الشيخ بتملية النص ثم يقوم بشرحه ويقوم الطلاب بتسجيل هذا الشرح على هامش النص. وعندما يكمل الشيخ أماليه كانت تعرض عليه أو يقوم الطلاب بقراءتها عليه لتصحيح ما قد يكون بها من أخطاء، ثم يُوَقِّع الشيخ على نسخة الطالب مجيزاً إياه على روايته وتدريس هذه الأمالي من بعده»[1].

وفي وصف طريقة إملاء اللغة يقول السيوطي (911 هـ/ 1505 م): «يكتب المستملي أول القائمة مجلس إملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا، ويذكر التاريخ ثم يورد المملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء، فيه غريب يحتاج إلى التفسير ثم يفسره ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره»[2].

وكان الشيخ يملي دون مساعد على تبليغ الكلام في حال كان الحضور قليلاً يستطيعون سماع صوته. ولكن مع تدفق الطلبة على الحلقات العلمية اتسعت المجالس، ولم يعد بمقدور الأستاذ أن يسمع صوته للجميع، فبرزت الحاجة إلى المستملي. وكانت الحلقات تصغر وتكبر حسب سمعة المدرس وشهرته العلمية. وغالباً ما كان طلاب حلقة الحديث أكبر عدداً من طلاب حلقة الفقه، فالقاضي أبو يعلى المحدث (458 هـ/ 1066 م) كان يحضر الناس مجلسه، وهو يملي حديث رسول الله ﷺ بعد صلاة الجمعة بجامع المنصور، وكان المبلغون عنه في حلقته والمستملون ثلاثة. وبسبب كثرة عدد الحضور كان الناس يسجدون في حلقة الإملاء على ظهور بعضهم «لكثرة الزحام في صلاة الجمعة في حلقة الإملاء، وما رأى الناس في زمانهم مجلساً للحديث اجتمع فيه ذلك الحجم الغفير والعدد الكثير»[3].

وفي بعض الحالات وصل عدد المستملين في الرواية إلى المئات. فلقد

---

(1) محمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، ص: 94.
(2) السيوطي: **المزهر في علوم اللغة**، 2/ 314.
(3) ابن أبي يعلى: **طبقات الحنابلة**، 2/ 200.

روي أن الفريابي لما وصل بغداد استقبله الناس، واتجهوا إلى «شارع المنار بباب الكوفة ليسمعوا منه فاجتمع الناس فحرز من حضر مجلسه لسماع الحديث فقيل: نحو ثلاثين ألفاً وكان المستملون ثلاثمائة وستة عشر»[1].

وكان المستملي أحياناً يصعد إلى مكان مرتفع سواء كان حائطاً أو شجرة حتى يسمع صوته للحضور. ويروى أن المعتصم (227 هـ/ 841 م) قد وجه من يحزر مجلس عاصم بن علي (221 هـ/ 836م) في رحبة النخل. وكان عاصم يجلس على سطح المسقطات. وكانت جموع غفيرة من الناس تنتشر في الرحبة وما يليها... فكان عاصم يحدث قائلاً: «حدثنا الليث بن سعد (175 هـ/ 791م) ويستعاد. فأعاد أربع عشرة مرة والناس لا يسمعون. وكان هارون المستملي يركب نخلة معوجة ويستملي عليها. فبلغ المعتصم كثرة الجمع فأمر بحزرهم، فوجهه بقطاعي الغنم فحزروا المجلس عشرين ألفاً ومائة ألف»[2].

وكانت هناك تقاليد يتبعها الشيخ لإنهاء الدرس كأن يقول: «هذا آخره أو ما بعده يأتي إن شاء الله تعالى»[3]. ثم يتبع ذلك بدعاء مختار من الأدعية النبوية المأثورة ويدعو لمن حضر المجلس مثلما كان يفعله عبد الله بن عمر ﷺ[4].

والحقيقة أن الأمالي التي كتبت في مجالس التدريس أثرت التراث الفكري الإسلامي فمنها «تكونت المخطوطات التي طبع كثير منها فأصبحت كتباً شهيرة. ومنها ما زال مخطوطاً حتى الآن. واتخذت هذه المخطوطات عناوين مختلفة حسب موضوعاتها واحتفظ بعضها بلفظ «الأمالي» عنواناً مثل أمالي القالي إسماعيل بن القاسم أبو علي (356 هـ/ 967م) وأمالي ابن الحاجب عثمان بن عمر أبو عمرو جمال الدين (646 هـ/ 1249م) وغيرهما ممن اشتهروا في هذا المجال[5]. غير أنّ هذه الطريقة تراجعت بسبب عدد من الظروف المحيطة فقد «كان الإملاء درس بعد ابن الصلاح (643 هـ/ 1245م) إلى أواخر أيام الحافظ أبي الفضل العراقي (806 هـ/

(1) السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص: 18.
(2) الذهبي: تذكرة الحفاظ، 1/ 359.
(3) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص: 44 ـ 45.
(4) السمعاني: أدب الإملاء والاستملاء، ص: 107.
(5) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص: 375.

1404م)، فافتتحه سنة ست وتسعين وسبعمائة»[1].

إلّا أنّ هذا لا يقلل من أهمية هذه الطريقة لأنها لعبت دوراً مميزاً على صعيد الحياة الثقافية والفكرية في المجتمع الإسلامي. غير أنّ الحاجة لها أخذت تتراجع مع تطور الحياة واتساع رقعة انتشار الكتب التي ترافقت مع ازدهار صناعة الورق في البلاد. وكان من الطبيعي أن يكون لهذه التبدلات تأثيرها على النشاط التعليمي وطرائقه. انطلاقاً من كون التربية عملية اجتماعية لا يمكن أن تعمل بمعزل عن البيئة والظروف المحيطة بها.

4 ـ القدوة

القدوة لغة: ما تسنّنت به واقتديت به. والقدوى ككسرى: الاستقامة، والقدو: الأصل تتشعب منه الفروع[2]. وطبقاً لهذا يكون الرسول ﷺ قدوة كل إنسان مسلم. فالله ﷻ «بعث رسوله ﷺ وزكّاه بالعلم ليكون أهلاً للقيادة الرشيدة والأسوة الحسنة، والمثل الكامل على طول الزمان»[3].

يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[4]. والقرآن الكريم يركز على مبدأ القدوة الحسنة الذي لا يخالف قوله فعله إذ يقول تعالى: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[5]. ويقول أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[6]. فعلى هذه الأسس التي دعا إليها الإسلام، شكلت شخصية الرسول ﷺ القدوة الحسنة التي تمثلت القرآن الكريم، وحوّلت مبادئه ومعانيه إلى تصرفات وسلوك ومعاملات وأفكار ومشاعر، فكان خلقه ﷺ القرآن.

---

(1) السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، 2/ 139.
(2) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، 4/ 376.
(3) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص: 136.
(4) سورة: النساء، الآية: 113.
(5) سورة: البقرة، الآية: 44.
(6) سورة: الصف، الآيتان، 2، 3.

ومن يستقرىء حياة الرسول ﷺ «يجد مطابقة تامة بين الرأي والعمل، بين الفكر والتطبيق. . . والرسول بذلك يبين لنا منهجاً تربوياً أساسياً وهو أن يتمثل المعلم دائماً ما يقول ويعلم وإلاّ فلا أثر لذلك»[1] لأنّ من يخالف قوله فعله ويمارس عكس ما يدعو إليه ليس أهلاً لأن يكون قدوة للناس. والأولى به أن يعلم نفسه ويؤدبها قبل أن ينبري ليعلم الناس ويؤدبهم «فالمعلم ليكون قدوة لا بد وأن يتمثل المنهج الذي يُعَلِّمه ويربي به حيث يربي على هديه، حتى لا يكون هناك تناقض بين قوله وعمله، وحتى يتخذه المتعلمون قدوة لهم، ويتأسوا به في كل حركاته وسكناته فضلاً عن أخلاقه ومنهجه، وإلّا فإن التربية تنقلب إلى تلقين وحفظ وتسميع دون أي أثر عملي لها»[2].

فالمنهج إذن «يظل حبراً على ورق ما لم يتحول إلى حقيقة تتحرك في واقع الأرض، وإلى بشر يترجم بسلوكه وتصرفاته ومشاعره وأفكاره مبادىء هذا المنهج ومعانيه. ولذلك فعندما أراد الله لمنهجه أن يسود الأرض، ملأ به قلب إنسان وعقله كي يُحوله إلى حقيقة في واقع الأرض. فكان أن بعث الله محمداً ﷺ ليكون قدوة للناس في تطبيق هذا المنهج»[3].

وهذا يعني أنّ التعليم لا يثمر ولا يستمر «إلا إذا كان له من يمثله بعمله، ويدعو إليه بأخلاقه، وفضائله ويعرفه إلى الناس بالقدوة والأسوة، فيقتدي الناس بدعائه عن طريق العمل بعد العلم معجبين بسجايا هؤلاء الرعاة مُعظمين لأخلاقهم مكرمين طهارة قلوبهم، وزكاء نفوسهم، ونظافة أخلاقهم، ورحابة عقولهم، وحصانة آرائهم، وسداد أفكارهم»[4].

ولهذا كان الاقتداء بالنبي من أهم طرق التعلم عند الصحابة الذين كانوا يتبعون الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله اتباعاً لا مثيل له. فعن إياس بن سلمة(*)، عن

---

(1) سعيد إسماعيل علي: **الأصول الإسلامية للتربية**، ص: 315.
(2) علي خليل أبو العنين: **فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم**، ص: 230.
(3) علي أحمد مدكور: **منهج التربية في التصور الإسلامي**، ص: 430.
(4) سعيد إسماعيل علي: م. س، ص: 314.
(*) إياس بن سلمة بن الأكوع الأسلمي، أبو سلمة ويقال أبو بكر، المدني ثقة تابعي من الثالثة مات سنة تسع عشر ومائة.

أبيه قال: «بعث النبي ﷺ عثمان بن عفان إلى مكة فأجاره أبان بن سعيد(*) وحمله على سرجه وردفه حتى قدم به مكة فقال: يا بن عم أراك متخشعاً أسبل إزارك كما يسبل قومك. قال: هكذا يأتزر صاحبنا إلى أنصاف ساقيه. قال يا ابن عم طفت بالبيت، قال: إنّا لا نصنع شيئاً حتى يصنع صاحبنا ونتبع أثره»[1].

واستطاع الرسول ﷺ أن يرسخ مبدأ الاقتداء عند الصحابة، ومن جاء بعدهم من التابعين والعلماء العاملين، الذين تخلقوا بأخلاق الرسول ﷺ حتى يكونوا القدوة الصالحة لتلاميذهم كي ينهجوا منهجهم، ويسيروا سيرهم، وهو ما كانوا يدعون إليه ويوصون به، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: «من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة النبي ﷺ وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدي المستقيم»[2].

فالمطلوب من المعلم في الإسلام أن يكون قدوة، سواء كان معلماً للكبار، أو للصغار. وهو ما تمسك به المسلمون في عصورهم المتعاقبة. فهذا عتبة بن أبي سفيان (44 هـ/ 664م) يكتب إلى مؤدب ولده يقول له: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيّ إصلاحك نفسك: فإنّ أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت»[3].

ولقد نوّه علماء المسلمين بشخصية المعلم في العملية التعليمية ودوره كقدوة يتأسى به. فالغزالي ـ مثلاً ـ يوصي المعلم أن «لا يكذب قوله فعله»[4] لأنّه في حال «خالف العمل العلم منع الرشد. وكل من تناول شيئاً وقال للناس: لا تتناولوه فإنّه سم مهلك، سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشد مثل

(*) أبان بن سعيد بن العاص الأموي، أبو الوليد، صحابي من ذوي الشرف، استشهد في وقفة أجنادين في خلافة أبي بكر، وقيل مات في خدمة عثمان.

(1) ابن سعد: الطبقات، 1/ 461.

(2) ابن عبد البر: جامع بيان العلم، 2/ 97.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين، 2/ 48.

(4) الغزالي: إحياء علوم الدين، 1/ 72.

النقش من الطيف والظل من العود فكيف ينقش الطين بما لا نقش فيه، ومتى استوى الظل والعود أعوج»[1]. ولقد نبه ﷺ إلى ذلك في قوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2]. ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل، إذ يزل بزلته عالم كثير يقتدون به. ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي ﷺ: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك، فالجاهل يغير الناس بتنسكه، والعالم يغيرهم بتهتكه، والله أعلم»[3].

وانطلاقاً من هذا الفهم لدور المعلم كان من الطبيعي أن يدعو علماء المسلمين للمشورة والتريث في اختيار المعلم ـ وهذا ما أكد عليه ونادى به الإمام أبو حنيفة الذي كان معجباً برأي ذلك الحكيم الذي أوصى تلميذه ـ عندما عزم الأخير بالذهاب إلى بخارى لطلب العلم ـ قائلاً له: «إذا ذهبت إلى بخارى فلا تعجل في الاختلاف إلى الأئمة وامكث شهرين حتى تتأمل وتختار أستاذاً... وشاور حتى لا تحتاج إلى تركه والإعراض عنه، فتثبت عنده حتى يكون تعلمك مباركاً وتنتفع بعلمك كثيراً»[4].

وتتجلى أهمية المعلم في كونه قدوة من خلال دوره فهو «مسؤول عن ذاته ومسؤول عن الجماعة التي ينتمي إليها أمام ذاته، أي أنها مسؤولية ذاتية، ومسؤولية أخلاقية، مسؤولية فيها من الأخلاقية ما في الواجب الملزم داخلياً، إلا أنه إلزام داخلي خاص بأفعال ذات طبيعة اجتماعية، أو يغلب عليها التأثير الاجتماعي»[5].

وهكذا كان على المعلم «الالتزام بالآداب الشرعية الظاهرة والخفية حتى يكون قدوة صالحة لمن يعلمه، وحتى يتحقق فيه قول الرسول ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه»[6] فيجعل الله تعالى أمام عينيه في كل أعماله في سره وعلانيته»[7].

---

(1) الغزالي: م. ن، ص. ن.
(2) سورة: البقرة، الآية: 44.
(3) الغزالي: م. س، ص. ن.
(4) الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم، ص: 74.
(5) سيد أحمد عثمان: المسؤولية الاجتماعية والشخصية المسلمة، ص: 43.
(6) البخاري: صحيح البخاري، 9/ 156.
(7) علي القره داغي: «القسم الدراسي»، في أيها الولد، ص: 72.

كل هذا يقود إلى القول: إن طريقة القدوة تقوم على اتباع سلوك سام، وهو ما جَسّده الرسول ﷺ قولاً وعملاً. فلقد كان ﷺ «قدوة للناس في واقع الأمر... يرونه... وهو بَشَر منهم تتمثل فيه هذه الصفات كلها، وهذه الطاقات فيصدقون هذه المبادىء الحية؛ لأنهم يرونها رُأى العين ولا يقرأونها في كتاب، ويرونها في بشر فتتحرك لها نفوسهم، وتهفو لها مشاعرهم، ويحاولون أن يقبسوا قبسات من الرسول كل بقدر ما يطيق أن يقبس»[1].

والرسول المربي بسلوكه قبل قوله حث على اعتماد هذه الطريقة في التعلم. وفي ذلك يقول لصحابته: «**ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم، وعلموهم ومروهم... وصلوا كما رأيتموني أصلي...**»[2]. فالقدوة كما يفهم من كلام الرسول ﷺ ضرورة من ضرورات التعلم. وبالنسبة للمسلمين تمثل شخصية الرسول ﷺ القدوة الدائمة المتجددة على مر العصور والأزمان.

5 ـ القصة

يعود أصل اشتقاق كلمة القصة إلى قصّ. ويقال: قصّ أثره قصّاً وقصيصاً تتبعه والخبر أعلمه: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾[3]. أي رجعا من الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[4]. نبين لك أحسن البيان. والقاص من يأتي بالقصة[5]. وجاء في لسان العرب القصة الخبر المقصوص بفتح القاف[6]. والقصص بالكسر جمع القصة التي تكتب[7].

وليس من المبالغة القول: «إن القصة كانت أول ما صحب الإنسان من تصورات عقله وصيد خواطره وطوارق أخلاقه وهواجس رؤاه. ولسنا بالمبالغين

(1) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 325.
(2) البخاري: صحيح البخاري، 9/ 156.
(3) سورة: الكهف، الآية: 64.
(4) سورة: يوسف، الآية 3.
(5) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، 2/ 313.
(6) ابن منظور: لسان العرب، 8/ 342.
(7) الرازي: مختار الصحاح، ص: 270.

أيضاً إذا قلنا: إنّ هذه التصورات، وتلك الخواطر، والطوارق، والهواجس كانت أقوى قوة دفعت الإنسان إلى تحريك لسانه وإلى إيقاظ ملكاته وإطلاق جميع القوى الكامنة فيه بحثاً عن الكلمات التي يضعها على شفتيه ليصور بها تلك الأهوال التي تضرب في أعماقه وتموج في مسارب تفكيره وتتراقص على مسرح خياله»[1].

والواقع: إنّ «سحر القصة قديم قدم البشرية وسيظل معها حياتها كلها على الأرض... لا يزول»[2] ولذلك «كانت القصة ـ وما تزال ـ مدخلاً طبيعياً يدخل منه أصحاب الرسالات والدعوات من الرسل والقادة والمصلحين إلى عقول الناس وقلوبهم ليلقوا فيها بما يريدونهم عليه من معتقدات وآراء واتجاهات»[3].

ولقد تضمن التراث الأدبي للعرب في الجاهلية كثيراً من القصص المحلي والمنقول، وكان هذا القصص يدور حول الجان والسحر «أمّا قصص القرآن فهي قصص عن حياة الأنبياء والرسل والأقوام السابقة على الإسلام، فقد أراد الله أن يفرق بينه وبين قصص العرب التي قام بعضها على الخيال، أو الكذب، أو التحريف، أو التعريب بالإضافات والتعديل»[4].

ولقد أشار ﷻ إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[5]. وقوله أيضاً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾[6].

ومثلما أنّ الفنون تؤثر في نفوس الكبار كما تؤثر في نفوس الصغار، فإنّ «القصة نوع من الأدب له جماله وفيه متعة ويشغف به الصغار والكبار إذا أجيد انشاؤه وأجيدت وساطته وأجيد تلقيه»[7]. غير أنّ القصة في القرآن الكريم «ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه، وإدارة حوادثه كما هو الشأن في

(1) عبد الكريم الخطيب: «مصادر القصص القرآن ومقاصده»، في مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، السنة 8، العدد 86، صفر 1392 هـ/ 1972، ص: 29.
(2) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 193.
(3) سعيد إسماعيل علي: الأصول الإسلامية للتربية، ص: 110.
(4) أمينة أحمد حسن: نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول، ص: 243.
(5) سورة: آل عمران، الآية: 62.
(6) سورة: يوسف، الآية: 3.
(7) عبد العزيز عبد المجيد: القصة في التربية، ص: 12.

القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد، إنّما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل»[1]. ومع ذلك فإنّ القصص القرآني يحفل «بكل أنواع التعبير الفني ومشخصاته من حوار إلى سرد إلى تنغيم إلى موسيقى إلى إحياء للشخص إلى دقة في رسم الملامح إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة في القصة»[2].

فالقصة في القرآن الكريم صورة من الصور الفنية والجمالية التي تسهم في تحقيق الأهداف التربوية الإسلامية، وفي طليعتها بناء الشخصية الإسلامية من خلال توصيل المعلومات، والحقائق بطريق شيقة لذيذة تساعدهم على اكتساب اتجاهات خلقية، وعقلية ودينية وسلوكية صحيحة من خلال العبر والمثل، التي تضعها أمامهم لتستثير ميولهم لتقليدها، ولتحرك قابلياتهم لاستهوائها.

ففي قصص القرآن تبرز «الأهداف التربوية واضحة ذلك أنّ شخصيات هذه القصص واقعية لكل عصر، وبالتالي فإن المربي الجيد هو الذي يمكنه أن يستغل هذه المواقف وتلك الشخصيات في تحقيق أهداف التربية الإسلامية. وليس موضوع القصة خاصاً بمادة معينة أو موضوع معين، بل إنها تصلح لكل المواد»[3].

وقد نجح الرسول في توظيف القصة لتحقيق أهدافه التعليمية والتربوية لأنه كان يدرك طبيعة الإنسان وميله الفطري لها. لذلك لم يتردد في استخدام أسلوب القص كطريقة من طرائق التعليم التي استفاد منها في مجالسه. ومن أمثلة ذلك قصة الثلاثة الأخوة الذين آووا للمبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار[4]. فالرسول ﷺ أراد من وراء هذه القصة أن يحدث عند سامعيه تغييراً في سلوكهم الاجتماعي، واتجاهاتهم الخلقية من خلال العبر التي تضمنتها القصة، نتيجة احترام الوالدين والتمسك بالعفة والطهارة وأداء الحق إلى أهله ومهابة الله وخشيته.

---

(1) سيد قطب: **التصوير الفني في القرآن**، ص: 119.
(2) سعيد إسماعيل علي: **أصول التربية الإسلامية**، ص: 36.
(3) علي خليل أبو العنين: **فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم**، ص: 236.
(4) انظر: البخاري: **صحيح البخاري**، 3/ 185.

وبعد وفاة الرسول ﷺ نما القصص بسرعة، وارتفع شأنه حتى أصبح عملاً رسمياً يعهد به إلى رسميين يعينون عليه أجراً «غير أنّ هذا القصص الذي أدخل على المسلمين كثيراً من أساطير الأمم الأخرى كاليهودية والنصرانية، كما كان باباً دخل منه على الحديث كذب كثير وأفسد التاريخ بما تسرب منه من حكاية وقائع وحوادث مزيفة أتعبت الناقد، وأضاعت معالم الحق»[1].

وبذلك انحرفت هذه الطريقة في التعليم عن المنتج القويم الذي وضعه القرآن الكريم، وطبقه النبي ﷺ فكان من الطبيعي أن يحذر علماء المسلمين من مخاطرها، ويعلنوا للناس أن القصص «بدعة وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا لم يكن ذلك زمن رسول الله ﷺ، ولا زمن أبي بكر، ولا عمر ﷺ حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص»[2].

ويحاول الغزالي أن يعيد الأمور إلى نصابها، فيذكر أصحاب هذه الطريقة بضرورة الالتزام بما جاء فيه القرآن الكريم أو ما نهج نهجه بعيداً عن الكذب، أو ما قد يؤدي إلى اللبس وسوء الفهم. وفي حال اجتناب هاتين الآفتين يمكن القول: «إن من القصص ما ينفع ساعة»[3]. ورغم ذلك فإنّ المخاوف من القصص ـ حتى ولو كان صادقاً ـ يجب أن لا تغيب عن البال لأنّ «منها ما يضر وإن كان صادقاً»[4]. غير أنّ الغزالي في نهاية المطاف يضع حلاً جذرياً للمشكلة يتمثل في الرجوع إلى «القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن الكريم، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار»[5].

فالخوف من التأثير السلبي للأسلوب القصصي على القلوب والنفوس لا بد وأن يوجب التنبه لاستعمال هذا الأسلوب، وتوظيفه بالوجهة التي لا تتعارض مع

(1) أحمد أمين: **فجر الإسلام**، ص: 160.
(2) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 46.
(3) الغزالي: م. ن، 1/ 47.
(4) الغزالي: م. ن، ص. ن.
(5) الغزالي: م. ن، ص. ن.

مصالح المسلمين، بحيث «تلتقي مطالب الفن ومطالب التصور الإيماني دون تعارض ولا نزاع. ويستفيد الإسلام بالقصة في التربية دون أن يخرج عن أهدافه الأصلية أو يجانب الحق أو يحول الفن إلى خطب وعظية سطحية التأثير»[1]. وهو ما يجب أن يسعى المربون المسلمون لتحقيقه حتى يتمكنوا من بلوغ أهدافهم التعليمية والتربوية.

(1) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/20.

الفصل الثالث

مؤسسات تعليم الكبار عند المسلمين

تمهيد

الكُتّاب

البيوت الخاصة

المساجد

القصور

دكاكين الوراقين

المكتبات

الربط والزوايا والخوانق

البيمارستانات

المدارس

الفصل الثالث

مؤسسات تعليم الكبار عند المسلمين

تمهيد

إنّ نظرة الإسلام المتميزة للإنسان والعلم، مكّنت الدعوة الإسلامية من أن تكون صاحبة الفضل الأكبر في انطلاقة حركة التعلّم والتعليم في المجتمع العربي. ولقد «أعاد الإسلام صياغة شخصية الإنسان ففجر طاقاته الإبداعية الكامنة من أجل العلم والعمل لبناء حضارة إنسانية متوازنة. وكانت نظرية المعرفة الإسلامية بشمولها وتكاملها واتساقها وسيلة لأحداث التغيير الجذري في كيان الإنسان وبنية المجتمع، تلك النظرية التي غرس القرآن بذرتها وعبّرت عنها «السنّة» في تاريخ فجر الإسلام»[1].

فالعلم والتعلّم من الواجبات المقدسة عند المسلمين، وهو فرض كفاية يحاسبون عليه في حال لم تقم طائفة منهم نيابة عن الباقين بهذا الواجب، «وإذا كان طلب العلم فريضة فإنّ تهيئة أسباب العلم والتعليم فريضة كذلك، لأنّ ما لا يتم الواجب إلّا به يكون واجباً. وقد حرص المسلمون في جميع عصور تاريخهم، ومختلف أقطارهم على القيام بهذا الواجب أفراداً وجماعات حُكاماً ومحكومين. والتاريخ شاهد على أنّ الاتفاق على العلم وتكريم العلماء وتشجيع المتعلمين والطلاب كان يتنافس فيه المسلمون ويتعاونون جميعاً»[2].

---

(1) أكرم ضياء العمري: «التعليم في عصر السيرة والراشدين»، في التربية العربية الإسلامية والمؤسسات والممارسات، 1/ 64.

(2) محمد الفيصل آل سعود: «القرآن الكريم أساس التربية الإسلامية»، في التعليم الإسلامي أهدافه ومقاصده، ص: 174.

وكان الرسول ﷺ رائد المسلمين وقدوتهم في تكريس هذا المنهج التربوي. فلقد أدرك النبي ﷺ من اللحظة الأولى إنّه إنّما بعث معلماً، والتعليم وظيفة من وظائفه الرئيسة لنشر الدين الإسلامي والدعوة له، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

وعلى ضوء تعاليم القرآن الكريم كانت «حياة الرسول ﷺ كلها إرشاد وهداية وتعليم، وخاصة ما كان من أقواله عليه الصلاة والسلام التي قصد بها التشريع والهداية. ولذلك كانت خصائصه وصفاته... مدرسة يتعلم فيها أصحابه طرازاً جديداً من الحياة، ومقياساً جديداً من المفاهيم كان له أكبر الأثر في قيام الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي ونشوء الفرد المسلم»[2].

والحقيقة أنّه «لم يكن للنبي ﷺ مدرسة مشيدة ولا معهد للتعليم يجلس فيه إلى أصحابه يحاضرهم، بل كانت مجالسه العلمية واسعة عامة شاملة كالغيث ينزل في كل مكان وينفع الخاص والعام، فهو في الجيش معلم وواعظ يلهب القلوب بوعظه ويحمس الجنود بقوله. وهو في السفر مرشد وهاد. وهو في البيت يعلم أهله. وهو في المسجد مدرس وخطيب وقاض ومفت ومرب. وهو في الطريق يستوقفه أضعف الناس يسأله عن أمر دينه فيقف. وهو على كل أحواله مرشد وناصح ومعلم»[3].

ولهذا يمكن القول: إن التربية الإسلامية «تربية متكاملة بمعنى أنها لا تقتصر على مكان دون مكان ولا على زمان دون زمان، بل هي تتم في كل زمان ومكان، في الصغر وفي الكبر في المسجد، وفي المدرسة، وفي الشارع، وفي الأسرة، وبين الأصدقاء. وكل إنسان في هذه التربية معلم طالما كان عنده ما يعلمه، فالكبير يعلم الصغير والصغير يعلم الكبير»[4]، لأن «الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها حيث وجدها»[5].

---

(1) سورة: البقرة، الآية: 129.
(2) مصطفى السباعي: عظماؤنا في التاريخ، ص: 70.
(3) محمد بن علوي: أصول التربية النبوية، ص: 9.
(4) عبد الغني عبود: دراسة مقارنة لتاريخ التربية، ص: 202.
(5) العجلوني: كشف الخفاء، 1/ 435 ـ 436.

ولقد كان لمثل هذه المفاهيم والمبادىء التي أوجدها الإسلام «أثر كبير في خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا أنّ الناس جميعاً من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأناً غدوا... طلاباً للعلم أو أنصاراً للأدب.

وفي عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جميع التلاميذ المتلهفين، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد هذه المصنفات التي هي أشبه شيء بدوائر المعارف. والتي كان لها أكبر الفضل في إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل»[1].

ولا شك أنّ إرساء الإسلام لمبدأ المساواة وتكافؤ الفرص في التعليم فتح أبواب المساجد والمعاهد الدراسية للجميع لمتابعة تحصيلهم العلمي «من غير تفرقة بين الغني والفقير، والرضيع والوضيع من المسلمين، إذ لا فضل في الإسلام لعربي على عجمي إلا بالتقوى والتعليم... بالمجان، والطلاب غير مقيدين بسن محددة، أو أشهر معدودة، أو شهادات خاصة، أو درجات معينة في الامتحانات، أو قواعد مسنونة لاختيارهم فمتى وجدت لدى المتعلم الرغبة في الدراسة ومحبة العلم، والشغف بالبحث والاطلاع، يسرت أمامه وسائل التعلم وشجع على طلب العلم»[2].

وكان لنجاح الرسول ﷺ في إرساء مبدأ «مجانية التعليم» إضافة لمبدأ «التعليم للجميع» بالغ الأثر على نفوس الصغار والكبار في طلب العلم وتحصيله ـ لما له من قدسية وارتباط بالعقيدة ـ ولقد شجع هذا بدوره على تعزيز مبدأ «التعليم المستمر» الذي دعا إليه الإسلام. وبدا ذلك واضحاً من خلال الاهتمام بتعليم الكبار. فالصحابة ﷺ كانوا يتعلمون في كبر سنهم، ولا يجدون حرجاً لأنهم وعوا أهمية العلم في الإسلام إلى جانب أنهم كانوا يجدون أبواب التعليم مفتوحة لهم على مصاريعها في كل وقت وكل مكان.

وهكذا فإنّ التعليم في الإسلام كان مُيسراً لكل راغب في طلب العلم قادر

(1) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام**، 2/ 322.
(2) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 26.

على الفهم؛ لأن العملية التعليمية «لم تشترط مؤهلات معينة أو شهادات خاصة، أو نسباً مئوية محددة، ولم تقيد بقيود من الفولاذ وشروط كلها تعقيد وتعجيز، ولم تضع عقبات في سبيل من يرغبون في طلب العلم»[1]. إلّا أنّ إسقاط التربية الإسلامية للبعدين الزماني والمكاني للتعليم ـ انسجاماً مع العقيدة الإسلامية ونظرتها للعلم والإنسان ـ لا يعني أنّ المجتمع الإسلامي لم يعرف المؤسسات التربوية بل على العكس من ذلك، فمنذ اللحظة الأولى لبزوغ فجر الإسلام، كانت دار الأرقم ابن أبي الأرقم بمثابة أول مؤسسة تربوية شهدها الإسلام. ومن ثم بدأت تظهر مؤسسات أخرى كانت نتاج «بيئة معينة نابعة من صميم حاجات المجتمع الإسلامي وتطوراته، مجيبة لهذه الحاجات، ومستجيبة لمتطلباته مصبوغة بالصبغة والروح الإسلامية، حيث امتدت واستنارت بتعاليم الإسلام وأغراضه، إنّها ليست بالدخيلة المستوردة وإنّما هي نتاج نمو وتطور في الحياة الإسلامية العامة، نشأت في أمكنة معينة وأزمان معينة وظروف معينة، وضمن أغراض، وأهداف معينة أملتها حاجات المجتمع الإسلامي النامية المتطورة»[2].

ومع التقدم الحضاري للمجتمع الإسلامي برزت الحاجة ماسة لتوفير عناصر وكوادر مدربة قادرة على إدارة شؤون الدولة وتسيير دفة الحكم، فكان الحل عن طريق اعتماد نظام المدرسة الذي أصبح ضرورة لا غنى عنها في مواجهة تحديات التقدم الحضاري والعلمي للمجتمع العربي الإسلامي. ولقد استوجب هذا التطور تدخلاً مباشراً من الدولة للإشراف على العملية التعليمية في بعض نواحيها، وبذلك أصبحت المدرسة مؤسسة رسمية من مؤسسات الدولة تسهم في تأمين القوى العاملة القادرة على تسيير العمل في مختلف إدارات الدولة.

وتجدر الإشارة إلى أنّه «قبل انتشار المدارس كانت حلقات التعليم لا تعقد في أمكنة من طراز واحد، بل تعقد في أمكنة مختلفة المشارب»[3]. ومن أشهر هذه الأمكنة «الكتاب، والمسجد، والمكتبة، وبيوت الحكمة، ودور العلم، وحوانيت الوراقين، ومجالس العلم، والمناظرة، ومنازل العلماء، ومجالس الفتوى،

(1) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 39.
(2) محمد منير سعيد الدين: **المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى**، ص: 10.
(3) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 43.

والبيمارستانات، والمراصد الفلكية ومعاهدها العلمية، والربط والزوايا والخوانق الصوفية، والعتبات الشيعية المقدسة وغيرها»[1].

والحقيقة أنّ هذه المؤسسات التعليمية «شأنها في ذلك شأن غيرها من مظاهر الحياة، لم تنشأ دفعة واحدة وإنّما مرت بأدوار عديدة وتطورات جمة، حتى نمت واكتملت واتخذت تلك الأوضاع التي صارت إليها في القرن الخامس الهجري وما تلاه من قرون»[2]. ولقد كان لهذه المؤسسات دور فاعل في تعزيز التربية المستمرة وتنشيط حركة تعليم الكبار عند المسلمين. وهو ما ستتطرق إليه البحث في محاولة لإلقاء الضوء على عدد من هذه المؤسسات ودورها في مجال التربية المستمرة وتعليم الكبار.

الكُتّاب:

صحيح أنّ الكتّاب هو المَوْقع الذي خُصّص ليتلقى فيه صبيان المسلمين التعليم الأساسي، ولكن ما هو صحيح أيضاً أنّه لم يكن حكراً على هذه الفئة العمرية من المتعلمين، لأنّ الإسلام أسقط حدود الزمان والمكان في العملية التعليمية. وفي حال كان هناك حدود أو قيود، فقد كان ذلك لدرء خطر أو دفع ضرر كان من المحتمل أن يقع. ففي الوقت الذي لم تكن فيه المدارس الكنسية عامة لجميع أفراد الشعب، بل اقتصرت على طبقة الكهنوت، كان الوضع مختلفاً بالنسبة للكتاتيب الإسلامية التي كانت «عامة لجميع أفراد الشعب، ولم يكن من الضروري وجودها بالمساجد، ولم يكن يعيش الصبيان فيها معيشة داخلية. ولم تكن صلة معلم الكتاب بالصبيان صلة الراهب بتلاميذه يقتحم شخصياتهم ليطبعها بطابع المسيحية. ذلك أن معلم الكتاب ملقن ومرشد، وليس واعظاً يسعى إلى بث آراء معينة. فهو يعلمهم القراءة والكتابة ويحفظهم القرآن الكريم، وهو الجزء الأساسي من تعليمه»[3] الذي يحتاج إليه كل مسلم ومسلمة ـ صغيراً كان أم كبيراً ذكراً كان أم أنثى ـ ليؤدي العبادة على الوجه الصحيح، ويتمكن من ترجمتها إلى

(1) محمد منير سعدالدين: المدرسة الإسلامية في العصور الوسطى، ص: 10.
(2) محمد عبدالرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، ص: 23.
(3) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص: 86.

سلوك عملي يشمل علاقته بربه، ونفسه، والناس والبيئة التي يعيش فيها والعالم الذي ينتمي إليه.

فليس غريباً إذن أن يكون «منهج التعليم في المدرسة المحمدية منهجاً عملياً ولم يكن مجرد كلام نظري... أو أفكاراً خالية... غير قابلة للتطبيق العملي»[1].

والرسول ﷺ عندما كان يتلو آيات القرآن الكريم على الناس، ويُعلّمهم الحِكْمة لم يكن في تلك الفترة مكان محدد للكُتّاب. فأينما سنحت الفرصة كانت تتم عملية التعليم، وحيثما وجد الرسول كان يقرىء أصحابه القرآن ويفقههم في الدين، كما وأنّه أوكل مهمة الإقراء والتعليم أيضاً إلى عدد من أصحابه وفي ذلك يقول: «**خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود فبدأ به، وسالم مولى أبو حذيفة (12 هـ/ 633م)، ومعاذ ابن جبل (18 هـ/ 639م)، وأبيّ بن كعب (21 هـ/ 642م)**»[2].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء بل كان هناك آخرون مثل أبي بكر الصديق وغيره من الصحابة ﷺ. فلقد كان عثمان بن أبي العاص (51 هـ/ 671م) يأتي رسول الله ﷺ ويسأله «عن الدين ويستقرئه القرآن، فقرأ سوراً من فيّ رسول الله ﷺ. وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر فسأله واستقرأه، وإلى أبيّ بن كعب فسأله واستقرأه»[3].

وإذا اعتبرنا أنّ الكُتّاب يرمز إلى المكان الذي كان يتم فيه التعليم الجماعي الأولي لأبناء المسلمين دون النظر لأعمارهم، فإنّه يمكن الوقوف على كثير من الأمثلة التي تُعَبّر عن مثل هذا النسق التعليمي الذي شهدته الساحة الإسلامية. ويروى عن أبي سعيد الخدري (74 هـ/ 693م) أنّه قال في أصحاب الصفّة: وجلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين، وإنّ بعضهم ليستتر ببعض من العرب. وقارىء يقرأ علينا، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا، فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارىء، فسلم ثم قال: «**ما كنتم تصنعون؟**» قلنا: يا رسول الله إنه قارىء

(1) عبد الغني عبود: دراسة مقارنة لتاريخ التربية، ص: 201.
(2) البخاري: صحيح البخاري، 5/ 118.
(3) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 5/ 508.

يقرأ علينا، فكنا نستمع إلى كتاب الله»[1]. ويقول الصحابي عبادة بن الصامت: «علّمت ناساً من أهل الصفّة الكتابة والقرآن»[2].

وتعبّر المعلومات التي وردت في حديث الواقدي (207 هـ/ 823م) عن غزوة بئر معونة تعبيراً حياً عن طبيعة هذا النوع من التعليم الذي لم يتقيد بقيود الزمان والمكان حيث يقول: «... وكان من الأنصار سبعون رجلاً شببة يسمون: القراء، كانوا إذا أمسوا أتوا ناحية من المدينة فتدارسوا وصلوا، حتى إذا كان وجاءه الصبح استعذبوا من الماء وحطبوا من الحطب فجاؤوا به إلى حُجَر الرسول ﷺ وكان أهلوهم يظنون أنّهم في المسجد، وكان أهل المسجد يظنون أنّهم في أهليهم. فبعثهم رسول الله ﷺ فخرجوا فأصيبوا في بئر معونة...»[3].

ومن أمكنة هذا النوع من التعليم أيضاً دار القراء التي نزل فيها عبد الله ابن أم مكتوم(*). يقول ابن شبة (262 هـ/ 876م): «أسلم ابن أم مكتوم بمكة قديماً، وكان ضرير البصر وقدم المدينة مهاجراً بعد بدر بيسير فنزل دار القراء»[4].

ولقد أوكل الرسول ﷺ للحكم بن سعيد بن العاص بن أمية (**) ـ الذي قتل يوم بدر في المدينة ـ الكتابة[5]. وبعد أن قويت دعائم الإسلام في المدينة توجه الرسول لقبائل العرب خارج المدينة ليعلمهم وينشر الإسلام بين صفوفهم. وأوفد من أجل هذا الهدف ما ينيف على الأربعين من الصحابة القراء إلى قبيلة بني عامر بنجد[6]. وأرسل كذلك قرابة العشرة لقبيلة لحيان بن هذيل[7]. غير أنّ كلا البعثتين لم توفقا لأنه كيد لهما وانتهتا بكارثة مفجعة.

وبعد انتشار الإسلام في عهد عمر بن الخطاب كان من الضروري تعليم

---

(1) أبو داود: **سنن أبي داود**، 4/ 72.

(2) محمد عبد الحي الكتاني: **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**، 1/ 48.

(3) الواقدي: **كتاب المغازي**، 1/ 346 ـ 347.

(*) عبدالله بن أم مكتوم الأعمى القرشي العامري اختلف في اسم أبيه، وكان قديم الإسلام وقتل شهيداً بالقادسية.

(4) ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، 4/ 205.

(**) الحكم بن سعيد بن العاص بن أمية الأموي، أبو خالد، سماه النبي ﷺ عبدالله.

(5) ابن حجر: **الإصابة**، 1/ 343.

(6) ابن هشام: **السيرة**، 2/ 183 ـ 186.

(7) المسعودي: **التنبية والإشراف**، 212.

الناس القراءة، والكتابة ليتمكنوا من دراسة كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم. فنشطت الحركة التعليمية بتشجيع من أمير المؤمنين. ويُروى أنّ ثلاثة معلمين «كانوا بالمدينة أيام عمر يعلمون الصبيان، وكان عمر يرزق كل واحد منهم خمسة عشر درهماً كل شهر»[1].

وسيراً على خطى النبي الكريم الذي بعث برسله إلى القبائل ليعلموها القرآن، أرسل عمر ﷺ رسله فيما بعد إلى بلاد الفتح ليعلموا أهلها القرآن وأمور دينهم ودنياهم[2].

ومن الروايات التي تروى عن عمر وتشجيعه لتعليم القرآن أنّه كتب إلى أحد عماله: «أن اعط الناس على تعلم القرآن»[3]. ولفظة الناس هنا لا تستثني أحداً من التعليم صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً كان أم أنثى. وكان ﷺ عنه شديد الحرص على تعليم الناس القرآن في الأمصار لأنهم كانوا حديثي العهد بالإسلام. وبحاجة إلى العلم الذي يمكنهم من معرفته ومعرفة أحكامه، حتى يؤدوا فرائضهم على الوجه الصحيح، وبالتالي حتى يقوموا بنشر الإسلام وتعليمه لغيرهم. فبعث عبد الله بن مسعود إلى حمص ومن ثم إلى الكوفة التي كتب إلى أهلها قائلاً: «... وجعلت عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وإني والله آثرتكم به على نفسي فخذوا منه»[4].

وولّى أيضاً أبو موسى الأشعري (44 هـ/ 665م) على البصرة الذي ما أن وصلها حتى خاطب الناس قائلاً: «بعثني إليكم عمر بن الخطاب أعلمكم كتاب ربكم وسنتكم»[5]. وكان يطوف على الناس في المسجد يقرئهم القرآن[6]. ولقد أرسل عمر ﷺ عشرة آخرين ليعاونوه في ذلك منهم عبد الله بن معقل المزني (57 هـ/ 677م)[7] وعمران بن حصين (52 هـ/ 172م)[8].

(1) عبد القادر بدران: تهذيب تاريخ ابن عساكر، 6/ 412.
(2) ابن حجر: م. س، 2/ 260.
(3) أبو عبيد: الأموال، ص: 327.
(4) ابن الأثير الجزري: أسد الغابة، 3/ 284.
(5) الدارمي: سنن الدارمي، 1/ 135.
(6) البلاذري: أنساب الأشراف، 1/ 110.
(7) ابن سعد: الطبقات الكبرى، 7/ 13 ـ 14.
(8) ابن سعد: م. ن، 4/ 287.

ولم يغفل عمر عن تعليم المجاهدين. فلقد أوفد أبا الدرداء ومعاذ بن جبل وعبادة بن الصامت ليعلموهم القرآن، ويفقهوهم في الدين، وأمرهم بأن يبدأوا بحمص وأوصاهم في حال كتب لهم النجاح في مهمتهم أن يتوجه واحد منهم إلى دمشق وآخر إلى فلسطين[1].

وعمد أبو الدرداء إلى تنظم المتعلمين في مجموعات حسب مستوياتهم التعليمية. وكان «إذا صلى الغداة في جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة وعلى كل عشرة عريفاً، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء. فسأله عن ذلك... وعن مسلم بن مشكم (*)، وقال لي أبو الدرداء ﷺ: اعدد من يقرأ عندي القرآن فعددتهم ألفاً وستمائة ونيفاً. وكان لكل عشرة منهم مقرىء، أبو الدرداء يكون عليهم قائماً وإذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبي الدرداء ﷺ»[2].

وهكذا فإن عمر لم يكتف بإيفاد المعلمين لإقراء الناس بالأمصار بل عين قراء لإقراء الجند في الكتاب. فكان هؤلاء القراء يطوفون على الجند ويقرئونهم القرآن خاصة قبل اللقاء مع العدو. وكانت سورة الأنفال تقرأ عادة في مثل هذه المناسبات تماماً مثلما حصل في معركة القادسية[3].

وعلى ضوء هذه الوقائع يمكن النظر إلى الكتّاب على اعتبار أنّه مكان للتعليم الجماعي الأولي دون تقييد ذلك بلفظة: «الصغار». وإذا كان لا بد من التمييز، فإنّه من الممكن القول: إنّ هناك نوعين من الكتاب، **الأول**: خاص بالكبار، **والثاني**: خاص بالصغار. ورغم هذا فقد كان الصغار في بعض الأحيان يلتحقون بكتاتيب تعليم الكبار، تماماً مثلما كان الكبار يلتحقون بكتاتيب تعليم الصغار عندما كانت تدعو الحاجة لذلك.

---

(1) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، 2/ 244؛ ابن سعد: م. س، 2/ 357.

(*) كان كاتب أبي الدرداء وروى عنه وعن معاوية.

(2) ابن الجزري: **غاية النهاية في طبقات القراء**، 1/ 606 ـ 607.

(3) ابن خلدون: **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، 2/ 928 ـ 929.

والحقيقة أنّ التعليم الجماعي الأولي ـ كما يبدو من سياق البحث ـ كان منتشراً خلال القرنن الأول الهجري، وقد كانت الكتاتيب موجودة على شكل زوايا بالمساجد أو غرف ملتصقة بها. ومع مرور الوقت ظهرت كتاتيب مستقلة عن المساجد ومنها الكتّاب الذي تحدث عنه الإمام الشافعي قائلاً: كنت في الكتاب... فلما ختمت القرآن دخلت المسجد[1].

ومن الكتاتيب المشهورة المستقلة التي وردت في كتب التراجم والتاريخ كتّاب أبي القاسم البلخي الذي كان يتعلم به قرابة ثلاثة آلاف تلميذ، وكان يطوف عليهم على حمار[2]. ويبدو أنّ الكتاتيب خلال القرن الثاني الهجري وما تلاه قد انتشرت انتشاراً واسعاً، حتى أنّ ابن حوقل يذكر بأنّه عدّ في مدينة واحدة ما يقارب ثلاثماية من معلميها[3].

ومع أنّ هذه الكتاتيب كانت مخصصة لتعليم الصبيان، إلا أنّها فتحت أبوابها لاستقبال جميع الفئات العمرية من أبناء المسلمين. ومن أمثلة ذلك ما يذكر أنّ عمر ابن الخطاب ﷺ لقي إعرابياً فقال له: هل تُحسن أن تقرأ القرآن؟ قال: نعم. قال: فاقرأ أم القرآن، قال: والله ما أحسن البنات فكيف الأم؟ فقال: فضربه ثم أسلمه إلى الكتاب فمكث فيه ثم هرب وأنشأ يقول[4]:

أتيت مهاجرين فعلموني ... ثلاثة أسطر متتابعات
كتاب الله في رق صحيح ... وآيات القرآن مفصلات
فخطوا لي أبا جاد وقالوا ... تَعَلَّم سعفصاً وقريشات
وما أنا والكتابة والتهجي ... وما حظ البنين من البنات

ويمكن أن يستدل من استياء علماء المسلمين من اختلاط الجواري والغلمان في الكتاب أنّ تعليم الكبار كان من الممارسات التي شهدتها الكتاتيب. فسحنون

(1) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله، 1/ 98.
(2) ياقوت: معجم الأدباء، 4/ 272.
(3) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، 1/ 126.
(4) الزبيدي: تاج العروس، 2/ 294.

(240 هـ/ 854م) عندما يقول: «أكره للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن مع الغلمان لأنّ ذلك فساد لهن»[1]، إنّما يدل على وجود مثل هذا النوع من التعليم، الذي يعاود القابسي الإشارة إليه من خلال تذكير المعلم بما يجب عليه القيام به، في حال وجود متعلمين من الفئة العمرية التي تجاوزت الحلم فيقول: «وإنّه ليبغي للمعلم أن يحترس الصبيان بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده يناهز الاحتلام، أو يكون له جرأة»[2].

ويفهم من كلام سحنون أيضاً: أن تعليم الكبار في الكتاب لم يكن مقتصراً على الذكور فقط، بل إن هناك ما يدل على وجود إناث تخطين سن الحلم كنّ يتلقين التعليم في الكتاب. ومن أمثلة ذلك ما روي عن الوليد بن عبد الملك (96 هـ/ 715م) عندما مرّ على معلم كتّاب فوجد عنده صبية، فقال له: ما تصنع هذه عندك؟ فقال: أعلمها الكتابة والقرآن فأشار عليه الخليفة بأن يجعل من يعلمها أصغر منها سناً»[3].

يستخلص مما سبق: أن الكتاب كان يستقبل جميع طالبي العلم من مختلف الفئات العمرية انسجاماً مع دعوة الإسلام لمحو الأمية بمستوياتها المختلفة وفي جميع مراحل العمر دون استثناء. فالإنسان في نظر الإسلام يبقى عالماً ما طلب العلم، ولذلك لم يكن عند المسلمين حرج في أن يتعلم أحدهم أنّى سنحت له الفرصة بذلك.

البيوت الخاصة:

كان للبيوت عند المسلمين نصيب كبير في دفع حركة التعليم بشكل عام وتعليم الكبار بشكل خاص إلى الأمام. ويُظهِر الدور التربوي لهذه البيوت بوضوح كيف أنها أسهمت في محو الأمية بمستوياتها المختلفة منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام، وحتى بعد انتشار المؤسسات المتخصصة للتعليم في منتصف القرن الخامس الهجري على يد الوزير نظام الملك.

---

(1) القابسي: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، ص: 315.
(2) القابسي: م. ن، ص: 366.
(3) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 5/ 161.

وكادت البيوت خلال الفترة المكية أن تكون بمثابة المكان الوحيد لتلقي العلم، وذلك بسبب تعذر الجهر بالدعوة، وعدم ملاءمة الظروف لنشرها في الأماكن العامة... ويأتي في طليعة تلك البيوت دار الأرقم بن أبي الأرقم التي تعتبر «أول «مؤسسة» تربوية شهدها الإسلام في مكة... قبل أن يجهر الرسول ﷺ بدعوته بعد نزول الوحي على قلبه وتكليفه بأعباء الرسالة ومسؤولياتها، وكان المعلم الأول فيها... هو الرسول الكريم نفسه»[1].

وإلى جانب دار الأرقم كان يتم التعليم في بيوت عدد آخر من المؤمنين الأوائل وفي مقدمهم بيت أبي بكر الصديق الذي كان الرسول ﷺ يتردد إليه يومياً. فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ لم يمر يوم إلا ويأتي منزل أبي بكر طرفي النهار بكرة وعشية، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره بمكة فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن[2].

ومن يرجع إلى إسلام عمر بن الخطاب ﷺ يجد كيف أن إسلامه كان في بيت أخته على يد صحابي - كان له شرف السبق إلى الإسلام - تطوع ليعلم شقيقة عمر وزوجها أمور الدين[3].

ولا يخفى أن الرسول ﷺ «قبل إنشاء المساجد... كان يجلس بمنزله بمكة والمدينة ويلتف حوله المسلمون ليعلمهم ويزكيهم»[4]. ولقد بقي الوضع على هذا الحال إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾[5]. ولقد كان نزول هذه الآية بعد إنشاء المساجد وجاءت لتضع حداً لإيذاء الرسول والإثقال عليه ومنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره[6].

وأسوة بالرسول ﷺ لم يجد صحابته ومن جاء بعدهم من العلماء حرجاً في

---

(1) عبد الغني عبود: دراسة مقارنة لتاريخ التربية، ص: 205.
(2) البخاري: صحيح البخاري، 1/ 205؛ انظر: البلاذري، أنساب الإشراف، 1/ 20.
(3) ابن الأثير الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، 4/ 54.
(4) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص: 68.
(5) سورة: الأحزاب، الآية: 53.
(6) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، 2/ 534، 535.

أن يستقبلوا الطلبة في منازلهم. فلقد فتحت أم الدرداء (81 هـ/ 700م) أبواب بيتها للطلبة والعلماء. ويروي أبو زرعة أنّ طالبي العلم «كانوا يجتمعون في بيت أم الدرداء يقرأ عليهم خليد بن سعد وكان رجلاً قارئاً»[1]. كما وأن النسوة كن يجالسنها ويتعبدن عندها. وذات يوم قال لها أحد جلسائها لقد «أمللناك فقالت أمللتموني: لقد طلبت العبادة في كل شيء فما أصبت شيئاً أشفى من مجالسة العلماء ومذاكرتهم، ثم احتبت، وأمرت رجلاً أن يقرأ فقرأ[2]: ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾[3].

ومن أشهر علماء المسلمين الذين جعلوا من بيوتهم أمكنة لتعليم الكبار الإمام مالك بن أنس الذي «ترك الجلوس في المسجد فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه»[4]. وفي حال أراد أن يحدّث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة ثم حدّث»[5].

وقد كان منزل أبي محمد الأعمش (148 هـ/ 765م) مركزاً من مراكز التعليم في الكوفة[6]. وكذلك فإنّ محمد بن الحسن الشيباني (189 هـ/ 804م) كان «إذا حدّث عن مالك امتلأ منزله وكثر الناس عليه حتى يضيق عليهم الموضع»[7].

ومن أشهر مجالس العلم في بغداد «مجلس المحاملي» الذي أسس عام (270 هـ/ 883م) في منزل أبي عبد الله الحسين بن اسماعيل الضبي المحاملي. وقد خصص هذا المجلس الذي استمر حتى وفاة المحاملي سنة 330 هـ/ 942م للمناقشات الشرعية والدينية[8].

وقد كان الفراء النحوي (207 هـ/ 822 ـ 823م) يعلم في بيته[9]. ومثل ذلك

(1) أبو زرعة: تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ص: 141.
(2) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، 27/ 176 ـ 177.
(3) سورة: القصص، الآية: 51.
(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 136.
(5) ابن خلكان: م. ن، 4/ 135.
(6) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 9/ 3 ـ 13.
(7) الخطيب البغدادي: م. ن، 2/ 173.
(8) الخطيب البغدادي: م. ن، 8/ 19 ـ 23.
(9) الخطيب البغدادي: م. ن، 14/ 153.

قيل عن أبي بكر السراج النحوي (316 هـ/ 929م) الذي جعل من بيته مركزاً من مراكز التعليم[1]، وكذلك الحال بالنسبة لمعظم علماء المسلمين الذين فتحوا أبوابهم لطالبي العلم من دونما نظر لأي اعتبار سوى الالتزام برسالة العلم والتعليم التي دعا إليها الإسلام.

وكان بيت الشيخ الرئيس ابن سينا من البيوت التي اكتسبت شهرة واسعة في مجال العلم وكان لها فضل كبير في دفع الحركة الفكرية والتعليمية إلى الأمام. وكان يتم التدريس في بيته بالليل لعدم الفراغ بالنهار بسبب الانشغال بخدمة الأمير[2].

وكذلك فإنّ بيت السجستاني (380 هـ/ 990م) اكتسب شهرة واسعة على الصعيدين العلمي والفكري، فقد كان يحضر مجلسه علماء كثر كل واحد منهم «إمام في شأنه وفرد في صناعته»[3].

ومن مجالس النظر التي كان لها أهمية في القرن الخامس الهجري في بغداد مجلس القاضي السماني (444 هـ/ 1052م) الذي كان يدعو إليه في منزله الخاص[4].

وتجدر الإشارة إلى أنّ التعليم في المنازل ـ حتى بعد ظهور المؤسسات التربوية ـ كان ذا جدوى علمية لا يستهان بها ذلك لأنه «أتاح الفرصة أمام الطلبة لدراسة علوم قد لا تدرس في المدارس كالرياضيات والفلسفة والمنطق وغيرها»[5]. غير أنّ التعليم في المساجد كان أيسر من التعليم في البيوت؛ لأنّ المساجد بيوت الله التي لا يجد المسلمون حرجاً في أن يقصدوها دون استئذان ليستفيدوا مما يعلم فيها.

المساجد:

في الحقيقة إنّ المسلمين لم يكونوا «يعتبرون المنازل مكاناً صالحاً للتعليم

(1) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، 5/ 319 ـ 320.
(2) ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، 3/ 8.
(3) أبو حيان التوحيدي: **المقابسات**، ص: 12.
(4) الخطيب البغدادي: م. س، 1/ 355.
(5) محمد منير سعد الدين: **دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين**، ص: 70.

لما قد يحسه الأهل من انزعاج، ولما يمكن أن يحسه الطلبة من حرج مما يعوق العملية التعليمية... لكن للضرورة أحكام»[1] لذا فالرسول ﷺ كان يحث دائماً على التعلم والتعليم في المساجد. فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: «**من جاء مسجدنا هذا ليتعلم خيراً أو يعلمه فهو كالمجاهد في سبيل الله. ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره**»[2]. لذا فليس غريباً أن يرى المسلمون أنّ «أفضل مواضع التدريس هو المسجد، لأن الجلوس للتدريس إنّما فائدته أن تظهر به سنّة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الله تعالى. والمسجد يحصل فيه هذا الغرض متوافراً لأنّه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم»[3]. والمقصود بذلك هو «تعليم الكبار من الطلاب تفسير القرآن ودراسة الحديث والفقه والشريعة الإسلامية مع مراعاة مبادىء التربية في الإسلام، وهو المساواة، وتكافؤ الفرص والحرية في تلقي العلوم واختيار مواد الدراسة، والأساتذة والتحرر من المؤثرات المالية»[4].

وعلى هذه القاعدة قامت المساجد والجوامع بوظيفتها كمؤسسات تعليمية منذ نشوئها إلى جانب وظيفتها الأساسية كأماكن للعبادة. فكان الرسول ﷺ وخلفاؤه يعلمون الناس في جامع المدينة أمور دينهم ودنياهم. وكان تميم الداري (40 هـ/ 660م) يقص في هذا المسجد في عهد عمر بن الخطاب ﷺ ويعظ الناس كل يوم جمعة، فلما استخلف عثمان استأذنه أن يقوم في النّاس مرتين فأذن له[5].

ولا شك في أنّ استخدام المسجد كمعهد للعلم أدى إلى «تلك الخاصية الهامة التي امتازت بها الحضارة الإسلامية وهي الحرية الفكرية، فقد ارتاد المساجد والمجالس العلمية الراغبون في العلم والعلماء المسلمون من جميع أنحاء الدول الإسلامية، وكان مُتاحاً في مجالسها لأي شخص من المستمعين أن يسأل العالم.

(1) المكي إقلانية: **النظم التعليمية عند المحدثين**، ص: 40.
(2) ابن ماجه: **سنن ابن ماجه**، 1/ 82 ـ 83.
(3) ابن الحاج العبدري: **المدخل**، 1/ 85.
(4) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 79.
(5) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، 2/ 447 ـ 448.

وفي حال عجزه عن الرد وإقناع السائل يفقد الثقة ويضطر إلى ترك حلقته إمّا لينتقل إلى مسجد آخر، أو ليعد نفسه عملياً من جديد»[1].

وكما يبدو فإنّ التعليم في المساجد كان حراً «حرية مطلقة ليس هناك قواعد لحضور الطلاب أو لانصرافهم. وليس الطالب مقيداً بالاستماع إلى أستاذ معين أو دراسة علم معين وليس الشيخ مقيداً بمنهج ثابت. فكان الطلاب يحضرون على الشيخ الذي يروقهم في حلقته، فإذا أحب طالب دروس شيخ لزمه وأخذ عنه حتى يتخرج على يديه ويجيزه للتدريس فيما بعد»[2].

وكان الرسول ﷺ يعلم أصحابه أصول الدين وقواعد الإسلام في المسجد كما في رواية أبي واقد الحارث بن عوف (85 هـ/ 704م) ﷺ قال: «بينما هو جالس في المسجد والنّاس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ. فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث: فأدبر ذاهباً. فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم: فأوى فأواه الله، وأما الآخر: فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر: فأعرض فأعرض الله عنه»**[3].

وفي الصدر الأول للإسلام «كان الصغار يجلسون مع الكبار في حلقات المساجد للتعلم. وممن تعلموا في المسجد علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس... ولما كان الأطفال لا يتحفظون من النجاسة قد أوصى كثيرون ألّا يكون التعليم في المسجد. وقيل: إنه لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأنّ النبي ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين؛ لأنّهم يسودون حيطانها ولا يحرزون من النجاسات... وللمحافظة على المساجد والجوامع جعلت لتعليم الكبار من الطلبة»[4].

يفهم من هذا: أنّ المساجد والجوامع كانت تشكل الأماكن الرئيسة لتعليم

(1) محمد منير سعد الدين: **دراسات في التربية الإسلامية**، ص: 39.
(2) أحمد فؤاد الأهواني: **التربية في الإسلام**، ص: 15.
(3) الترمذي: **سنن الترمذي**، 5/ 73.
(4) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 78.

الكبار. ويمكن القول: إنّ النشاط التعليمي التربوي الذي كان يسود المسجد النبوي والمسجد الحرام كان القدوة، والحافز لباقي المساجد داخل الجزيرة العربية وخارجها.

وليس غريباً أن تكتسب المساجد أهمية كبيرة في تاريخ الإسلام مما جعل منها مراكز للدعوة الإسلامية. ولمّا كان المسلم يحتاج إلى العلم والمعرفة حتى يقوم بما فرضه الله عليه، ولمّا كانت الدعوة إلى الإسلام بدورها تحتاج إلى العلم، كان من الطبيعي أن تكون المساجد أمكنة للتعلم والتعليم اقتداء بالرسول ﷺ الذي أورث علماً ولم يورث مالاً. وبذلك كانت للمساجد أدوار بارزة وجهود مميزة في مجال تعليم الكبار في الإسلام.

القصور:

إنّ الثقافة العربية الإسلامية التي وضع قواعدها الأولى الرسول الكريم ﷺ استمرت في ترسيخ مكوناتها الرئيسة ـ عبر العصور ـ على أيدي القوى الفاعلة في المجتمع العربي الإسلامي على الرغم من أنّ نتائجها لم تكن دائماً بمستوى الأهداف التي سعى لتحقيقها الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده.

وقد كانت التربية بطبيعة الحال مظهراً من مظاهر التعبير عن التحولات الثقافية في هذا المجتمع، الذي بات يؤمن بأهمية التعلم والتعليم على كافة المستويات وفي مختلف مراحل العمر. ومن هنا كان حرص ولاة أمر المسلمين على إحاطة أنفسهم وأبنائهم في مجالات العلوم الدينية والدنيوية على اختلاف أنواعها.

وتجلت هذه الأنشطة في العصر العباسي عندما تطورت الثقافة العربية الإسلامية تطوراً بات خطراً على الدين في بعض الأحيان. وأصبحت قصور الخلفاء تعج برجال الفكر والفن والعلم على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم. يقول الخطيب البغدادي: «لم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد. وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه إلى أعلى درجة. وكان فاضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار

والأشعار صحيح الذوق والتمييز مهيباً عند الخاصة والعامة»[1].

وكانت هذه الصالونات إحدى ثمرات التطور، الذي واكبه الخلفاء والأمراء الذين بدأوا يتدرجون في مظاهر الأبهة واتخاذ الحجاب، ولقد «بدأ بذلك معاوية بن أبي سفيان، وأعانه عليه أمراؤه في العراق ومصر، وعملوا مثل عمله وأشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم. واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمية. وزاد العباسيون الأبهة بمن قربوهم من الفرس. فأدخلوا في الدولة كثيراً مما كان عليه الأكاسرة في مجالسهم وسائر أحوالهم. فتعددت تلك المجالس وأصبحوا يجلسون مجلساً «للحكم وآخر للمنادمة، أو للمناظرة، أو للمذاكرة، أو غيرها ويختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيباً»[2].

وإذا كانت مجالس الخلفاء الراشدين التي كانت تعقد للتوجيه والإرشاد والإفتاء تتسم بالحرية والبساطة، واعتماد الشورى، والمساواة بين الناس على اختلاف المشارب، والمستويات والألوان، فإن ذلك لم يمنعها من أن تلتقي مع «الصالونات الأدبية» في رفع المستوى الثقافي عند رواد تلك المجالس وهذه الصالونات التي «وضحت فيها التقاليد والحضارات الأجنبية التي اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التي خضعت لسلطانهم فأصبح الصالون يؤثث أثاثاً رائعاً... ولم يكن الحاضرون أحراراً في اختيار الموعد الذي يحضرون فيه أو ينصرفون عنده وإنما كانوا يحضرون في موعد محدد، وينصرفون عند إشارة خاصة يشير بها الخليفة»[3]. مما يدل على أنّه كان لهذه «الصالونات» آدابها وتقاليدها التي كانت موضع احترام الجميع.

ولم تكن مجالس القصور هذه تقوم بالتعليم بالمعنى الضيق للكلمة، وإنّما كانت تعمل على «توسيع» أفق الحاضرين عن طريق الحوار والنقاش وتداول الأمور الثقافية بصورة عامة. ولما كان معظمها يعقد ليلاً بعد صلاة العشاء فقد سميت مجالس السمر. ومن الطبيعي أن يغلب على مجلس كل خليفة أو أمير الموضوع

(1) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 14/ 5.
(2) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، 5/ 150.
(3) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص: 72.

الذي يهتم به. فكان الغالب على مجلس معاوية الأخبار والتاريخ والسياسية. وعلى مجلسي عبد الملك بن مروان وهارون الرشيد... العربية والشعر والأدب. وعلى مجلس عمر بن عبد العزيز الحديث. وعلى مجلس المأمون... الكلام والفلك والهندسة. إلّا أنّ المادة العامة لهذه المجالس كانت الثقافة العربية الإسلامية بمجموعها بما تضم من موضوعات دينية ولغوية وأدبية وتاريخية وعلمية ورياضية كما دخلت الموسيقا والغناء هذه المجالس في القرن الثاني الهجري»[1].

والملاحظ أنّ المجالس في العصر الأموي كانت موضوعاتها تتجه إلى النواحي الأدبية. ويندر أن تحدث فيها مناقشات في موضوعات علمية أو فلسفية ذلك لأنّ «الأمويين لم يشجعوا... إلّا الحركة الأدبية والقصص الرسمي. ففتحوا أبوابهم للشعراء والخطباء وبذلوا لهم الأموال»[2].

ويروى: أنّ أعرابياً حضر قصر عبد الملك بن مروان، وتمكن من الإجابة عن أسئلة الخليفة، التي أراد من خلالها معرفة أفضل بيت قالته العرب في المدح والفخر والهجاء والغزل والتشبيه. وكان من نتيجة ذلك أن حصل الأعرابي على جائزتين، جائزته والجائزة التي منحها الخليفة لجرير، الذي منحها بدوره للأعرابي[3].

وفي العصر العباسي أخذت هذه المجالس مَنْحى علمياً ومن أشهر المناظرات التي شهدها قصر الرشيد تلك المناظرة اللغوية التي جرت بين سيبويه (180 هـ/ 796م) والكسائي (189 هـ/ 805م). والتي تعصب فيها الأمين للكسائي وكانت سبباً في خروج سيبويه من بغداد[4].

وفي عهد المأمون كثيراً ما شارك هو في الحوارات والمناظرات التي كانت

---

(1) ملكة أبيض: «مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري»، في التربية العربية الإسلامية، المؤسسات والممارسات، 1/ 159.

(2) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص: 164.

(3) الأصبهاني: الأغاني، 7/ 51 ـ 52.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 545.

تجري في قصره، ومنها تلك التي دارت بينه وبين علي بن موسى الرضى (203 هـ/ 818م) حول حقهم في موضوع الإمامة[1].

وشهد عهد المأمون كثيراً من المناظرات والحوارات التي عقدها المعتزلة ـ الذين انضم إليهم ـ مع خصومهم من الشيعة والملحدين من الدهرية والثانوية وغيرهم. ومن يرجع لكتاب «الانتصار والرد على ابن الراوندي» يجده زاخراً بأخبار المجالس والمناظرات التي كان النصر دائماً فيها حليف المعتزلة[2].

ومن أشهر مجالس القرن السابع الهجري مجلس الوزير بن العارض أبي عبد الله الحسن بن سعدان (375 هـ/ 985م) الذي كان مجلسه «بمثابة حلقة علمية ممتازة يتردد عليها كبار العلماء والفلاسفة»[3].

ويتحدث أبو حيان التوحيدي في كتابه «الأمتاع والمؤانسة» عما كان يدور في هذه المجالس وما كان يبحث فيها من موضوعات مختلفة لنواحي العلم المتعددة: من تفسير لآراء الفلاسفة والمتكلمين في صلة الشريعة بالفلسفة، وعن العلاقة القائمة بين الحس والعقل، ودراسة العقل، والجنون، وتحديد معاني الطبيعة والعقل والنفس والروح والحق والباطل. وتفاوت البشر في العادات والأخلاق ونسبية المعرفة الإنسانية... إلى غير ذلك من موضوعات فلسفية صرفة»[4].

ولا يخفى أن المنتديات الأدبية والمجالس العلمية والمناظرات بقيت ظاهرة من الظواهر العلمية والثقافية طيلة العصر العباسي. فكانت الأبحاث التاريخية تلقى كل مساء في بلاط الإخشيد (334 هـ/ 946م) «وكان الفاطميون يعتمدون مجالس ومنتديات علمية من وقت لآخر... وكان بين سلاطين الأيوبيين ووزرائهم سادة نجباء وأفذاذ من العلماء لهم قدم راسخة في العلم والأدب، من أمثال القاضي الفاضل (596 هـ/ 1200م) الوزير الشهير الذي كان يجتمع في مجلسه عليه القوم»[5].

---

(1) ابن قتيبة: عيون الأخبار، 4/ 140 وما بعدها.
(2) انظر: الخياط المعتزلي: الإنتصار والرد على ابن الروانذي.
(3) زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص: 113.
(4) حسن عبد العال: التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص: 199.
(5) محمد عطية الإبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، ص: 93.

ولقد ازدهرت هذه المجالس وصارت «عامة في الدولة التي خلفت الدولة العباسية أو تفرعت منها، وأكثر العقلاء والأقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة، كذلك فعل صلاح الدين الأيوبي وسيف الدولة الحمداني (356 هـ/ 967م) ونظام الملك (485 هـ/ 1092م)»[1] وغيرهم ممن اقتدى بهم أهل العلم والوجهاء والأطباء.

ولقد كانت هذه المجالس بحقّ مجالس لتعليم الكبار وتزويدهم بما يحتاجون إليه من معرفة تساعدهم على حل ما يعتريهم من قضايا أو مسائل سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي؛ لأنهم كانوا من ذوي الشأن الذين يتحملون مسؤوليات على مختلف الصعد الدينية والوظيفية والعلمية والإدارية وتسيير شؤون البلاد. فكان المشارك بهذه المجالس ـ سلباً أو إيجاباً ـ كمن يسعى إلى رفع كفايته أو محو أميته في جانب من جوانب المعرفة التي ترتبط ارتباطاً موضوعياً بقضايا المجتمع وحاجاته.

دكاكين الوراقين:

ظهرت هذه الدكاكين في مطلع العصر العباسي[2]. وكان الهدف منها تجارة الكتب. غير أنّ هذا لم يقلل من دورها لجهة نشر الثقافة وتعميم المعرفة. فالمسلمون الذين كرّسوا مبدأ التربية المستمرة في كافة شؤون حياتهم، استفادوا من هذه الأمكنة في إطار جهودهم التعليمية خاصة بين صفوف الكبار.

ومن العوامل التي ساعدت على تفعيل دور دكاكين الوراقين كوسيط تربوي أنّ أصحابها أو القيمين عليها لم يكونوا «مجرد تجار ينشدون الربح، وإنّما كانوا ـ في أغلب الأحيان ـ أدباء ذوي ثقافة، يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطلاع وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء. وهكذا فقد حفلت قائمة أسماء الوراقين بشخصيات لامعة»[3] من أمثال: ابن النديم (438 هـ/ 1047م)، وابن كوجك (394 هـ/ 1004م)، وياقوت الحموي (626 هـ/ 1229م)،

(1) جرجي زيدان: **التمدن الإسلامي**، 5/ 680.
(2) فيليب حتي ورفاقه: **تاريخ العرب**، 2/ 502.
(3) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 63.

وغيرهم من أفاضل الكتاب والأدباء.

وبما أنّ معظم باعة الكتب كانوا ممن لهم علاقة بشؤون القراءة والكتابة والتأليف، فقد نجحوا في أنّهم «جعلوا حوانيتهم لا مخازن كتب وحسب، بل مراكز للأبحاث الراقية»[1].

ولقد كان من عادة الإمام أبي الفرج الأصفهاني (356 هـ/ 967م) أن يتردد إلى هذه الدكاكين ويدلي برأيه في الجلسات التي كانت تعقد بحضوره وحضور غيره من علماء المسلمين. ومن أمثلة ذلك ما حصل بينه وبين أبي الحسن البقال(*). الذي صوّب له أبو الفرج خطأه في فهم أحد الأبيات الشعرية التي طالما رددها[2].

وكان سوق الوراقين القريب من البصرة بمثابة مركز للثقافة العربية يتبادل فيه العلماء آراءهم «لذلك لا عجب إذا ظهر عام (391 هـ/ 1000م) «كتاب تبادل الآراء» وهو يشتمل مائة حديث وستة جرت في بيت فيلسوف حيناً وفي سوق الوراقين أحياناً. وفي ذلك ظهر فهرس ابن النديم وهو من أشهر تجار الكتب كما كان من كبار العلماء»[3].

ولقد ظهرت بمصر ودمشق أسواق حظيت بشهرة واسعة، وكان موضع سوق مصر باتجاه الجانب الشرقي من جامع عمرو بن العاص في أول زقاق القناديل[4].

ولا يزال هذا السوق مقصداً لأهل العلم وملتقى لهم. أمّا سوق دمشق فقد كان أيضاً يزخر بالكتب يدل على ذلك الحريق الذي شب فيه سنة (681 هـ/ 1282م) حيث أحرق لشخص واحد أكثر من خمسة عشر ألف مجلدة سوى الكراريس[5].

---

(1) فيليب حتي ورفاقه: **تاريخ العرب**، 2/ 502.

(*) علي بن يوسف البقال، يعرف بابن البقال ويكنى أبا الحسن وكان ابن العميد يقدمه على الناس كلهم.

(2) ياقوت: **معجم الأدباء**، 5/ 157 ـ 158.

(3) سيجريد هونكة: **فضل العرب على أوروبا**، ص: 295.

(4) المقريزي: **الخطط**، 2/ 102.

(5) أحمد بدوي: **الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية**، ص: 86.

وهكذا فإنّ دكاكين الوراقين قد ازدهرت «وانتشرت... بسرعة انتشاراً ملحوظاً... وحفلت كل مدينة بكل محلة بعدد وافر منها، وبالتالي بعدد من العلماء القيمين عليها والوافدين إليها من علماء وطلاب»[1]. ولقد اعترف للدكاكين بفضلها العلمي وللمسلمين بالريادة في هذه الصنعة التي أسهمت في جعل المجتمع الإسلامي مجتمعاً متعلماً.

ولما كان التعليم ظاهرة عامة في المجتمع الإسلامي ولما «لم تكن الثقافة العلمية والأدبية والدينية مقصورة على الأساتذة والطلاب وأصحاب المكتبات، بل كانت عامة بين المسلمين فقد انتقل النشاط العلمي والأدبي والثقافي من حوانيت بائعي الكتب إلى حوانيت البيع والشراء»[2]. فلقد كان يعقد مجلس للعلم في دكان أبي هاشم بن سلامة (403 هـ/ 1011م) في السوق العتيق ببغداد في النهار، وكان المعلم يتابع إلقاء دروسه في الجامع «بالعشي... من المغرب إلى العشاء الآخرة»[3].

وكان الإمام أحمد بن حنبل (240 هـ/ 856م) لا يتردد في أن يعلم أو يروي الأحاديث في هذه الدكاكين[4]. ويُروى «أن رجلاً رحل في طلب العلم إلى بغداد فقرأ ما شاء الله، ثم أراد الانصراف إلى وطنه، فاكترى دابة يركبها ليخرج من البلدة، ولكنه وقف ليشتري صاحب الدابة بعض حاجاته، فسمع الطالب نقاشاً علمياً يدور بين اثنين من أصحاب الحوانيت المتجاورة، فطلب الطالب من صاحب الدابة إعادته إلى بغداد قائلاً: إن بلداً باعته هذه المنزلة من العلم لا ينبغي أن يرحل عنه»[5].

ويقول السبكي (771 هـ/ 1370م): إنّ الفقيه أبا بكر الصبغي (344 هـ/ 955م) الذي كان يبيع الصبغ في دكانه «كان حانوته مجمع الحفاظ والمحدثين في

(1) محمد منير سعد الدين: دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين، ص: 77.
(2) محمد عطية الإبراشي: التربية الإسلامية وفلاسفتها، ص: 105.
(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 11/ 137.
(4) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 2/ 39.
(5) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، ص: 66.

مربعة الكرمانيين على باب خان مكي وكنا نقرأ... على باب حانوته»[1].

يستخلص مما سبق «أنّ الحياة الثقافية ـ عند المسلمين ـ كانت وثيقة الصلة بالشعب فلم تكن المعرفة حكراً على طائفة دون أخرى، بل كادت تكون أمراً شائعاً في طبقات الشعب جميعها»[2]. ولقد دفعت هذه الحالة حركة التعليم إلى الأمام، وجعلت من حوانيت الوراقين وغيرها من الحوانيت أمكنة لتعليم الكبار، شأنها شأن غيرها من المراكز الثقافية التي لعبت دوراً بارزاً على صعيد التعليم الجماهيري في مجتمع طالما تطلع لأن يكون مجتمعاً معلّماً متعلّماً، وفق ما أراد له الرسول الكريم منذ اللحظة الأولى لبزوغ فجر الإسلام.

المكتبات:

لقد أعطى القرآن الكريم للقراءة والكتابة قيمة عظيمة، وتجلى ذلك بوضوح في قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾[3]. وفي موضع آخر يعاود القرآن الكريم تأكيده على أهمية العلم بشكل عام، وتعليم الكتابة بشكل خاص، عندما يأمر الناس بأن يكتبوا الدّين بأجله منعاً للمنازعة. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾[4] وينبه الله تعالى الأطراف أن لا يملّوا كتابة الدّين الذي تداينوا به مهما كان صغيراً أو كبيراً، لقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾.

ولتشجيع الناس على التعليم مدح القرآن الكريم المتعلمين وعظّم مكانتهم. ومما جاء في ذلك التمييز بين من يعلمون ومن لا يعلمون. يقول تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]. ويقول أيضاً: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ

(1) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، 2/ 168.
(2) سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، ص: 486.
(3) سورة: العلق، الآيات: 1 ـ 5.
(4) سورة: البقرة، الآية: 282.
(5) سورة: الزمر، الآية: 9.

﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1]. ويقول الرسول ﷺ: «اغد عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، أو محباً، ولا تكن الخامسة فتهلك»[2].

فكان من أزكى ثمار هذه البذرة التي زرعها الإسلام ورعاها الرسول ﷺ، أن تعلقت أفئدة المسلمين بالنبي ﷺ، ليتعلموا على يديه. وكان أول كتاب عكفوا على تلاوته وتدارسه كتاب الله تعالى، الذي ملك عليهم أفئدتهم ومشاعرهم، وأنساهم المال والأهل والولد ولازمهم في حلهم وترحالهم وقيامهم وقعودهم.

والعرب الذين أحبوا الكلمة الطيبة، وكانت تسحرهم البلاغة والفصاحة عندما «تحضروا واستقروا في البلاد المفتوحة استمروا على تأثرهم بالبلاغة والفصاحة، وأضيف إلى ذلك حب الكتب واحترامها. لقد أحضروا معهم من شبه جزيرتهم كتابهم المقدس القرآن الكريم الذي تمركز حوله عدد كبير جداً من الدراسات. ولكنّهم وجدوا في البلاد الأخرى كتباً كثيرة، فلم يدعهم حبهم واحترامهم لكتابهم العزيز إلى احتقار وإتلاف الكتب الأخرى، بل العكس اهتموا بها ونموها وطوّروها وحفظوها، وبنوا لها أماكن لإيوائها هي ما كانوا يسمونها خزائن الكتب وهي ما تعرف الآن بالمكتبات»[3].

ومن أشهر الذين أحبوا الكتب وأطنبوا في مدحها وتبيان فضائلها والدفاع عنها الجاحظ في كتابه الحيوان. ومما يقوله عنها: «والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك، والصديق الذي لا يغريك والرفيق الذي لا يملّك والمستميح الذي لا يَشتريك، والجار الذي لا يستطيبك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب»[4].

والحقيقة أنّ «إحدى ميزات الحضارة الإسلامية الرئيسة هي حبها للكتب ونشرها المعرفة عن طريق الكتب، واحتضانها المكتبات، وتعميمها، وجعلها في متناول جميع أفراد الشعب دون اعتبار للعمر، أو الجنس، أو الدين، أو اللون، أو الثقافة. لم يبز شعب من شعوب الأرض كلها المسلمين في حبهم للكتب وفي

(1) سورة: المجادلة، الآية: 11.
(2) الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، 1/ 122.
(3) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص: 8 ـ 9.
(4) الجاحظ: الحيوان، 1/ 50 ـ 51.

حدبهم عليها، ترى أحدهم وتسمعه يناجي كتابه وكأنّه يناجي ولده الوحيد أو أليفه الحبيب»[1].

فهذا ياقوت يصف أحدهم عندما حطّ به الزمان، وعزم على بيع كتبه فيقول «رأيته يخرجها ويبيعها، وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبابه الأوداء فقلت له: هوّن عليك أدام الله أيامك، فإنّ الدهر ذو دول وقد يسعف الزمان ويساعد وترجع دولة العز فتستخلف ما هو أحسن منها فقال: حسبك يا بني هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقتها في تحصيلها وهب أنّ المال يتيسر والأجل يتأخر وهيهات فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلّا على الفراق الذي ليس بعده تلاق»[2].

ومن الوزراء الذين أغرموا بالكتب جمال الدين القفطي (624 هـ/ 1227م) فقد «جمع من الكتب ما لا يوصف... وكان لا يحب من الدنيا سواها، ولم يكن له دار ولا زوجة، وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب (659 هـ/ 1261 م) وكانت تساوي خمسين ألف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب»[3].

وبفضل حب المسلمين للعلم وتقديرهم للكتب نشأت المكتبات في المجتمع الإسلامي، وازدهرت بشكل لافت وسريع بما يتفق مع توجهات المسلمين الدينية، علماً أنّ هذه المكتبات كانت معروفة قبل الفتح. ولقد استفيد من كتبها في إثراء المكتبة الإسلامية. ففي العصر الأموي عني خالد بن يزيد بن معاوية (90 هـ/ 708م) «بإخراج كتب القدماء في الصنعة... وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء»[4]. وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز (61 ـ 101 هـ/ 681 ـ 720م) الذي عمد إلى ترجمة ما رآه مناسباً من كتب الطب التي وجدها في الخزائن التي كانت تحت يده[5].

(1) محمد ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام**، ص: 9.
(2) ياقوت: **معجم الأدباء**، 3/ 216.
(3) محمد شاكر الكتبي: **فوات الوفيات**، 3/ 118.
(4) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 680.
(5) ابن جلجل: **طبقات الأطباء والحكماء**، ص: 61.

ولم تكن المكتبات الإسلامية وليدة الصدفة، وإنّما كانت «وليدة الحاجات المحلية للمجتمع الإسلامي التي أحس بها المسلمون بعد أن استوطنوا البلاد المحررة، وبعد أن انتشر العلم والتعلم والتعليم في طول البلاد الإسلامية وعرضها. والواقع أن النهضة العلمية التي بدأها الإسلام وتبناها المسلمون كانت سبباً من الأسباب الهامة التي دفعت المسلمين للاهتمام بالكتاب والمكتبة. فالكتب كانت مثار اهتمام المسلمين واحترامهم لطالما هي أوعية للمعرفة، ومصدر الاهتمام بها نابع من حض الإسلام على العلم والتعلم»[1].

ومع اتساع أفق المسلمين العقلي وتقدمهم الحضاري، وتنوع اهتماماتهم تبعاً لمتطلبات حياتهم بمختلف الاتجاهات «زاد بنفس النسبة عدد المكتبات، وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الأغراض التي تأسست المكتبات من أجلها»[2]. ولذلك لم يكن غريباً أن يوجد في العالم الإسلامي جميع أنواع المكتبات التي يمكن تصنيفها تبعاً لروادها إلى ثلاثة أنواع:

1 ـ المكتبات العامة:

وهي المكتبات التي كانت تفتح أبوابها لكافة طّالبي العلم من دونما تفرقة أو تمييز. ولقد «أنشئت هذه المكتبات بالمساجد لتكون في متناول الدارسين فيها والوافدين إليها. كما أنشئت أحياناً لتكون نواة لمعهد يستقبل الطلاب فيجدون فيه العلم والمعرفة، ثم أنشئت متصلة بالمدارس عندما بدأت هذه بالظهور والانتشار»[3].

وبالنسبة لمكتبات المساجد يمكن القول: إنّ انتشارها كان واسعاً وسريعاً، لأنها ارتبطت بالمساجد التي كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها. وقد كانت المساجد بادىء الأمر «تستخدم كمستودعات للكتب وأصبحت خزائنها غنية بالكتب لا سيما الدينية التي كان الناس يهبونها لها أو يقفونها فيها على القراء»[4].

---

(1) محمد منير سعد الدين: **دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين**، ص: 91.
(2) محمد ماهر حمادة: **المكتبات في الإسلام**، ص: 82.
(3) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 181.
(4) فيليب حتي ورفاقه: **تاريخ العرب**، 2/ 501.

ومن جملة الذين وقفوا كتبهم علي بن طاهر السلبي (500 هـ/ 1107م) الذي «كان ثقة وكانت له حلقة في الجامع وقف فيها خزانة فيها كتبه»[1]. ويذكر ابن عبد ربه (328 هـ/ 940م) أنّ في المسجد الأقصى «من المصاحف الجامعة سبعون مصحفاً، وفيه من الكبار التي في الورقة منها جلد ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها»[2]. ولقد وقف الخطيب البغدادي كتبه على المسلمين وسلمها قبل مماته لأحد أصدقائه[3].

وإذا كان وقف الكتب ابتداء اقتصر على المصاحف إلّا أنّه كان فاتحة لإنشاء المكتبات العامة الغنية بمختلف أنواع الكتب فيما بعد. ومن أشهر مكتبات المساجد خزانة كتب الوقف بمسجد الزيدي أبو الحسن علي بن أحمد المتوفى ببغداد سنة (575 هـ/ 1179م) الذي «اشترى... داراً بدرب دينار الصغير وبناها مسجداً واشترى بباقي الذهب كتباً ووقفها في المسجد ينتفع الناس بها»[4].

أما المكتبات التي كانت بمثابة معاهد فقد لعبت دوراً كبيراً في نشر الثقافة من خلال تيسير قراءة الكتب لطالبي العلم. ومن أشهر هذه المكتبات بيت الحكمة التي يمكن القول: إنّ بداياتها تعود لخلافة أبي جعفر المنصور (158 هـ/ 774م) الذي أمر بترجمة العديد من كتب الطب والنجوم والهندسة إضافة إلى كتب الحديث والأدب والتاريخ التي ألفت له. فلقد طلب المنصور من ملك الروم «أن يبعث إليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب أوقليدس وبعض كتب الطبقات. وقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها»[5].

وإذا كان المهدي (169 هـ/ 785م) الذي أوصي له بهذه الخزانة قد أهملها فإن هارون الرشيد (193 هـ/ 809م) أولاها بالغ الأهمية وأضاف لها الشيء الكثير. ولكن الازدهار الحقيقي لهذه الخزانة كان في عهد المأمون (218 هـ/ 833م) الذي اهتم بعلوم الحكمة، وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية مما أدى إلى توسيع بيت

(1) ياقوت: معجم الأدباء، 5/ 225.
(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد، 7/ 255.
(3) ياقوت: م. س، 1/ 252.
(4) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، القسم الأول من الجزء الثامن، ص: 356 ـ 357.
(5) حاجي خليفة: كشف الظنون، 1/ 679.

الحكمة وازدياد عدد كتبه بما أضيف إليه من الكتب التي يؤتى بها من آسيا الصغرى والقسطنطينية وجزيرة قبرص، وما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهم من كتب يعهد بها إلى أجل العلماء وأفصحهم[1].

وهناك من يرى أنّ هذه المكتبة أنشئت استجابة لنصيحة يوحنا بن ماسويه (243 هـ/ 857م) لهارون الرشيد بأن ينشىء داراً كبيرة للكتب، وهي تلك الدار التي اتسعت واشتهرت لاحقاً وأصبحت تعرف بدار الحكمة[2].

ويرى آخرون أنّ «أول مكتبة عامة هي مكتبة دار الحكمة التي أنشأها المأمون في بغداد وجمع لها الكتب اليونانية من الإمبراطورية البيزنطية، وترجمت إلى العربية، وكانت المكتبة تحوي كل العلوم التي اشتغل بها العرب... وقد ظلت إلى مجيء التتار سنة 656 هـ/ 1258م»[3].

غير أنّ ابن النديم في ترجمته لعلاّن الشعوبي يقول بأنّ: «أصله من الفرس وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمناظرات منقطعاً إلى البرامكة، وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة»[4]. مما عزز الرأي القائل بأنّ هارون الرشيد هو مؤسس هذه المكتبة التي ذاع صيتها في طول البلاد وعرضها.

ولم تقتصر مهمة خزانة الحكمة على التأليف والترجمة «بل كانت تقوم بالتأليف والبحث العلمي»[5]. فعلى الرغم من نزعتها التخصصية فإنّها لم تفقد صبغتها الشعبية. فإلى جانب طلاب الدراسات الخاصة كان يقصد هذه المعاهد الأفراد من مختلف الثقافات والأغراض للدراسة أو النسخ أو الاطلاع[6].

ومن الخزائن التي ذاع صيتها أيضاً دار الحكمة بالقاهرة التي أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة (395 هـ/ 1005م) ونقل إليها أعداداً كبيرة من الكتب على

(1) سعيد الديه جي: **بيت الحكمة**، ص: 11 ـ 21.
(2) محمد عاطف البرقوقي وزميله: **الخوارزمي العالم الفلكي الرياضي**، ص: 79.
(3) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، 2/ 65 ـ 66.
(4) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 209.
(5) عبدالغني عبود: **مذكرات في تاريخ التربية**، ص: 143.
(6) أسماء حسن فهمي: **مبادىء التربية الإسلامية**، ص: 31.

كتب نفيسة في سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة، مما لا يتأتى مثله مجتمعاً لأحد من الملوك[1].

وهناك مكتبات عامة أتت متأخرة بعض الشيء لارتباطها بالمدارس. ومعلوم كما يقول المقريزي: إنّ «المدارس مما حدث في الإسلام، ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنّما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة»[2].

ولا ريب في أنّ المكتبات المدرسية قد لعبت دوراً هاماً على الصعيد التعليمي إذ إنّها يسّرت سبل الحصول على المراجع والكتب اللازمة للتلاميذ وجنّبتهم «جشع التجار ومغالاتهم في أثمان الكتب... ولم يكن في مقدور الطلبة أمام جشع بعض التجار دفع ثمن الكتاب. وأجرة إعارته، مما جعل للمكتبة المدرسية أهمية قصوى في حياة الباحثين الدارسين، فبدونها لم يتمكنوا من الاطلاع أو مراجعة ما يمليه عليهم أساتذتهم من آراء الفقهاء وغيرهم. كما أتاحت لهم فرصة ذهبية وهي حرية البحث والاطلاع في العلوم المختلفة بصرف النظر عما إذا كانت تدرس لهم... كما أعانتهم على سرعة الفهم، ومتابعة الأساتذة، والتجاوب معهم باطلاعهم على الدروس التي ستلقى عليهم في اليوم التالي شرحاً وإملاءً[3].

ولما كانت المكتبات الإسلامية وليدة حاجة تتعلق بشؤون المسلمين الدينية والدنيوية، كان من الطبيعي عندما استدعت الظروف إنشاء المدارس في البلاد الإسلامية أن يكون «في كل مدرسة مكتبة مزودة بكثير من الكتب الكبيرة والصغيرة في مختلف العلوم. وأشهر المكتبات المدرسية، مكتبة المدرسة النظامية ببغداد التي أنشأها نظام الملك، وزودها بكثير من الكتب الثمينة والمحفوظات النادرة... وقد ظلت المدرسة النظامية موضع عناية الخلفاء والعظماء»[4].

وكانت دار الكتب بالمستنصرية «من المراكز الثقافية المهمة ببغداد»[5]. فلقد

(1) المقريزي: **الخطط**، 2/ 286.
(2) المقريزي: م. ن، 2/ 363.
(3) ماجد توفيق الجندي: **دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 151.
(4) محمد عطية الإبراشي: **التربية الإسلامية وفلاسفتها**، ص: 102.
(5) ناجي معروف: **تاريخ علماء المستنصرية**، ص: 13.

عني المستنصر (640 هـ/ 1242م) بهذه المدرسة ومكتبتها عناية شديدة، فزودها بالكتب من مكتبته الخاصة التي كان قد أنشأها من قبل. ويُذكر أنّه نقل «إلى المدرسة من الربعات الشريفة، والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حملاً وجعلت في خزانة الكتب»[1].

وإذا كان هناك من يزيد أو ينقص هذا العدد إلّا أنّ ما هو أكيد أنّ عدد الكتب بقي على ازدياد هائل في هذه المكتبة. ومن زارها في نهاية القرن السابع كان يرى «الكتب المنضدة والتي لم يوجد مثلها في العالم»[2].

والحقيقة أنّ حسن تنظيم هذه المكتبة وغناها بالكتب جعلها محط أنظار طلاب العلم والعلماء والبحاثة الذين كانوا يقصدونها من الخارج. ومما ساعد على ذلك أنّ الخليفة «نقل إليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة والأصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملاً سوى ما نقل إليها بعد ذلك، وشرط أن يكون... عشرة يشتغلون بعلم الحديث النبوي ليفيدوا كل طالب علم في هذا المجال»[3].

وفي دمشق أيضاً ازدهرت حركة بناء المكتبات الملحقة بالمدارس فعندما أنشأ نور الدين زنكي (569 هـ/ 1174م) المدارس وقف بها كتباً كثيرة على طلاب العلم[4]. وكذلك فعل من جاء بعده من حكام المسلمين وولاة أمرهم.

ولقد ألحقت المكتبات بالبيمارستانات أيضاً، وكانت هذه المكتبات مراكز للبحث والدراسة حيث «كان الأساتذة لا يكتفون بالشرح، بل يأخذون الطلاب إلى المكتبة ويدلونهم على المراجع في موضوع الدرس، وقد يظل الطلاب في قراءات ومناقشات مع الأساتذة داخل المكتبة بالساعات الطوال»[5].

أخيراً يمكن أن نخلص إلى ما مفاده أن دور المكتبات الملحقة

---

(1) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص: 54.
(2) ابن الفوطي: تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، 4/ 28.
(3) عبد الرحمٰن ابن قنينو الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك، ص: 288.
(4) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، 1/ 608.
(5) عبدالرحمٰن النقيب: الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين، ص: 121.

بالبيمارستانات والمدارس وغيرها من المؤسسات لم يقتصر على تزويد الطلاب بالكتب، وإنّما تعدى ذلك لتكون هذه المكتبات أمكنة للتربية المستمرة، خاصة وأنها ـ علاوة على تزويد الطلاب بالكتب ـ أصبحت مراكز للتعلم والتعليم عن طريق الحوارات العلمية، والأدبية والمناقشات في مختلف أنواع العلوم.

2 ـ المكتبات الخاصة

هي تلك المكتبات التي أنشأها العلماء والأدباء والحكام وذوي النفوذ من رجال السلطة والأغنياء لاستعمالهم الخاص. ويمكن القول: إنّ بدايات هذا النوع من المكتبات يعود لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان بعد أن يسمر ثلث الليل وينام ثلثه «يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سِيَر الملوك وأخبارها والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها...»[1] مما يعني أنّه كان لدى الخليفة مكتبة خاصة به ولها جهاز خاص لتنظيمها والإشراف عليها. فلقد استدعى عبيد الجرهمي[2] من صنعاء إلى دمشق ليحدث الخليفة عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم. وبعد أن حدثه أمر معاوية بتدوين أخباره[3].

ويبدو أنّ هذا النوع من المكتبات انتشر انتشاراً واسعاً «إذ كان من الصعب أن نجد عالماً أو أديباً دون أن يكوّن له مكتبة يرجع إليها في دراسته واطلاعه»[4]. وكذلك الحال بالنسبة للحكام ورجال الدولة الذين كانوا يهتمون بالقضايا العلمية والأدبية والفكرية ويشجعون على نشرها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المكتبات غالباً ما كانت نصف عامة ـ إن جاز التعبير ـ لأن هناك من كان يبيحها للناس أو للأصدقاء، أو من يثق بهم.

ومن المكتبات الخاصة التي سمح أصحابها للآخرين لينتفعوا بما فيها من كتب، وكان لها دور تعليمي مكتبة الفتح بن خاقان (247 هـ/ 861م) الذي «كان له

(1) المسعودي: **مروج الذهب**، 3/ 222.

(2) عبيد بن شرية الجرهمي أدرك النبي وعاش إلى أيام عبدالملك وله كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين.

(3) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 180.

(4) أحمد شلبي: **تاريخ التربية الإسلامية**، ص: 199.

خزانة جمعها له علي بن يحيى المنجم (275 هـ/ 888م) لم ير أعظم منها كثرةً وحسناً وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفيين والبصريين»[1]. وكان ابن خاقان من أشهر الذين عرفوا بحبهم للكتب وكان «يحضر لمجالسة المتوكل (247 هـ/ 861م) فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل وإلى عوده إليه حتى في الخلاء»[2].

وكان لعلي بن يحيى قرب بغداد «قصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها يتعلمون منها صنوف العلم. والكتب مبذولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي ابن يحيى، فقدم أبو معشر المنجم (272 هـ/ 885م) من خراسان يريد الحج، وهو إذ ذاك لا يحسن كبير شيء من النجوم، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله أمرها، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم وأغرق فيه حتى ألحد وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والإسلام»[3].

وكان للمستعصم خزانتان للكتب أنشأهما في داره وكانت الأولى: عام 641 هـ/ 1243م. أما الثانية: فقد أنشأها في آخر أيامه. ولقد سلم الأولى لابن النيار(*) بينما سلم الثانية لابن فاخر (693 هـ/ 1292م) وكان الخليفة يتردد على كلا الخزانتين بالتناوب[4].

والحقيقة أنّ المكتبات بشقيها العام والخاص استمرت في الازدياد بحيث كان يصعب إحصاؤها؛ لأنّ ظاهرة حب الكتب والاهتمام بها كانت عامة بحيث لم يخل بيت منها ولو للتباهي. واستمر هذا الحال حتى نهاية العصر العباسي - لا بل وامتد إلى بعد ذلك - حتى إنّ وزير المستعصم، مؤيد الدين العلقمي (656 هـ/ 1258م) أنشأ داراً للكتب كان قوامها أكثر من عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب[5]. وابن

(1) ابن النديم: م. س، ص: 230.
(2) ابن النديم: **الفهرست**، ص: 230.
(3) ياقوت: **معجم الأدباء**، 5/ 467.
(*) الشيخ صدر الدين علي بن النيار شيخ الخليفة المستعصم وخازن مكتبته.
(4) ابن الطقطقي: **الفخري في الآداب السلطانية**، ص: 269.
(5) ابن الفوطي: **الحوادث الجامعة**، ص: 209.

الفوطي (723 هـ/ 1323م) نفسه الذي تنقل عنه هذه المعلومات بنى لنفسه مكتبة خاصة تعتبر من المكتبات ذات القيمة العلمية الكبيرة فكان «منزله ومكتبته ملتقى طلاب العلم من أهل بغداد وغيرهم»[1] ممن آمنوا بأنّ التربية عملية مستمرة مدى الحياة.

الربط والزوايا والخوانق:

لم يقتصر تعليم الكبار عند العرب على الأمكنة التي سبق ذكرها، فلقد كان هناك أمكنة وجدت أصلاً لأهداف معينة، غير أنّ ذلك لم يمنع من أن يكون لها دور تعليمي إلى جانب الأغراض التي وجدت من أجلها، علماً أنّ هذا الدور لم يرقَ للمستوى الذي وصل إليه دور المساجد أو المدارس في مجال التربية والتعليم. ومن هذه الأمكنة الربط والزوايا والخوانق.

1 ـ الربط

الرباط لغة: هو المواظبة على الأمر وملازمة ثغر العدو كالمرابطة، والمرابطة: أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره وكل معد لصاحبه فسمي المقام في الثغر رباطاً ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[2]. وقد يعني الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة[3].

وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات»** قالوا: بلى يا رسول الله قال: **«إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»**[4]. فإذا كان الرباط في الأصل الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها، فشبه ما ذكر من الأفعال الصالحة به، وهكذا فإنّ المواظبة على الطهارة والصلاة كالجهاد في سبيل الله وقيل إنّ الرباط هنا «اسم لما يربط به الشيء، أي

(1) ناجي معروف: **تاريخ علماء المستنصرية**، ص: 300.
(2) سورة: آل عمران، الآية: 200.
(3) الفيروز آبادي: **القاموس المحيط**، 2/ 360 ـ 361.
(4) مسلم: **صحيح مسلم**، 1/ 219.

يشد. يعني أنّ هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفه عن المحارم»[1].

فالرباط إذن يتصل بالعبادة بمعنييها العام والخاص، حيث يشتمل الأول: على الجهاد وما يتفرع عنه، بينما يقتصر الثاني: على الصلاة وما يترتب عليها. ويشكل المكان القاسم المشترك بين هذين المستويين من العبادة، بالنسبة لعلاقتهما بالرباط الذي يبدو وكأنه في الواقع رباطان: **الأول**: هو رباط الجهاد، **والثاني**: هو رباط الزهاد، على اعتبار أنّ الرباط قد أطلق بادىء الأمر على المكان الذي كان يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله ـ وفقاً للمعنى الأول للكلمة ـ بينما أطلق لاحقاً على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى تبعاً للمعنى الثاني للكلمة.

ويلاحظ أنّ رباط الجهاد كان وليد حاجة ماسة، لأنّ سواحل شمال أفريقيا وبلاد الشام التي خضعت للمسلمين كانت مواجهة للأعداء من الروم وغيرهم. لذلك عمد المسلمون إلى ترميم المدن التي خضعت لسيطرتهم، وعملوا على تحصينها وتعزيزها بالجند، جنباً إلى جنب مع تلك التي أنشأوها بعد الفتح. ولقد أطلق على هذه المدن الثغور أو الربط فكانت هناك ثغور داخلية وأخرى ساحلية.

أما ربط الزهد والتصوف فقد وجد منشئوها في حديث الرسول ﷺ الذي رد فيه على من سأله عن أفضل الناس ـ فقال ﷺ: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله**» قال ثم من؟ قال: «**ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**»[2] ـ مسوغاً ليعتزلوا الناس ويبتعدوا عنهم في الجبال والمغارات والأكواخ، ومن ثم إنشاء مقرات خاصة بهم «لا يشاركهم فيها غيرهم بحيث يستطيعون أن يمارسوا فيها رياضتهم وعباداتهم بمنأى عن الآخرين وهي نزل ومضافات يقيمون فيها بصورة دائمة أو مؤقتة وينظمون حياتهم بصورة جماعية بصحبة «معلمهم» وبهدي من مثاله وتوجيهه، ولما كان الهدف الأول من الإقامة فيها هو مغالبة إغراءات الحياة الدنيا ومجاهدة الرغبات، عدو الإنسان الداخلي، فهي ربط أو

(1) ابن منظور: لسان العرب، 7/ 302.
(2) مسلم: صحيح مسلم، 3/ 1503.

رباطات، مثلها في ذلك مثل الربط المعدة للجهاد ضد العدو الخارجي»[1].

غير أنّ الرباط الذي أطلق أول الأمر على المكان «الذي يرابط فيه جنود المسلمين للجهاد في سبيل الله ويلازمونه مترصدين للعدو، مستعدين للغزو. ثم صار الرباط يطلق على المكان الذي يرابط فيه الصوفية للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والتوبة، ومجاهدة النفس، والحد من شهواتها»[2].

وما لبث أن تطور معنى الرباط فيما بعد ليصبح مأوى للعاجزين والنساء والمطلقات أو المهجورات واليتامى والفقراء، ومسكناً للفقهاء الغرباء وأحياناً لكبار العلماء. وهكذا أصبحت الربط تؤدي خدمات اجتماعية، ودينية، وثقافية، كالوعظ، والإقراء، والتحديث، والسماع، والإفتاء، ومنح الإجازات العلمية، وتصنيف الكتب»[3].

فالرباط لم يقتصر على كونه مركزاً للتصوف فحسب، بل كان مركزاً جهادياً وتعبدياً وتعليمياً. ولقد نشطت الربط وازدهرت في أيام الأيوبيين والمماليك[4]. حيث أنشىء في بلاد الشام وفي دمشق وحلب وبيت المقدس وغيرها من المدن الشامية كثير من الربط[5]. التي كان بعضها مكاناً لتعليم الكبار. ولقد نسبت بسبب نشاطها العلمي - في كثير من الأحيان - إلى الشيخ الذي كان يتولى أمر التدريس فيها كالرباط البياني في دمشق نسبة إلى الشيخ أبي البيان نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الدمشقي المعروف بابن الحوراني (551 هـ/ 1156م) الذي «كانت له معرفة تامة باللغة والأدب الفقه، وكان شاعراً زاهداً عابداً سمع من عدد من العلماء وله مصنفات ومجاميع وشعر كثير. ولقد أخذ عنه الكثيرون وسمع منه طالبو العلم»[6].

ومن الربط التي اشتهرت أيضاً بنشاطها التعليمي الرباط الذي أنشأه بدمشق

---

(1) ملكة أبيض: «مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، 1/ 155.

(2) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، 1/ 408.

(3) ناجي معروف: أصالة الحضارة العربية، 401.

(4) عبدالجليل عبدالمهدي: الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص: 75.

(5) العلموي: مختصر تنبيه الطالب، ص: 160 - 163.

(6) ابن تغري بردي: النجموم الزاهرة، 5/ 324.

الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (589 هـ/ 1193م)[1]. ومن الذين تولوا مشيخة هذا الرباط الشيخ جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الشريشي (685 هـ/ 1286م). وكان ممن شهد لهم بعلمهم وكفاءتهم واستمر بتولي المشيخة إلى أن توفي بالرباط المذكور[2].

ومن أوائل الذين التحقوا بالربط، وكان لهم دور تعليمي سلمان الفارسي (36 هـ/ 656م) الذي قدم ساحل الشام للرباط. ومن جملة ما يُروى عنه أنّه حدث ببيروت ما كان قد سمعه من الرسول ﷺ عن الرباط حيث قال ﷺ: «**رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه. ومن مات مرابطاً في سبيل الله أجير من فتنة القبر**»[3].

كما وأنّ الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربي (543 هـ/ 1148م) عندما خرج من الأندلس قاصداً المشرق العربي دخل بغداد ونزل في رباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية حيث التقى بالإمام الغزالي وقرأ عليه ولازمه[4].

يفهم من هذا أنّ دور الرباط لم يقتصر على الجهاد والعبادة وإنّما تعداه للتعليم. ومما ساعد في تزايد هذا الدور أنّ الواقفين أنشأوا فيها الخزائن، ووقفوا فيها الكتب، وعينوا لها القوّام والخزان ومن يهتم بصيانتها وترتيبها ومناولتها. وكان الزهاد والمتصوفة الساكنون في الربط أو الذين يترددون عليها يرتادون المكتبات التي في ربطهم وكذلك كان يفعل الذي يرحلون في طلب العلم[5].

ويشير ابن شداد (684 هـ/ 1285م) إلى وجود ربط كانت تنسب إلى نساء في دمشق[6]. منها رباط صفية القلعية بنت قاضي القضاة عبد الله بن عطاء الحنفي[7]، ورباط زهرة بنت محمد بن أحمد بن حاضر (336 هـ/ 1237م)[8]. مما يعني أنّ

(1) عبدالقادر بدران: **منادمة الأطلال**، ص: 62.
(2) ابن كثير: **البداية والنهاية**، 13/ 208.
(3) ابن عساكر: **تاريخ مدينة دمشق**، 21/ 375.
(4) المقري: **نفح الطيب**، 1/ 338.
(5) ناجي معروف: **أصالة الحضارة العربية**، ص: 402.
(6) ابن شداد: **الأعلاق الخطيرة**، ص: 195 ـ 196.
(7) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، 2/ 193.
(8) ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب**، 5/ 159.

الأنشطة التعليمية التعلمية، وتعليم الكبار في الربط لم يقتصر على الرجال فحسب بل كان للنساء نصيب في ذلك.

2 ـ الزوايا

الزاوية من البيت ركنة[1]. «وهي مأخوذة من الفعل انزوى ينزوي، وبمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد. وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى الانزواء فأنشأوا لهم مساكن مُلْحقة بالمسجد كما نشاهد ذلك ماثلاً حتى الآن»[2] ببعض المساجد.

فعلى الرغم من أنّ الزوايا غالباً ما تكون في الأماكن النائية أو الخالية من السكان، إلّا أنّ ذلك لم يحل دون إلحاقها بناحية من نواحي المسجد، حيث كان يقام فيها حلقات للعلم تماماً، مثلما كان الحال بجامع عمرو بن العاص الذي كان فيه زوايا يدرس فيها الفقه، منها زاوية الإمام الشافعي التي كان يدرس بها الفقه فعرفت باسمه، وتولى التدريس بها من بعده أعيان الفقهاء وجلة العلماء. وكان هناك أيضاً الزاوية المجدية والصحابية والكمالية وغيرها من الزوايا التي كانت مشهورة في ذلك الوقت[3].

ولم تبق الزوايا ملحقة بالمساجد أو ضمن حدودها؛ لأنها تطورت لاحقاً إلى «أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس، ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم النقلية والعقلية، كما يعقد فيها مشايخ الطرق الصوفية حلقات الذكر»[4].

ولعبت هذه الزوايا دوراً بارزاً في إعداد الصوفية. وقد تولد عن هذا الإعداد نوعان من الصوفيين «نوع أصيل سار في طرق العلم سير العلماء، واجتهد في الطلب، حتى حصل العلم الغزير، ومالت نفسه إلى الزهد واحتقار الدنيا، فانخلع

(1) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، 4/ 339.
(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، 4/ 423.
(3) المقريزي: الخطط، 2/ 255 ـ 256.
(4) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، 4/ 423.

عنها وخلص للعبادة والمجاهدة[*]... والنوع الآخر: اتجه إلى العلم حتى حصل منه زاداً يسيراً ثم انصرف إلى المجاهدة الصوفية... عن إخلاص أو بدون إخلاص وسعى إلى كسب الجاه بين الجماهير بمظاهر من التقى والقدرة على القيام بما تصور الناس أنه خوارق أو كرامات فالتف حولهم العوام، وتمسكوا بهم تمسكاً شديداً وصانعهم الحكام إمّا عن جهل بحقيقة الدين، أو عن خبث للسيطرة على قلوب الجماهير»[1].

ولكن الصادقين منهم اتجهوا اتجاهاً علمياً، فكونوا من مريديهم جماعات صوفية تنتهج طريقاً قويماً، وتتبع منهجاً محدداً في التعليم والعبادة، حيث كان يلتقي التلاميذ بأساتذتهم في أوقات معينة بعد الظهر أو في المساء.

وكثرت الزوايا في العصر الأيوبي والمملوكي في كل من دمشق، وبيت المقدس وغيرها من المدن الشامية[2]. ومن هذه الزوايا التي كان لشيوخها أتباع ومريدون: الزاوية الدينورية نسبة إلى الشيخ عمر بن عبد الملك الدينوري (629 هـ/ 1230م)[3]، والزاوية الدينورية الشيخية نسبة إلى الشيخ صلاح الدين أبي بكر الدينوري (661 هـ/ 1261م)[4] والزاوية الفرنثية نسبة إلى الشيخ علي الفرنثي الزاهد (621 هـ/ 1224م)[5] والزاوية الملكية نسبة إلى منشئها الشيخ تقي الدين أبي محمد عين الملك بن رمضان الأخلاطي بعد قدومه إلى دمشق سنة (611 هـ/ 1214م)[6].

ومما لا شك فيه أنّ المريدين الذين اشتغلوا على شيوخهم في هذه الزوايا بالتصوف قد اشتغلوا بغيره من العلوم خاصة، وأنّ مشايخ هذه الزوايا كانوا

(*) من هؤلاء: الحارث بن أسد المحاسبي (243 هـ/ 757م) وأبو نصر السراج (378 هـ/ 988م) وأبو طالب المكي (386 هـ/ 996م) وعبد الكريم بن هوازن القشيري (465 هـ/ 1072 م) وأبو حامد الغزالي (505 هـ/ 1111 م) وغيرهم.

(1) حسين مؤنس: عالم الإسلام، ص: 215 ـ 216.

(2) انظر: محمد كرد علي: خطط الشام، 6/ 136 وما بعدها.

(3) ابن طولون: القلائد الجوهرية، 1/ 286 ـ 287.

(4) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، 2/ 202.

(5) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 5/ 95.

(6) ابن طولون: م. س، 1/ 303.

محدثين. ففي الزاوية الملكية كانت تُلْقى دروس في الحديث، وتقرأ فيها عدة بخاريات وكان فيها أيضاً محل لمجالس الذكر[1].

يتضح مما سبق أنّ الزوايا إلى جانب مهامها الصوفية كانت مراكز علمية ذات دور ملموس في مجال تعليم الكبار. وكان الذي يشرف على التعليم في الزاوية شيخها، فهو الذي يقرر ما يراه مناسباً من الدروس والعلوم المختلفة التي يجد فيها نفعاً لمريديه الذين يترددون عليه طلباً للعلم ورغبة في العبادة.

3 ـ الخوانق

الخوانق جمع: «خانقاه» والخانقاه: كلمة فارسية معناها: بيت ويقال: إن أصلها خونقاه، أي: الموضع الذي يأكل فيه الملك. ولقد حدثت الخوانق في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة[2].

وعندما شاع التصوف في بلاد الشام شجع السلاطين الأيوبيون وأمراؤهم وعلماؤهم ونساؤهم هذه الظاهرة، وبنوا الخوانق، والزوايا، والرباطات لخدمة هذا الإتجاه، ولقد أنشأ السلطان نور الدين (569 هـ/ 1174م) «الربط والخانقاهات في جميع البلاد للصوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدرّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يحضر عنده مشايخهم ويقربهم ويبسطهم ويتواضع لهم»[3].

وكانت الخوانق غالباً ما تبنى على نمط مساجد الصلاة غير أنّها كانت تحتوي على غرف عديدة كانت بمثابة بيت للفقراء والصوفية أو بيت كبير لأداء صلاة الجماعة أو للقيام بالأوراد والأذكار. ولم يكن في الخانقاه منبر لأنّه نادراً ما أقيمت بها صلاة الجمعة، لأنّ هذه الصلاة كانت تؤدى في أقرب مسجد، وربما أقيمت صلاة الجمعة في بعض الخوانق كخانقاة بكتمر بمصر[4].

---

(1) ابن طولون: **القلائد الجوهرية**، 1/ 303.
(2) المقريزي: **الخطط**، 2/ 414.
(3) ابن الأثير: **التاريخ الباهر**، ص: 171.
(4) المقريزي: م. س، 2/ 245.

وفي بلاد الشام كثرت الخوانق التي كان لها دور في تعليم الراشدين ومن هذه الخوانق خانقاه الدويرية التي أنشئت في دمشق حوالي سنة (401 هـ/ 1009م). وقد أنشأها أبو الفرج حمد بن عبدالله بن علي الدمشقي المقرىء المتوفى سنة (401 هـ/ 1009م)[1].

وفي الخانقاه الشريفية كان الصوفية وطالبو العلم فيها يشتغلون بالحديث وكان من يتولى فيها قراءة البخاري من العلماء الذين كانت تتوافر فيهم شروط علمية تؤهلهم لذلك[2].

ومن الخوانق التي اشتهرت بتعليمها الكبار الخانقاة السميساطية المنسوبة إلى أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السميساطي (453 هـ/ 1061م)[3]. ومن أوائل الذين علموا في هذه الخانقاه الوزير المعروف بالفلكي النيسابوري سعيد بن سهل بن محمد (560 هـ/ 1163م) الذي سمع من عدد من العلماء، وحدّث ببغداد، ثم قدم إلى دمشق ونزل بالخانقاه وجدد فيها وباشر النظر في وقفها[4].

ولقد أنشأ صلاح الدين الأيوبي في بيت المقدس الخانقاة الصلاحية لتعزيز توجهاته لتعميم الثقافة الإسلامية في البلاد التي أخضعها. وكان لهذه الخانقاة دور كبير في مجال الاشتغال بالتعليم، ورفع المستوى العلمي، والثقافي لجميع الناس دون استثناء[5].

وتجدر الإشارة إلى أنّ التعليم بالخانقاة كان تعليماً موجهاً حسب ما يرتئيه الواقف، وشروطه التي يضعها لتنظيم عمل الشيخ ومريديه[6]. فمن الشروط التي وردت في كتاب وقف الخانقاه الصلاحية بالقدس أن يجتمع شيخها ومريديه بعد صلاة العصر ليقرأوا ما تيسر من القرآن ويذكّروا مما حسن من الذكر، وعليهم أيضاً

(1) النعيمي: **الدارس في تاريخ المدارس**، 2/ 146.
(2) عبد القادر بدران: **منادمة الأطلال**، ص: 281.
(3) محمد كرد علي: **خطط الشام**، 6/ 132.
(4) الذهبي: **سير أعلام النبلاء**، 20/ 422.
(5) انظر: ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 7/ 207.
(6) انظر: عبدالغني عبد العاطي: **التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك**، ص: 238.

أن يجتمعوا بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة ليقرأوا القرآن، وعلى المريدين أن يقرأوا بحضور شيخهم ما تيسر من كلام المشايخ الصوفية[1].

وسواء كان التعليم في الخوانق والربط والزوايا تعليماً موجهاً أم لا، إلا أنّ ذلك لا يغير شيئاً من حقيقة الواقع في هذه المؤسسات، التي كانت تشهد حركة نشطة في مجال تعليم الكبار ـ على الرغم من أنّ بعض المتصوفة كانوا من الفتيان ـ فلقد جهد مشايخ الصوفية في أن يزودوا طلبتهم ومريديهم بالحكمة التي تمكنهم من الوصول إلى المعرفة الحقيقية.

البيمارستان:

البيمارستان: «كلمة فارسية معناها: «المستشفى». وهي مؤلفة من كلمة (بي) ومعناها: (بدون) و(مار) ومعناها: (الحياة أو الحيوية) و(ستان) ومعناها: (مكان) فمعنى الكلمة كلها مكان المرضى»[2]. وقيل أيضاً: «البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) كلمة فارسية مركبة من كلمتين (بيمار) بمعنى: مريض أو عليل أو مصاب و(ستان) بمعنى مكان أو دار فهي إذاً دار المرضى. ثم اختصرت في الاستعمال فصارت مارستان»[3]. وبقيت هذه اللفظة «تطلق على دور العلاج والمرضى إلى أن حلّت مكانها كلمة مستشفى فيما بعد»[4].

ويرى البعض أنّ أول بيمارستان اتخذ في الإسلام هي خيمة الرسول ﷺ التي نصبها في مسجده بالمدينة لعلاج جرحى موقعة الخندق. وقد أولى لامرأة تدعى رُفَيْدَة(*) مهمة خدمة المصابين[5].

ويشير المقريزي إلى أنّ أول من بنى البيمارستان في الإسلام هو الوليد بن

---

(1) مركز الأبحاث: **أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين**، ص: 31.
(2) محمد أسعد طلس: **التربية والتعليم في الإسلام**، ص: 116.
(3) أحمد عيسى: **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ص: 4.
(4) محمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، ص: 110.
(*) رفيدة الأسلمية، مجاهدة كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كان به ضيعة من المسلمين.
(5) أحمد عيسى: **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ص: 9.

عبد الملك سنة (88 هـ/ 707م). وجعل فيها الأطباء وأجرى عليهم الجرايات، وعمل دور الضيافة وأمر بحبس المجذومين والعميان، وكانوا يودعون في هذه البيمارستانات الأدوية والعقاقير والأكحال ويجعلون فيها الأطباء والكحّالين والجرّاحين والخدم، وكل ما تحتاج إليه المشافي من عود وآلات. وربما جعلوا في بعضها خزائن الكتب، وغرفاً، ودواوين، ومعاهد لتدريب الطلاب والصيدلة وما إليها[1].

فالبيمارستانات إذن كانت أماكن لعلاج المرضى ودراسة الطب. فلقد أدرك المسلمون «مدى ما تمتاز به هذه المستشفيات من صلاحية لتعليم الطب حيث الحالات المرضية ماثلة أمام أعين المتعلمين والأدوية والعلاجات قريبة ومتوافرة فاتخذوا منها إلى جانب قيامها بمعالجة المرضى كليات طب أدت لهذا العلم أجل الخدمات»[2].

وكان كل مستشفى يحتوي على «إيوان كبير(*) للمحاضرات يجلس فيها كبير الأطباء، ومعه الأطباء والطلاب، وبجانبهم الآلات، والكتب فيقعد التلاميذ بين يدي معلميهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم، ثم تجري المباحث الطبية والمناقشات بين الأستاذ وتلاميذه، والقراءة في الكتب الطبية. وكثيراً ما كان الأستاذ يصحب مع تلاميذه إلى داخل المستشفى ليقوم بإجراء الدروس العملية لطلابه على المرضى بحضورهم كما يقع اليوم في المستشفيات الملحقة بكليات الطب»[3].

ويبدو أن حركة البيمارستانات نشطت في العصر العباسي مع بداية القرن الرابع الهجري عندما أشار سنان بن ثابت بن قرة (331 هـ/ 943م) على المقتدر (320 هـ/ 932م) بأن يتخذ بيمارستان ينسب إليه، فأمره باتخاذه، فاتخذه له في باب الشام وسماه البيمارستان المقتدري وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار»[4].

---

(1) المقريزي: **الخطط**، 2/ 405.

(2) محمد عبدالرحيم غنيمة: **الجامعات الإسلامية الكبرى**، ص: 118.

(*) قاعة كبيرة.

(3) مصطفى السباعي: **من روائع حضارتنا**، ص: 160.

(4) ابن القفطي: **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، ص: 133.

وممن خدموا به جبرائيل بن عبد الله بن يختيشوع (396 هـ/ 1004م) الذي أصبح عالماً فاضلاً ولازم العلاج والتعليم به[1].

وفي أول محرم من السنة عينها «فتح سنان بن ثابت بيمارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى وجلس فيه ورتب المتطببين»[2].

ومن البيمارستانات التي كانت فيها حلقات للتدريس البيمارستان العضدي. فلقد كان الفيلسوف الطبيب أبو الفرج عبد الله بن الطيب (435 هـ/ 1043م) «يقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي ويعالج المرضى فيه»[3]. وكذلك فإن إبراهيم ابن بكس (360 هـ/ 971م) الذي كان ماهراً في علم الطب بقي بعد أن كفّ بصره يحاول صناعة الطب ويزاولها رغم عماه «وكان يدرس صناعة الطب في البيمارستان العضدي... وكان له منه ما يقوم بكفايته»[4].

وكان البيمارستان النوري الذي أسس سنة 569 هـ/ 1173 م من أشهر المؤسسات الطبية والعلمية. ومن أبرز الذين درّسوا فيه أبو المجد بن أبي الحكم الباهلي (570 هـ/ 1174 م) الذي كان السلطان نور الدين زنكي «يحترمه ويعرف مقدار علمه وفضله. ولما أنشأ الملك العادل نور الدين البيمارستان الكبير جعل أمر الطب إليه فيه... وكان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه»[5]. وكان بعد فراغه من تفقد المرضى وعلاجهم «يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي للبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال. وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة من الكتب الطبية... فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم تجري مباحث طبية ويقرىء للتلاميذ. ولا يزال معهم في اشتغال ومباحث ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب إلى داره»[6].

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 2/ 72.
(2) ابن القفطي: م. س، ص. ن.
(3) ابن أبي أصيبعة: م. س، 2/ 235.
(4) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 2/ 242.
(5) ابن أبي أصيبعة: م. ن، 3/ 256.
(6) ابن أبي أصيبعة: م. ن، ص. ن.

ومن الذين اشتغلوا وعلّموا في البيمارستان النوري الشيخ مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار (628 هـ/ 1230 م) «وولاه السلطان... في ذلك الوقت رياسة أطباء ديار مصر بأسرها وأطباء الشام... ورسم أنّه يقيم بدمشق، وأن يتردد إلى البيمارستان الكبير الذي أنشأه الملك العادل نور الدين بن زنكي ويعالج المرضى به»[1]. وخلال إقامته بدمشق أخذ عنه الكثيرون، وكان ابن أبي أصيبعة واحداً منهم. فلقد شرع المهذب ـ حسب ما يذكر ابن أبي أصيبعة ـ «في تدريس صناعة الطب، واجتمع إليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرأون عليه وأقمت بدمشق لأجل القراءة عليه... وكان طلق اللسان، حسن التأدية للمعاني، جيد البحث، لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب»[2].

ويلاحظ أن تعليم الطب، كان يقوم على أسس تجريبية عملية دقيقة، فلم يقتصر دور البيمارستانات على الاستشفاء ومعالجة المرضى وإنما تعدى ذلك لتصبح هذه المؤسسات مراكز لتعليم الطب والبحث العلمي، على أسس نظرية وعلمية وتجريبية دقيقة لأن إدراك الحقيقة لا يتأتى إلا من خلال تلازم النظرة العلمية والتجربة العملية. ولقد لعبت مكتبات البيمارستانات دوراً بارزاً في هذا المجال.

المدارس:

إذا كانت الكتاتيب قد وجدت أصلاً لتعليم الصغار، فإن المدارس التي ظهرت في المجتمع العربي الإسلامي بعد سنة 400 هـ/ 1008م أنشئت خصيصاً لتعليم الكبار. وفي هذه المرحلة «أصبحت المدرسة منظمة رسمية من منظمات الدولة يتخرج منها عمال الدولة وموظفوها. وأصبحت الدراسة فيها دراسة رسمية تسير وفق لوائح وقوانين شبيهة بتلك التي نعرفها اليوم»[3].

ولا ريب أنّ الفضل الأكبر في تحقيق هذا الاتجاه يعود لنظام الملك الذي

(1) ابن أبي أصيبعة: م. ن، 3/ 394 ـ 395.
(2) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 3/ 394 ـ 395.
(3) عبد الغني عبود: في التربية الإسلامية، ص: 115.

ارتقى بتعليم الكبار من خلال نشره المدارس في طول البلاد وعرضها. وكانت هذه المدارس بحق «جزءاً من حركة المجتمع الإسلامي ومتصلة بنبض الحياة في هذا المجتمع ومسؤولة مسؤوليات (الجماعة) الإسلامية سواء كانت هذه الجماعة هي الدولة أو الرأي العام»[1].

ويبدو أنّ نظام المدارس ربط عجلة تعليم الكبار ـ ضمن هذه المؤسسات ـ بالدولة في ذلك العصر. وكان هذا النظام بنظر من التزموا مبدأ الحرية في طلب العلم نكسة لأساليب تعليم الكبار، التي ألفها المسلمون في المساجد والجوامع ومراكز التعليم الأخرى، حيث كانت مقدرة المدرس العلمية هي التي تعزز مكانته وموقعه في حلقته أو مسجده، بينما في المقابل كان صاحب المدرسة هو الذي يعيّن المدرس أو يعزله كما وأنّه هو الذي يوجه الدراسة الوجهة التي يرتضيها. وهذا ما لم يكن ممكناً تحقيقه في أماكن التدريس الأخرى. ولذلك لم يكن مفاجئاً أنّ علماء ما وراء النهر لما بلغهم تأسيس المدارس ببغداد «أقاموا مآتم العلم وقالوا: كان يشغل به أرباب الهمم العليّة والأنفس الزكية. ويقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم، وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الإفساد وأرباب الكسل، فيكون سبباً لارتفاعه»[2].

ويبدو أنّ هذا النمط من التفكير لم يدم طويلاً بعد نشوء المدارس، إذ سرعان ما أثبتت هذه المؤسسات حسناتها لكل من الطالب، والمدرس على حد سواء، وذلك بسبب مكانتها وكبير شهرتها ولكونها تابعة للجهات الرسمية، والتي على ما يبدو كانت تجزل الرواتب والمِنح للمدرسين والوعاظ، والموظفين بهدف ترغيبهم وتشجيعهم على الاستمرار في البذل والعطاء.

ومما لا شك فيه أنّ المدارس قد نظمت التعليم بشكل أفضل مما كان عليه سابقاً فقد أصبح الطالب مستقراً في مكان واحد ولمدة طويلة يستطيع بها أن يتزود بعلم جم من غير عناء التنقل، كما تخلص من مشكلة وفاة الأستاذ قبل إكماله الدراسة المنهجية عليه حينما أصبحت المدرسة هي المسؤولة عن استقدام المدرس،

---

(1) عبدالغني عبود: **مذكرات في تاريخ التربية**، ص: 170.
(2) حاجي خليفة: **كشف الظنون**، 1/ 22.

يضاف إلى ذلك أن استقرار أسس العلوم الفقهية في كتب معتمدة، وتوافر تراث كتابي ضخم قد يسر اتخاذ المقررات التدريسية، فكان المدرس يدرس كتاباً مقرراً لأحد العلماء الكبار أو يعد محاضرات بموضوع الدرس تسمى: (تعليقة) تشمل جميع المدة التي يقضيها الطالب في المدرسة»[1].

والجدير ذكره أنّ المدرسة كانت محطة بارزة في إطار حركة تعليم الكبار في المجتمع العربي الإسلامي. ولقد كان دورها مكملاً لدور باقي المؤسسات التعليمية وليس بديلاً عنه، حيث ظلت مجالس العلم والمناظرة في المسجد والدور والقصور والمكتبات، والبيمارستانات وغيرها من أماكن التعليم تلعب دوراً بارزاً وهاماً في التعليم الإسلامي بشكل عام وتعليم الكبار بشكل خاص.

وخلاصة القول: إنّ تعليم الكبار لم يقتصر على الأمكنة سابقة الذكر لأنّ المسلمين كانوا يستغلون كل مناسبة ومكان لتلقي العلم. فكانت حلقات العلم تعقد حتى في الضواحي والأسواق والطرقات كما في رواية القاضي أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (450 هـ/ 1058م) الذي حدثه أبوه قائلاً: «كنا نحضر مجلس أبي إسحاق إبراهيم بن علي الهجيمي (351 هـ/ 962م) للحديث، فكان يجلس على سطح له ويمتلىء شارع بالهُجيم بالناس يحضرون للسماع ويبلغ المستملون عن الهجيمي. قال: وكنت أقوم في السحر فأجد الناس قد سبقوني وأخذوا مواضعهم. وحسب الموضع الذي يجلس الناس فيه وكُسّر فوجد مقعد ثلاثين ألف رجل»[2].

والحقيقة أنّ الناس في العهود الأولى للإسلام كانوا لا يترددون ـ أينما وجدوا ـ في أن يتذاكروا بينهم الحديث، أو آيات القرآن الكريم حتى لا ينسوا شيئاً مما حفظوه، وليبقوا على صلة وثيقة بكتاب الله وسنة نبيه الكريم. ومع مرور الأيام لم يقتصر هذا النشاط التعليمي التعلمي على العلوم الدينية وإنما تعداه لباقي العلوم سواء الدينية أو الدنيوية منها.

---

(1) بشار عواد معروف: «مؤسسات التعليم في العراق بين القرنين الخامس والسابع الهجريين»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، 2/ 396.

(2) السمعاني: أدب الإملاء والإستملاء، ص: 18.

الفصل الرابع

الأوجه المختلفة لتعليم الكبار
في ضوء
خصائص التربية الإسلامية

تمهيد

الخصائص المميزة للتربية الإسلامية

- الربانية
- التكامل والشمول
- التوازن
- العمل والسلوك
- الفردية والاجتماعية
- الحرية
- الأصالة والتجدد

الأوجه المختلفة لتعليم الكبار عند المسلمين

- التعليم الأساسي
- التعليم الوظيفي
- التعليم المهني
- التعليم الذاتي
- التعليم العالي المستمر

الفصل الرابع

الأوجه المختلفة لتعليم الكبار

تمهيد

مما لا شك فيه أنّ رسالة التعليم لا يكتب لها النجاح «إلاّ إذا قامت وفق منهج تربوي صحيح... والتربية هي الطريقة التي يطبع بها الفرد بطابع معين لإعداده لتلقي التعليم، الذي هو مجموعة المعارف التي تزود الفرد بالخبرات.

والتعليم وحده لا يغني ولا يكفي دون أن تمهد أمامه الطرق من الأخلاق والقيم والأهداف الواضحة السديدة... فالتربية هي إعداد (للإنسان) من ناحية إعداد الأطر النفسية والاجتماعية القادرة على حمل أمانة رسالة العلم على أساس نظرية الحياة التي يؤمن بها (هذا الإنسان) والهدف الذي يتجه إليه... في إطار الأمانة المنوطة والمسؤولية القائمة في عنقه»[1].

وفي ضوء التصور الإسلامي للكون «يتضح أن الهدف الأساسي لوجود الإنسان في الكون، هو عبادة الله والخضوع له، والخلافة في الأرض ليعمرها بتحقيق شريعة الله وطاعته... وإذا كانت هذه مهمة الإنسان في الحياة فإن تربيته يجب أن تكون لها نفس الهدف»[2]، أي الوصول بالإنسان «إلى درجة الكمال التي هيأه الله لها، فهي تشمل جميع جوانب النفس الإنسانية أي جميع جوانب الشخصية الإنسانية، وهي تستعين بوسائل منها «التعليم» فالتعليم وسيلة للتربية ومدلوله أضيق من مدلولها، لأنه مرتبط بموضوع معين»[3].

---

(1) أنور الجندي: **التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام**، ص: 185 ـ 186.

(2) عبد الرحمٰن النحلاوي: **أصول التربية الإسلامية وأساليبها**، ص: 108.

(3) علي أحمد مدكور: **منهج التربية في التصور الإسلامي**، ص: 267 ـ 268.

غير أن «التربية والتعليم ليسا غاية ولكنهما وسيلة لغاية: وسيلة التربية لبناء الإنسان القادر على حمل رسالة الأمة وعقيدتها، ووسيلة التعليم لحماية الأمانة وتنميتها وإذاعتها ودعم العقيدة وتطبيق الشريعة وإقامة الحجة بالمنطق والدليل على صدقها وصحتها... ذلك أنّ الأمة صاحبة الرسالة يجب أن تقوم على (أبنائها) بالتربية والتعليم ليكونوا ورثة صالحين لهدف حياتها ولنظام مجتمعها، وعليها من أجل ذلك أن تصوغهم في قوالب عقائدها ومناهج حياتها»[1].

فالتربية والتعليم لا يتناقضان أو ينفصلان، وإنّما يتآزران ويتكاملان ليحققا هدفاً واحداً، يتمثل في مساعدة الإنسان ليقوم بواجب الاستخلاف في الأرض. فتعليم الكبار حتى يتمكنوا من القيام بهذا الدور ما هو إلّا تربية لهم. وهنا تسقط أسباب التمييز بين التربية والتعليم، لأنهما يحملان معنى واحداً خاصة عندما يكون هذا التعليم مثالياً تماماً، مثلما كان الحال زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

وسواء كانت التربية والتعليم في الإسلام شيئاً واحداً أو شيئين مكملين لبعضهما البعض، فإنّ وجهتهما تبقى واحدة لأنهما يسعيان لتحقيق هدف واحد نابع من نظرة الإسلام العقدية. مما يعني أنّ الأسس التي يقوم عليها التعليم في الإسلام هي ذات الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية، لتمكين المتعلمين من العمل بكل طاقاتهم وقدراتهم في كل زمان ومكان دون تخطي قواعد العقيدة وضوابط الشريعة.

فعلى ضوء هذا الفهم يصعب الفصل بين التربية والتعليم في الإسلام، لأنهما يتداخلان ليشكلا نسيجاً واحداً يستند إلى رؤية واحدة، ويسعى لتحقيق الأهداف التي دعا إليها الإسلام. وهذا بدوره يقود إلى القول: إنّ الخصائص المميزة للتربية الإسلامية هي ذات الخصائص المميزة لتعليم الكبار في الإسلام، لأنّ المفهوم الأخير لا يخرج عن إطار التربية الإسلامية التي هي أصلاً تربية مستمرة تستهدف كافة أفراد المجتمع الإسلامي، وبالتالي فإنّ ما ينطبق على الكل لا بد وأن ينطبق على الجزء.

---

(1) أنور الجندي: **التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام**، ص: 185 ـ 186.

لذا فإنّ الخصائص المميزة للتربية الإسلامية ـ التي هي في الأصل تربية مستمرة ـ تعتبر عاملاً مشتركاً بين جميع أنواع تعليم الكبار في الإسلام... هذه الأنواع التي سيتطرق إليها البحث على ضوء الحديث عن خصائص التربية الإسلامية التي ينظر إليها على اعتبار أنّها تمثل الأسس، والركائز التي تستند إليها هذه التربية، وكل ما يتفرع عنها من ألوان التعليم.

الخصائص المميزة للتربية الإسلامية:

لم يكن الإسلام في يوم من الأيام مقلداً أو تابعاً لغيره من الأديان والمعتقدات لأنّ له نظرته الخاصة، وتصوره المستقل، والشامل لحقائق الوجود «والتصور الإسلامي للوجود يختلف عن سائر التصورات الأخرى قديمة كانت أو حديثة، وإذا كان يلتقي مع بعض هذه التصورات في بعض الجوانب الجزئية إلا أنّ الأسس، التي تنبثق عنها هذه التصورات مختلفة كل الاختلاف. وهو تصور شامل لأنّه يقدم نظرة عامة عن جميع عناصر الوجود»[1]. فكان من الطبيعي أن تكتسب التربية الإسلامية ـ المنبثقة عن هذا التصور ـ عدداً من الخصائص التي تميزها عن غيرها من التربويات، ومن أبرز هذه الخصائص:

1 ـ الرّبانية

إنّ التربية في الإسلام تعبر عن التصور الإسلامي لحقائق الوجود. وهذا التصور بدوره يجعل من القرآن الكريم والحديث الشريف نقطة الانطلاق في عملية التربية والتعليم، التي تستهدف بناء الفرد المسلم، والعائلة المسلمة والجماعة المسلمة المؤمنة بشرعة الله والساعية لإقامة منهجه الرباني الأصول، الإنساني البعد على هذه الأرض، عن طريق عمارتها وتحقيق مهمة الاستخلاف فيها إذعاناً لأمر الله تعالى حسب ما نصّ عليه القرآن الكريم.

ولذلك شكلت الشريعة الإسلامية المحتوى المعرفي لمنهج التعليم الأساسي في الإسلام لأن الشريعة «بمعناها القرآني الواسع بيان للعقيدة وللعبادة ولتنظيم

(1) عبد الكريم عثمان: **معالم الثقافة الإسلامية**، ص: 13.

الحياة. ولتحديد وتنظيم جميع العلاقات الإنسانية»[1]. وهو ما دأب الرسول ﷺ على تعليمه لصحابته الذين عملوا بدورهم على تعليمه لغيرهم من المسلمين.

وبما أنّ الله هو المثل الأعلى للمسلمين وهو الغاية القصوى التي يجب أن تنتهي إليها كل غايات التربية والتعليم وأنّ القرآن الكريم هو نقطة الانطلاق لبناء النفس الإنسانية في الفرد، وبناء الأسرة ثم بناء الجماعة الإسلامية القائمة على شرعة الله بالحق وإقامة منهجه الرباني المصدر الإنساني الهدف على هذه الأرض»[2]. فإنّ هذا يجعل من الربانية صفة ملازمة للتربية الإسلامية. هذه التربية التي تنبثق عن تصور اعتقادي موحى من الله ﷻ.

2 ـ التكامل والشمول

إنّ عناية التربية الإسلامية بالإنسان لا يقتصر على جانب معين من جوانب شخصيته وإنّما تهتم بها كوحدة متكاملة. فعلى الرغم من أنّ النشاط التربوي أو التعليمي قد يهتم في بعض الأحيان بتعليم موضوع ما، من أجل تحقيق هدف ما، إلّا أنّ هذا لا يتعارض مع شمولية النظرة للإنسان، لأنّ هذه الأنشطة تتكامل لتشكل نسيجاً واحداً وشاملاً يُعنى بكافة جوانب الشخصية الإنسانية. فحلقات الرسول التعليمية كانت متنوعة، إلّا أنّها كانت تعمل في ضوء وحدة الرؤية ووحدة الهدف. ولذلك فإنّ السعي للوصول بالمتعلم إلى مرتبة (الكمال) الإنساني لا يتحقق إلّا من خلال العناية بكافة مكونات الشخصية. ومن هنا فإنّ جلسات الرسول التعليمية جاءت متنوعة لتحقيق التكامل بين هذه المكونات عن طريق العناية بالجوانب المختلفة لشخصية المتعلم، سواء الدينية أو الخلقية أو الفكرية أو الجسمية منها. والرسول بذلك ينطلق من نظرة الإسلام لكل من الروح والعقل والجسد على اعتبار أنّها «كيان واحد ممتزج مترابط اسمه الإنسان... ولقد يغلب أحد جوانب الكيان في لحظة وتتوارى بقية الجوانب أو تنحسر، ولكنها لا تنفصل قط وإلا فإنّها تموت»[3].

---

(1) عبد الرحمٰن النحلاوي: **أصول التربية الإسلامية**، ص: 61.
(2) أنور الجندي: **التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام**، ص: 187.
(3) محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**، 1/ 24.

ولذلك كان من الطبيعي أن تسعى التربية الإسلامية لتحقيق الشخصية الإسلامية الشاملة والمتكاملة من كافة الجوانب، على الرغم من قناعة المسلمين بأنّ أحداً غير الرسول لم ولن يستطع بلوغها. ولطالما أنّ شخصية الرسول هي القدوة والأسوة الحسنة التي سعى ويسعى كل مسلم للقرب منها، فإن هذا يضفي على الأهداف التربوية في الإسلام صفة الشمول.

ولتحقيق مثل هذا الهدف الأسمى المرتبط بالإنسان من كافة جوانب شخصيته، وبالحياة الدنيا والآخرة على حد سواء، كان لا بد من اعتماد منهج تربوي يتصف بالشمول على قاعدة الارتباط الكامل بالدين وتعاليمه وقيمه. ومعلوم أنّ الإسلام «يشمل حياة الإنسان من جميع وجوهها مادية كانت، أم مدنية، أم اقتصادية، أم أخلاقية، أو روحية»[1]، لأنّ التصور الإسلامي للإنسان والكون تصور يتصف بالشمول... هذه الصفة التي لم تتأت لغيره من الأديان.

وانعكاس صفة الشمول والتكامل على التربية الإسلامية لم تقتصر على شخصية المتعلم، والأهداف والمنهج الدراسي، وإنّما تخطت ذلك إلى المكان «بمعنى أنّها لا تقتصر على مكان دون مكان، فهي تتم في المدرسة، والمسجد، والشارع، والحقل، وميدان القتال وساحة القضاء. وكل إنسان في هذه التربية المتكاملة معلم طالما كان لديه ما يعطيه. والرسول ﷺ يقول: **«الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها»**[2]. وقد كان المعلم الأول ﷺ يتعلم مع أصحابه ما لا يعلمه، وكان في الوقت ذاته يعلمهم في المسجد والشارع والمنزل، وفي كل مكان يكون (التعليم) فيه ضرورة»[3].

وكذلك كان شأن الخلفاء الراشدين من بعده الذين كانوا معلمين قبل أن يكونوا حكاماً ومسؤولين. مما يعزز القناعة بأن التربية الإسلامية تربية شاملة ومتكاملة، لأنها ليست جزئية الغرض علاوة على أنّها تعتمد على منهج شامل ومتكامل، اعتنى بالإنسان ككل دون أن يقيد ذلك بزمان أو مكان.

---

(1) محمد فاضل الجمالي: **آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية**، ص: 129.

(2) العجلوني: **كشف الخفاء**، 1/ 435.

(3) عبد الغني عبود: **في التربية الإسلامية**، ص: 106.

3 ـ التوازن

إنّ هذه الخاصية ملازمة لخاصية الشمول ـ التي سبق الحديث عنها ـ ذلك لأنّ التربية الإسلامية تعبر عن التصوّر الإسلامي الذي يتصف بالشمول والتوازن. والتوازن في الحقيقة «سمة الكون كله الذي تتوازن فيه كل الأفلاك وكل الطاقات، لا تختل منها واحدة في الكون على اتساعه. وهو كذلك سمة الإنسان الصالح الذي يفي بشروط الخلافة عن الله في الأرض، ويسير حسب منهج الله خالق الكون والإنسان. والوصول إلى التوازن في حياة الإنسان... ليس أمراً هيناً في الحقيقة»[1]. ومن هنا كان حرص التربية الإسلامية على «تحقيق التوازن في تربية الفرد بين الجسم والروح. فالجسم مطية الروح في أداء واجباتها. ولا رهبنة في الإسلام عكس التربية المسيحية. كما أنّه لا إغراق في ماديات الحياة كالفلسفات المادية وإنّما يأخذ الإنسان المسلم من حظ الروح بنصيب، ومن حظ المادة بنصيب»[2].

وتحقيق هذا التوازن يستلزم عملاً تربوياً وتعليمياً مستمراً يستغرق حياة الإنسان كلها، ويشمل كل لحظة من لحظات حياته على أمل أن يتمكن من التوفيق بين الضرورات القاهرة، والأشواق الطائرة وبين ما يجب أن يكون، وما يمكن أن يكون، وبين مطالب الفرد الواحد المتعددة والمتعارضة وبين مطالب المجموع، وبين العمل للعاجلة، والعمل للآجلة وبين هذه اللحظة، وهذا الفرد، وهذا الجيل، وبين جميع اللحظات، وجميع الأفراد، وجميع الأجيال»[3].

وسعت التربية لتحقيق ذلك عن طريق «إيجاد التوازن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[4]... وهذا التوازن يميز التربية عن غيرها، فهي ليست تربية صوفية ورهبانية، كما أنها ليست دنيوية فقط ولا أخروية فقط. وهي ليست فردية فقط، أو اجتماعية فقط، وإنّما مزيج متوازن من كل ذلك. وهذا الموقف المتوازن للتربية

(1) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 28.
(2) محمد منير مرسي: التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص: 59.
(3) محمد قطب: م. س، ص. ن.
(4) سورة: القصص، الآية: 77.

الإسلامية يجعلها أقرب ما تكون إلى طبيعة الأشياء فخير الأمور أوساطها»[1].

ولذلك فإنّ اختلال التوازن بين القوى المختلفة للإنسان، والمجتمع جعل الناس تخرج عن جادة الحق والصواب. فما يلحق بهم من شقاء، هو نتيجة لازمة لاختلال هذا التوازن الذي يمثل روح الإسلام وجوهره، وبه تكون التربية الإسلامية أقرب ما تكون إلى فطرة الإنسان التي فطر الله الناس عليها.

4 ـ العمل والسلوك

إنّ التربية في الإسلام ليست مظهراً من مظاهر الترف الفكري، وإنّما وليد حاجة عملية تتعلق بنظرة الإسلام إلى الإنسان المكلف بخلافة الله وعمارة الأرض. وحتى يتأتى للإنسان أن يقوم بالمهمة المنوطة به، كان لا بد له من تربية عملية تساعده على تحقيق هذا الهدف. ولذلك كانت التربية الإسلامية تربية عملية بدليل أن الرسول ﷺ لم يخالف قوله فعله. وكان قدوة للمسلمين في التزامه بالأخلاق الحميدة قبل أن يدعو إليها. ومعلوم أنّ القدوة تعتبر إحدى أهم الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية «فالمعلم ـ كبيراً كان أو صغيراً تاجراً، أو مشترياً حاكماً، أو محكوماً ـ قدوة لما يدعو إليه، يأمر بالبر والخير ويلتزم بهما فيكون التزامه بهما أصدق وأبلغ أثراً من دعوته إليهما أو أمره بهما وهو لا يدعو إلى شيء، إلّا إذا كان صورة لما يدعو إليه»[2].

فعلى المتعلم في هذه التربية أن يمارس ما يتعلمه تماماً مثلما كان يفعل صحابة رسول الله ﷺ الذين كانوا يحفظون آيات القرآن عشر آيات، عشر آيات لا ينتقلون من عشر آيات منها إلّا إذا ترجموها إلى واقع حي وسلوك عملي[3].

فالعلم المجرد عن العمل كارثة ووبال على صاحبه «لأنّ المنزلة التي احتلها العلماء في الإسلام لم يحتلوها لمجرد علمهم، بل لما يترتب على هذا العلم من آثار حيث يكون العالم أقدر على القيام بمهام الاستخلاف من الجاهل»[4].

---

(1) عبدالغني النوري: التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ص: 50.
(2) عبد الغني عبود: دراسة مقارنة لتاريخ التربية، ص: 202.
(3) انظر: الطبري: جامع بيان العلم، 1/ 35.
(4) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص: 74.

والرسول بمنهجه التربوي يبرز قيمة العمل في ميزان الإسلام وتقديره للعاملين المخلصين الذين قال فيهم رب العالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝﴾[1]. مما يعني أنّ التربية التي يدعو إليها الإسلام تربية أدائية عملية تقوم على الخبرة والعمل، سواء في العبادات أم المعاملات، بحيث يكتسب الفرد المسلم خبرات خلقية، واتجاهات سلوكية ومهارات حركية تنسجم مع تعاليم الإسلام ونظرته إلى الكون والإنسان. وهو ما يميز التربية الإسلامية عن غيرها لأنها لا تكتفي بالقول وإنما تتخطاه للعمل والممارسة في كل شأن من شؤون الحياة الدينية أو الدنيوية.

5 ـ الفردية والاجتماعية

تكتسب التربية الإسلامية هذه الخاصية لاعتبارين. **الأول**: لأنها مسؤولية فردية واجتماعية، **والثاني**: لأن هدفها النهوض بالفرد والمجتمع من دونما تمييز بينهما. ويتجلى ذلك من خلال «ما تضمنه القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة من حث المؤمنين على طلب العلم وارتشاف مناهله (من المهد إلى اللحد)، كان دافعاً لتعلق المسلمين بالعلم بحيث عدّ طلبه والسعي إليه تقليداً من تقاليد الإسلام يتناقله الخلف عن السلف، وأصبح العلماء عنصراً مميزاً يتطلع إليه المسلمون بعين الاعتبار والتكريم والاحترام»[2].

والرسول ﷺ عندما يقول بأنّ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[3]. يحمل كل مسلم بالغ راشد مسؤولية تربية وتعليم نفسه، ويدفعه لأداء هذه الفريضة التي يعتبر القيام بها إمّا فرض عين، وإمّا فرض كفاية. فهي فرض عين عندما يتعلق ذلك بتحصيل «العلم بكيفية العمل الواجب، فمن علم العمل الواجب وَوَقت وجوبه فقد علم العمل الذي هو فرض عين»[4]... وهي فرض كفاية عندما تتعلق بالعلم، الذي «لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب... والحساب... وغيرها...

---

(1) سورة: الكهف، الآية: 30.

(2) عبد الغني عبود: **في التربية الإسلامية**، ص: 104.

(3) الطبراني: **المعجم الكبير**، 10/ 195.

(4) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 27.

وهذه العلوم التي لو خلا البلد ممّن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين»[1].

والمسؤولية الفردية في التربية الإسلامية لا تتناقض مع المسؤولية الجماعية ولا يلغي أي منهما الآخر. ففي عهد الرسول كان المسلمون يتدافعون لتحصيل العلم بمبادرات ذاتية. وكان الرسول ومن معه من أهل الحل والعقد يعلمون الناس أنّى سنحت الفرصة لذلك. وحذا الخلفاء الراشدون حذو الرسول عندما أصبحوا ممثلين للجماعة. وبدا ذلك واضحاً من خلال الدور الذي لعبه عمر في هذا المجال فقد كان «مربياً بطبعه وفطرته. فكان هو أستاذ التربية في المدينة يربي في المسجد وفي السوق وكان على كل حالاته مربياً»[2].

ومع تطور المجتمع الإسلامي كان للجماعة الإسلامية دور تربوي بارز في مواجهة التيارات الفكرية الغريبة عن الإسلام. وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال الإجراءات التي اتخذها عمر بن الخطاب ﷺ عندما «اختار أمراء الأمصار من فقهاء الصحابة ليكونوا حكاماً مربين، كما كان يبعث معهم رجالاً خصصهم للعلم والتربية... وكان يحرص على أن يكون أمراء الأمصار رجال تربية ومواساة لا رجال حكم وجبروت»[3].

والدعوة للتعلم وفق التصور الإسلامي للفرد والمجتمع لم تقتصر على ظرف دون الآخر. فقد كان الرسول ﷺ واضحاً كل الوضوح عندما حدد الغاية الأساسية لبعثته من خلال مقالته: «إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[4]. فإعلان الرسول ﷺ عن أن مهمته تقوم أصلاً على تحقيق الأخلاق الحميدة، يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنّ التربية الإسلامية ما كانت إلّا لضمان حق كل من الفرد والجماعة من دونما تمييز، إذ ليس من حق أي منهما أن يحقق سعادته على حساب الآخر. وفي هذا الاتجاه يدعو الرسول ﷺ المسلمين لنبذ التباغض وبحثهم على أن يكونوا

(1) الغزالي: إحياء علوم الدين، 1/ 27.
(2) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص: 45.
(3) محمد شديد: م. ن، ص: 42؛ انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، 2/ 260.
(4) البيهقي: السنن الكبرى، 10/ 192.

إخواناً حيث يقول: «**لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام**»[1].

والفرائض التي فرض على كل مسلم أداؤها ما هي إلّا تمارين متكررة، تساعده المواظبة على أدائها أن يتمتع بأخلاق حميدة بحيث يظل محافظاً على هذه الأخلاق مهما تغيرت الظروف أو تبدلت الأحوال. فالعبادات كلها «مدارج الكمال المنشود، وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها ولهذه السجايا الكريمة ـ التي ترتبط بها أو تنشأ عنها ـ أعطيت منزلة كبيرة في دين الله. فإذا لم يستفد المرء منها ما يذكر قلبه وينقي لبه، ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى»[2]. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾[3].

فالتربية الإسلامية والتي هي في الأصل تربية مستمرة تقوم على «تربية الإنسان تربية فردية ذاتية، فهي تربّيه على الفضيلة ليكون مصدر خير للجماعة وتحمله مسؤولية أعماله وتصرفاته فكل امرىء بما كسب رهين»[4]. يقول تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾[5]. ويقول الرسول ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...**»[6]. وهنا يتجلى التكامل بين التربية الفردية والاجتماعية فعلى الرغم من عناية الإسلام بالتربية الذاتية إلّا أنّ هذه التربية في الإسلام تعتبر مدخلاً لتربية الفرد تربية اجتماعية تكافلية. لأنّه كما يقول الرسول ﷺ: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[7]. فمثلما أنّ «الفرد كل له أجزاء فهو أيضاً جزء من كل هو المجتمع»[8]. ولقد كان الرسول ﷺ

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، 8/ 35.
(2) محمد الغزالي: **خلق المسلم**، ص: 9 ـ 10.
(3) سورة: طه، الآية: 74.
(4) عبد الغني النوري: **التربية الإسلامية بيت الأصالة والمعاصرة**، ص: 49.
(5) سورة: الزلزلة، الآيتان: 7 ـ 8.
(6) البخاري: م. س، 2/ 33، 9/ 111.
(7) مسلم: **صحيح مسلم**، 4/ 1999.
(8) علي أحمد مدكور: **منهج التربية في التصور الإسلامي**، ص: 197.

واضحاً كل الوضوح في تحديد طبيعة العلاقة التي يجب أن تسود بين الفرد والجماعة.

فعلى الرغم من أنّ الفردية والجماعية تمثلان خَطّين متناقضين إلّا أنّهما مترابطان ومتكاملان، والإسلام ينبّه «إلى الطبيعة المزدوجة في هذا الكائن البشري الذي تبدو متناقضة حين ينظر إليها من السطح. ولكنّها مع ذلك مترابطة وهي تؤدي مهمتها في حياة الكائن البشري بتناقضها ذلك وترابطها. كما يؤدي مهمته الحب والكره، والرجاء والخوف، والسلبية والإيجابية، والحسية والمعنوية والإيمان بالواقع والإيمان بما وراء الواقع. ويخرج لنا بالنهاية مخلوقاً متعدد الجوانب موحد الكيان»[1].

فالتربية المستمرة في الإسلام تسعى من خلال حُسْن الخلق لتحقيق فردية الفرد وجماعية الجماعة تعمل في الوقت نفسه على تقليص الهوة بين الفرد والجماعة إلى أقصى الحدود، عندما تضع لهما أسساً واضحة للتعامل، فيما بينهما تقوم على «الحب في الله والبغض في الله». وهذا دليل عافية وإيمان لأنه يقود إلى قيام مجتمع موحد الرؤية تسوده المحبة والوئام كما في قوله ﷺ: **«لا تؤمنوا حتى تحابوا»**[2]. فالسعي للحفاظ على مصلحة الفرد، والمجتمع هو دأب التربية الإسلامية التي لا تفرط بحق لأحد أو واجب على أحد.

6 ـ الحرية

تعتبر الحرية من أهم الخصائص الملازمة للتربية الإسلامية المستمرة انطلاقاً من نظرة الإسلام للإنسان والمجتمع، لذا فالحرية من أبرز مقومات بناء المجتمع الإسلامي. والله ﷻ «خلق الإنسان حراً لأنّه جعله مسؤولاً عن تنفيذ منهجه في الأرض. فالإنسان حر لأنه مسؤول فالحرية تتبع المسؤولية والمسؤولية تستلزم الحرية»[3].

---

(1) محمد قطب: **منهج التربية الإسلامية**، 1/ 163.
(2) مسلم: **صحيح مسلم**، 1/ 74.
(3) علي مدكور: **منهج تعليم الكبار**، ص: 128.

ولقد قام المجتمع الإسلامي على ضمان حرية أبنائه وترك «لكل فرد الحرية التامة في أن يبني عقيدته على ما يصل إليه عقله السليم ونظره الصحيح، وجعل أساس الإيمان وعماد التوحيد البحث والنظر والعقل الدليل»[1] يقول تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[2].

ولذلك سعت التربية الإسلامية إلى بناء المجتمع على أساس «إطلاق الرأي، والنظر في العلم في دائرة الأصول الإسلامية، ولم يردع أحد عن رأي، ونحله ولكنه إن أخطأ أحد يبين له خطأه أو تقصيره بالتي هي أحسن إلّا إذا تبين منه قصد التضليل»[3].

فالحرية وفق التربية الإسلامية تقوم على قاعدة من سلامة العقيدة ومبادىء الحق والعدل. فعن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»[4].

وفي هذا الجو من الحرية المسؤولة تابع المسلمون تحصيلهم العلمي، فكان «للطالب حرية الاختيار والتنقل بين الشيوخ وفق رغبته وتفاوتهم في العلم. ويعتمد تقدم الطالب على اختياره وقدراته وإنجازه»[5].

ولا شك في أنّ «حرية التعليم وبعده عن هيمنة الدولة ظلا سمة مميزة له طوال القرون اللاحقة، إلى أن ظهرت المدارس والجامعات الأولى في الإسلام تلك التي رعتها الدولة، غير أنّها لم تكن في الحقيقة تحت إشراف الدولة إلّا من حيث إمدادها بالنفقات ومساعدتها على البقاء. فقد استمرت حرية التعليم بعد ظهور تلك

(1) عبدالله غوشة: «فلسفة الحريات في الإسلام» في مجموعة بحوث الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، ص: 108.
(2) سورة: البقرة، الآية: 256.
(3) محمد الطاهر بن عاشور: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص: 174.
(4) البخاري: صحيح البخاري، 9/ 139.
(5) عبد العزيز الدوري: «مدخل تاريخي»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات، 1/ 24.

المؤسسات»[1]. فعلى الرغم من كثرة انتشار المدارس في القرنين السادس والسابع الهجريين (الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) إلّا أنّ ذلك لم يؤثر على استمرار نشاط التعليم الحر في المساجد والجوامع والبيوت وغيرها. فلقد ظلت الدراسة الحرة هي الأساس الذي قامت عليه الحركة الفكرية العربية»[2].

وقد كان الانفتاح على الثقافات الأخرى ثمرة من ثمرات هذه الحرية، التي سمحت لكثيرين من غير المسلمين أن يسهموا في دفع حركة الحضارة الإسلامية إلى الأمام. ولا ريب أنّ «الدفعة التي أحيت الحضارة في رقعة الدولة الإسلامية هي التي سمحت ببقاء ما بقي من حضارة الفراعنة والإغريق والفرس والهنود، ولولا قوة (موجبة) في العبقرية العربية، لما جاءت تلك الدفعة ولا تيسرت تلك الحضانة»[3].

فانفتاح التربية الإسلامية على الآخر ينبع من سماحة هذه التربية وإنسانيتها وتفاعلها الإيجابي مع الجميع، لأنها تربية عالمية لا يُقيدها لون أو لسان أو زمان أو مكان.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[4]. ويقول الرسول ﷺ: «**لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى**»[5]. ومما لا شك فيه أنّ إنسانية التربية الإسلامية وعالميتها عززتا مناخ الحرية الذي ميز التربية على المستويين الفكري والعملي.

7 ـ الأصالة والتجدد

إنّ التربية الإسلامية التي تهدف إلى تحقيق الإسلام ـ كما أراده الله تعالى ـ

---

(1) أكرم ضياء العمري: «**التعليم في عصر السيرة والراشدين**»، في **التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 1/ 59.

(2) بشار عواد معروف: «**مؤسسات التعليم في العراق بين القرنين الخامس والسابع الهجريين**»، في **التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات**، 2/ 397.

(3) عباس محمود العقاد: **أثر العرب في الحضارة الأوروبية**، ص: 32.

(4) سورة: الحجرات، الآية: 13.

(5) أحمد بن حنبل: **مسند الإمام أحمد**، 5/ 411.

تجعل من مصادر الإسلام نفسها مصادر لها. ومعلوم أنّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما المصدران الرئيسان للإسلام. وقد احتوى هذان المصدران على المبادىء السماوية الخالدة والتقاليد الراسخة الثابتة والقيم الأصيلة العريقة التي «تمتد بجذورها في التاريخ... وتعمل التربية الإسلامية على استمرار هذه المبادىء والتقاليد والقيم ونقلها إلى الأجيال الإسلامية المتعاقبة. وهي بهذا تقوم بالدور الأصيل للتربية المتمثل في التنشئة الاجتماعية للأفراد، وتشكيل شخصياتهم الإنسانية والإسلامية ليشبوا مسلمين. ولكن التربية الإسلامية ليست تربية محافظة فحسب وإنما هي تربية مجددة أيضاً فالإسلام صالح لكل زمان ومكان والمسلمون تتجدد أحوالهم بتجدد ظروف هذا الزمان والمكان»[1].

فالحفاظ على الخصائص الجوهرية والبذور الحقيقية للإسلام لا يتناقض مع التجدد، ومواكبة حركة التطور في المجتمع الإسلامي. فالقرآن الكريم يقرر «أنّ التطور سنّة من سنن الحياة وأنّ الله ﷻ لا يتوقف عن إحداث الجديد في الكون ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2]. ولذلك يتوجب على الإنسان أن يتخطى حاجز الإلفة والعادة ويتكيف مع الجديد من (شؤون الله) وإلّا وقع في الحيرة والاضطراب... والرسول ﷺ لم يمنع من استحداث ما يوافق هذا التطور إنّما اشترط أن يكون المستحدث الجديد موافقاً للأصول الإسلامية حتى لا يصدم بسنة الخليقة»[3] وهو ما عبر عنه في قوله ﷺ: «**من سنّ في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء**»[4].

وتتجلى أصالة الإسلام من خلال «قدرته على تكييف الإلهام الدخيل وفق حاجاته، وفي خلقه إياه خلقاً جديداً يسبغ عليه طابعه الخاص، وفي نبذه كل ما لا يقبل التكيف»[5]. فكان لهذه الخاصية تأثيرها المباشر على التربية الإسلامية التي

---

(1) عبد الغني النوري: **التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة**، ص: 52.
(2) سورة: الرحمٰن، الآية: 29.
(3) ماجد عرسان الكيلاني: **تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية**، ص: 60.
(4) مسلم: **صحيح مسلم**، 2/ 705، 4/ 2059.
(5) سعيد عبد الفتاح عاشور: **المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية**، ص: 17.

اتصفت بالمرونة، وقدرتها على التكيف مع مختلف الظروف والبيئات والأحوال والثقافات، بحيث يؤخذ ما هو نافع مفيد ويوظف من أجل المساعدة على نمو وتطوير الحياة وفق هدي الإسلام وتعاليمه وأهدافه.

الأوجه المختلفة لتعليم الكبار في الإسلام:

إنّ الأسس التي استندت إليها التربية الإسلامية جعلت من التعليم ظاهرة من الظواهر التي تميز بها المجتمع الإسلامي خلال القرون الأولى لظهور الدعوة الإسلامية، حيث نجح القيّمون على هذا المجتمع ـ إلى حد بعيد ـ في أن يجعلوا منه مجتمعاً معلماً متعلماً يسعى السواد الأعظم من أبنائه للتعلم والتعليم أنّى سنحت الفرصة لذلك. فكان من الطبيعي ـ على ضوء هذا الواقع ـ أن تتعدد أوجه التعليم في هذا المجتمع خاصة تلك التي استهدفت كبار المتعلمين. ويمكن من خلال مجريات البحث الوقوف على عدد من أبرز أوجه تعليم الكبار التي شهدتها الساحة العربية الإسلامية ويأتي في طليعتها:

1 ـ التعليم الأساسي

يقوم هذا التعليم من الوجهة الإسلامية على محو الأمية بمعناها الشامل، أي السير في طريق العلم بمنحييه الديني والدنيوي. «فعلم الدين لازم للمسلم من حيث هو مسلم. وعلم الدنيا لازم له من حيث هو إنسان يعيش في مجتمع له متطلباته وعليه ضغوطه»[1]. ولذلك فإنّ العلم المرغوب فيه هو ذلك العلم الذي «ينتظم كل ما يتصل بالحياة ولا يقتصر على الشريعة أو العلم الديني»[2].

فحتى تتحقق مصلحة الفرد المسلم، والجماعة المسلمة كان لا بد من العلم شعاراً يرفع ويعمل به ليكون وسيلة لترسيخ العقيدة في قلوب المسلمين. ومن هنا كان من الطبيعي أن تدعو آيات القرآن الكريم إلى القراءة والتعلم... والقراءة في الإسلام يتبعها العمل وهي مفتاح للعلم للاستفادة منه وتطبيقه. ولذلك فإنّ محو

(1) عبد الغني عبود: «الأيديولوجيا والتربية في الإسلام»، في الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، ص: 28.

(2) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص: 138.

الأمية الأبجدية بالنسبة للرسول ﷺ لم يكن هدفاً بعينه، وإنّما كان وسيلة لأهداف أخرى أبعد باعتباره المدخل الرئيس وليس الوحيد لمحو الأمية بالمعنى الشامل.

ولقد جعل الرسول ﷺ من هذا التعليم مدخلاً لتعليم أعم وأشمل. فكان الإنسان كله عقله وروحه ونفسه وجسده محوراً من محاور التعليم الأساسي بالنسبة له. هذا إلى جانب اهتمامه الكبير بعملية التطبيع الاجتماعي - وفق التصور الإسلامي - والعمل على زيادة الفهم والإدراك عند المسلمين، وزيادة قدرتهم على السيطرة على الطبيعة وزيادة معرفتهم ووعيهم بالحياة بأوسع معانيها.

ولقد عمل الرسول ﷺ على تحقيق ذلك، من خلال إيصال الحد الأدنى من المعلومات الأساسية التي لا بد من إيصالها للمسلمين، الذين كان يعمل على محو أميتهم حتى يتمكنوا من أن يلموا بالعقيدة الإسلامية، ويؤدوا ما كتب عليهم من فرائض، ويتعاملوا بإيجابية مع الناس والأشياء في مجتمع كفل حرية الفرد وحقوق الجماعة. ويكفي أن يعلم المرء أن الله تعالى قد أرسل رسوله للناس، كي يعلمهم أحكام الشريعة الإسلامية التي بنيت على ما عرف بالضرورات الخمس التي تعتبر أمهات لكل الأحكام الشرعية؛ وهي حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ المال، حفظ العرض، وحفظ العقل. ولقد أمضى الرسول ﷺ حياته في تعليم المسلمين المبادىء الأساسية التي تمكنهم من تحقيق هذا الهدف.

وحتى يفهم المسلمون الشريعة الإسلامية ويعملوا بمقتضاها جهد الرسول ﷺ في العمل على محو أميتهم بمستوييها الأبجدي والحضاري. ففي موقعه بدر دفع ﷺ لكل واحد من الأسرى الذي كانوا يتقنون القراءة والكتابة عشرة من أبناء المسلمين يعلمهم فإذا حذقوا فهو فداء[1]. ولا يخفى أن الرسول ﷺ كان في الأيام الأولى للدعوة بمكة يجتمع مع أصحابه من الرجال والنساء سراً في إحدى بيوتات الصفا يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين[2]. وكان بعض الصحابة يقومون بإقراء بعضهم البعض، تماماً مثلما كان يفعل خباب بن الأرت (37 هـ/ 657م) الذي كان يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب وزوجها يقرئهما القرآن من الرقاع[3].

(1) صفي الرحمٰن المباركفوري: الرحيق المختوم، ص: 209.
(2) ابن هشام: السيرة، 1/ 343.
(3) ابن هشام: م. ن، 1/ 344 - 345.

وكان يحفزهم على ذلك تأسيهم بالرسول والتزامهم بتعاليم القرآن الكريم الذي حثت آياته على التعلم والتعليم كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1]. فقد جعلت هذه الآية من طلب العلم فريضة أسهمت في تمكين المسلمين فيما بعد من الوصول إلى درجة من الحضارة لم يبلغها آنذاك شعب من الشعوب أو أمة من الأمم. حتى أنّ عمر بن الخطاب عندما وقع نظره على رجل لا يتقن القراءة والكتابة دفع به إلى الكتاب، حتى يمحو أميته ليكون قادراً على القيام بمهام الاستخلاف وأعباء الرسالة.

كل هذا يشير إلى أنّ التعليم الأساسي للكبار كان بمثابة محو أُميتهم بمستوييها الأبجدي والحضاري. ولقد شكل العمل على محو الأمية بمعناها الشامل محور العملية التعليمية في عهد الرسول، الذي سعى لتعليم المسلمين المنهج الأساسي لحياتهم الدينية والدنيوية. فكان هذا النوع من التعليم بمثابة وضع حجر الأساس للحضارة الإسلامية التي علا بنيانها وشع نورها ليملأ العالم في تلك الفترة من تاريخ الإسلام.

2 ـ التعليم الوظيفي

لا عجب في أن يحظى العلم في الإسلام بقيمة كبيرة ومكانة رفيعة، لأنه الدين الذي جعل من العلم شعاراً فكان أول ما بدأ به الوحي الأمر بالقراءة والإشادة بالعلم. غير أنّ العلم يبقى في نظر المسلمين وسيلة وليس غاية. فالهدف منه يتمثل في تمكين الإنسان من المساهمة بإيجابية وفعالية في عمارة الأرض وترقية الحياة على ظهرها وبالتالي حمل أمانة خلافة الله تعالى فيها.

فللعلم حسب هذه الرؤية وظيفة، وعلى صاحبه أن يستخدمه في شتى نواحي الحياة حتى لا يفهم «أنّ هناك علماً تحشى به الرؤوس. وهناك سلوك آخر ينفصل عن مبدأ ذلك العلم. فإذا انفصل العلم عن أنماط السلوك المتصلة به، انهدرت قيمة

(1) سورة: التوبة، الآية: 122.

العلم، وانهدمت قيمة المعرفة وحينئذٍ يكون الفساد المطبق الذي يصعب بل يستحيل علاجه»[1].

وحتى يؤدي العلم مهمته على الصعيدين الفردي والاجتماعي، يفترض في أن يكون للتعليم وظيفة في حياة المتعلم الراشد، سواء عن طريق ربط الأنشطة التعليمية بأغراضه أو ربط المواد التعليمية بميوله واهتماماته وواجباته... وبذلك يصبح التعليم الأساسي الذي يتلقاه المتعلم تعليماً وظيفياً لأنه يمكنه من قراءة القرآن، وأداء العبادات والتكاليف على الوجه المطلوب الذي - في حال صدقت النية - يجعل من هذه العبادات وسيطاً يقرّبه من الله تعالى، ويسمو به إلى أرفع المستويات الدينية والدنيوية.

ويفترض في تعليم الكبار على مستوى المجتمع كي يكون وظيفياً أن يوجه لخدمة عمليات التقدم والنهوض في كافة مجالات الحياة. وهو ما دعا إليه الرسول ﷺ حسب ما يروى عنه إذ قال مكحول (112 هـ/ 730م): حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: كنا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**تعلّموا ما شئتم أن تعلّموا فليس ينفعكم الله حتى تعملوا**»[2]. فعلى ضوء قول الرسول ﷺ يفترض بمناهج تعليم الكبار عند المسلمين أن تكون وظيفية «تهدف إلى تخريج وتشكيل إنسان مسلم عارف بدينه يتحلى بأخلاق القرآن ويتصرف وفق قواعده ومبادئه، وفي الوقت ذاته تخريج إنسان فاهم للحياة قادر على أن يعيش حياة كريمة في مجتمع حر يقدر أن يعطيه، ويساهم في حركة بنائه ودفعه وتطوير الحياة فيه من خلال عمل معين يتقنه ويجيده»[3].

ولولا ذلك ما كان لعمر بن الخطاب أن يفي بمتطلبات الدولة الإسلامية الفتية، وما تحتاج إليه من موظفين، لولا هذا النوع من التعليم الذي مكّنه من أن يعد الكتاب المؤهلين لاستلام المهام المختلفة في إدارة شؤون البلاد بعد أن اتسعت أعمال الدولة وتشعب «الديوان إلى ما يختص بحسابات الخراج والجزية وهو ديوان

(1) علي أحمد مدكور: **منهج تعليم الكبار**، ص: 119.
(2) أبو نعيم الأصبهاني: **حلية الأولياء**، 1/ 236؛ الغزالي: **فاتحة العلوم**، ص: 19.
(3) حسن عبد العال: **التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ص: 131.

الخراج، وإلى ما يختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة، وإلى ما يتعلق بغير ذلك مثل ديوان الإقطاع، وديوان المعادن، وإلى ما يختص بتدوين أسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو ديوان الجند»[1]، وما تفرع عنه من دواوين خاصة بالأساطيل والثغور وما أفرد من دواوين لمراسلات العمال وغيرها من دواوين الرسائل والإنشاء.

ونتيجة الشعور بأهمية التعلم الوظيفي، وأثره في إدارة شؤون البلاد لم يجد الخلفاء والحكام حرجاً في أن ينخرطوا بمثل هذا النوع من التعليم، فعقدوا لذلك مجالس العلم في قصورهم، وشاركوا في حضور الحلقات العلمية التي كان يديرها من شهد له بعلمه من المعلمين، من أمثال سليمان بن حرب الواشحي (224 هـ/ 839 م) الذي كان يعقد مجلسه «عند قصر المأمون فبنى له شبه منبر فصعد سليمان وحضر حوله جماعة من القواد عليهم السواد والمأمون فوق قصره قد فتح باب القصر وقد أرسل ستر يشف وهو خلفه يكتب ما يملي»[2].

وعمد القيّمون على التأديب في القصور للأخذ بالاتجاه الوظيفي للتعليم، لأنهم كانوا يسعون لـ «تأهيل أبناء الخاصة للوظائف التي يتوقع منهم أن يشغلوها»[3].

ولا يخفى أنه بعد تطور نظام المدرسة في الإسلام أصبحت هذه المؤسسة مؤسسة رسمية تابعة للدولة وتزودها بما تحتاج إليه من عمال وموظفين. فالنظامية على سبيل المثال كانت «من جهة حلقة لتدريس الشرع السني التقليدي والفقه السني... وكانت من الناحية الأخرى كلية لإعداد الموظفين المدنيين»[4].

والحقيقة أنه بفضل هذا النوع من التعليم تمكن المسلمون عامتهم وخاصتهم من أن يتغلبوا على ما واجههم من عقبات سواء على مستوى العبادة والحياة اليومية، أو على مستوى البناء والإعمار وإدارة شؤون البلاد. وقد ساعدهم على ذلك عدد

(1) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي، 1/ 118.
(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، 9/ 33.
(3) ملكة أبيض: «مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري»، في التربية العربية الإسلامية، المؤسسات والممارسات، 1/ 156.
(4) محمد جواد رضا، العرب والتربية والحضارة، ص: 228.

من الأسباب التي يأتي في مقدمتها تكافؤ الفرص، ومجانية التعليم والانتشار الواسع للعلماء. وكان يحفزهم في كل ذلك موقف الإسلام من العلم وتقديسه له.

3 ـ التعليم المهني

إنّ فعل الأمر «إقرأ» الذي ورد في الآية الكريمة الأولى ـ التي نزلت على قلب الرسول الكريم ـ يشتمل على مضامين تفيد بأنّ العلم مطلب من المطالب الأساسية في الإسلام لكونه واحداً من أهم السبل الموصلة لله تعالى. والرسول ﷺ يشير إلى ذلك عندما يقول: «**من سلك طريقاً يطلب به علماً، سَهّل الله له طريقاً إلى الجنة**»[1]. غير أنّ هذا العلم حتى يوصل صاحبه إلى هذه النهاية السعيدة، لا بد وأن يحدث تغييراً في الشخصية، حتى يتمكن صاحبه من تغيير الحياة على الأرض، وفق ما جاء به القرآن الكريم. ولذلك فإن الله تعالى ينعى على الذين ﴿يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ في قوله جلّ وعلا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[2]. فالعلم في الإسلام مطلب من المطالب الملحّة، إلّا أنّه مطلب لمطلب آخر أهم هو تمكين المسلم من أن يقترب من (الكمال) ومن السيطرة على البيئة التي يعيش فيها[3].

فالتربية الإسلامية رغم اهتمامها الكبير، وسعيها لتحقيق الأهداف الدينية للتعلم، لم تغفل الجانب الدنيوي لهذه الأهداف لأنها «كانت تستهدف تحقيق غايتين **أولاهما**: وأهمهما الإعداد للحياة الآخرة، **وثانيهما**: تمكين الفرد من معرفة طائفة من العلوم والمهارات التي تساعد على النجاح في الحياة الدنيا»[4].

وبما أن تحقيق عمارة الأرض ـ استجابة لدعوة الله تعالى ـ لن يكون إلّا بالعمل. فإنّ احترام العمل والتشجيع عليه يعتبر من أهم أهداف التربية. «فقد كان الرسول ﷺ يدفع أصحابه للعمل ويحثهم عليه، ويخبرهم بأنّ الله يثيب اليد العاملة

---

(1) البخاري: صحيح البخاري، 1/ 45.

(2) سورة: الصف، الآية: 3.

(3) عبد الغني عبود: «فلسفة التربية الإسلامية»، في مجلة التربية، الدوحة، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، السنة 8، العدد 35، ذو القعدة 1399 هـ/ أكتوبر 1979 م، ص: 77.

(4) عبد الله فياض: تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة، ص: 219.

ويحبها. ولأن يأخذ المسلم حبلة فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه بل جعل العمل عبادة تفوق أنواعاً من العبادات. ويقول عليه الصلاة والسلام: «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده. وإنّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»[1]. وروى أبو هريرة عن الرسول ﷺ قوله: «**كان زكريا عليه السلام نجاراً**»[2].

وأجمع علماء المسلمين على أنّ المجتمع الإسلامي لا يقوم إلّا «على العمل، فالكسب الحلال حلال، وجمع المال الحلال حلال، والأنبياء كانوا متكسبين، فآدم أبو البشر عليه السلام كان مزارعاً، وإدريس كان خياطاً، ونوحاً كان نجاراً، وإبراهيم كان بزازاً، وموسى كان أجيراً لشعيب، وعيسى كان يعمل، ومحمد كان راعياً وأجيراً، وكان يتاجر لزوجته»[3].

وحتى تكون الصنعة متقنة كان على من يقوم بها ـ حسب علماء المسلمين ـ أن يكون قد أنهى مرحلة التعليم الأساسي، التي كانت تشتمل على دراسة القرآن الكريم، ومعرفة أصول اللغة وفي حال «تعلم وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك إلى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقه»[4].

ولأنّ الصناعات مختلفة مثلما أنّ الاستعدادات مختلفة أيضاً كان على المربي أن يوجه المتعلم إلى الصنعة التي تناسبه لأنّ «ليس كل صنعة يرومها الصبي ممكنة له مواتية، لكن ما شاكل طبعه وناسبه... فإن أراد به الكتابة أضاف إلى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب، ومناقلات الناس، ومحاوراتهم، وما أشبه وطورح الحساب ودخل به إلى الديوان وعني بخطه وإن أريد أخرى أخذ به فيها»[5].

فابن سينا بكلامه هذا يؤكد على وجود نوع من التخصص المهني. وهذا مؤشر إلى أنّ التعليم المهني كان من أنواع التعليم التي ازدهرت في المجتمع الإسلامي، مواكبة تطوره وتقدمه في مجالات الحياة المختلفة، خاصة العملية

(1) البخاري: **صحيح البخاري**، 3/ 121.
(2) مسلم: **صحيح مسلم**، 4/ 1847.
(3) محمد منير مرسي: **التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية**، ص: 62.
(4) ابن سينا: **كتاب السياسة، في التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات**، ص: 40.
(5) ابن سينا: **كتاب السياسة، في التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات**، ص: 40.

منها... فمع هذا التقدم العلمي وتعدد العلوم وكثرتها، تعذر على الطالب آنذاك أن يتقن الثقافة بجميع فروعها. وكان عليه أن يتخصص في فرع أو أكثر من فروع العلم والمعرفة ـ حيث ـ كان هناك: فقهاء، ومنجمون، وأطباء، ومفسرون، ومحدثون، ومتكلمون، وشعراء، ونسابون، ونحويون، وعروضيون، وحسابون، ومهندسون، وفلاسفة. وقد كان هؤلاء مقربين من الحكام[1]. للإفادة منهم في إدارة تنظيم شؤون البلاد.

ومن العوامل التي ساعدت على التخصص المهني في تلك الفترة ظهور ما عرف بطوائف المهن التي ترافقت مع نشوء المدن لأنه عندما «نشأت المدن الإسلامية قامت في كل مدينة توزيعات طوبوغرافية ضمن كل واحدة منها أصحاب حرفة واحدة»[2]. ولقد أدى ذلك إلى «نشأة نظام النقابات الذي يعتبر النظام الشعبي الوحيد في الخلافة الإسلامية. فقد كانت كل طائفة من التجار وأصحاب الحرف تتجمع في مكان واحد تتسمى به. وكان نتيجة ذلك إيجاد تدرج مهني في الجماعة الواحدة من شيخ ومعلم ومتعلم وصانع وصبيان»[3].

وكان المتعلمون يستفيدون من الكتب المتخصصة في الصناعات المختلفة التي كانت معروفة في ذلك الوقت. فمن أشهر الذين ألّفوا في الطب مثلاً أبو بكر الرازي (313 هـ/ 925م)، وعلي بن العباس المجوسي (نحو 400 هـ/ 1010م)، وابن سينا الذي خلّف «كثيراً من الكتب في الطب أشهرها كتاب القانون الذي كان يدرس في مدارس الطب في آسيا وأوروبا، وأكثر من ستة قرون، وخاصة ما يتعلق منه بعلم الصحة والرضاع والشروط التي يجب أن تتوافر فيمن ترضع الطفل سواء أكانت أم الطفل أو امرأة أخرى»[4].

وتجدر الإشارة إلى «إنشاء المدارس الطبية في العصر العباسي، وعقد المؤتمرات الطبية في مناسبات الحج، وكان يطلق على مدير المارستان إذا كان سريانياً اسم (الساعور) وهذا يعني بالسريانية متفقد المرضى، وإذا كان مسلماً فيطلق

(1) عبد العزيز عزت: **ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها**، ص: 60.
(2) محمد كاظم مكي: **المدخل إلى حضارة العصر العباسي**، ص: 302.
(3) عبد المنعم ماجد: **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، ص: 86.
(4) محمد كاظم مكي: **المدخل إلى حضارة العصر العباسي**، ص: 384.

عليه اسم رئيس الأطباء، وهو الذي يشرف على الأطباء ويأمر بممارسة مهنة الطب»[1].

ولا يخفى أنه بسبب تطور المجتمع العربي الإسلامي، زادت الحاجة إلى التخصص المهني بمستوياته وأنواعه المختلفة. فكان من الطبيعي أن يتحول الصغار والكبار إلى مثل هذا النوع من التعليم، الذي يوفر لهم الكفايات التربوية والمهنية التي تمكنهم من أن يحذقوا في المهنة أو الصنعة التي ارتضوها وسيلة لكسب العيش وعمارة الأرض.

4 ـ التعليم الذاتي

إنّ التعلم مسألة شخصية فردية، فالمعلم لن يكون بمقدوره أن يتحكم بهذه العملية منفرداً. فحتى تتم لا بد من مشاركة المتعلم وتعاونه بفعالية لأن التغير السلوكي ـ المرغوب فيه ـ للمتعلم يعتمد على قدرته على توجيه ذاته بذاته. وعندما يتأتى التغيير في السلوك بعيداً عن نظر الطرف الآخر للعملية يطلق على هذا النوع من التعليم اسم «التعليم الذاتي» أي «التعلم الذي يحصل نتيجة تعلم الفرد نفسه بنفسه. وهو التعلم الحقيقي ولا تعلم سواه، وهو يتم عن طريق تفاعل التلميذ مع بيئته في مواقف مختلفة يجد فيها اشباعاً لدوافعه... ويعتبر التعلم الذاتي الوسيلة إلى التعلم المستمر الذي يلازم الإنسان طيلة حياته من المهد إلى اللحد الذي دعا إليه الرسول ﷺ»[2].

ومن أوجه التعبير عن هذا النوع من أنواع التعليم: تلاوة القرآن الكريم ودراسته ومذاكرته وتفهم معناه. يقول الرسول ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[3]. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت**

---

(1) محمد كاظم مكي: م. ن، ص. ن.

(2) عبد الرحيم صالح عبدالله: «**التعليم الذاتي بين الأهداف والوسائل في مواجهة الانفجار المعرفي**»، في مجلة التربية، الدوحة، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، العدد 47، رمضان 1401 هـ/ يوليو 1981 م، ص: 78.

(3) البخاري: **صحيح البخاري**، 6/ 330.

من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة»[1].

فهذه دعوة مستمرة ودائمة لكل مسلم ومسلمة، في كل زمان ومكان للمثابرة «على الاتصال بالقرآن ومعانيه، وما فيه من حكمة بالغة في كل وقت وفي أي مرحلة من مراحل العمر. ومعروف أن القرآن طبّع في مسايرته لحضارات البشرية لا يمكن أن يتخلف عنها. وإذا فهو ينطق بالجديد دائماً. ويثري بكل ما تتفتح له الأذهان وتتفتق به أفهام الأنام في كل زمان ومكان... ومن ثم فالدعوة إلى دوام مدارسته إنّما هي في واقع الأمر دعوة إلى استدامة التعلم بكشف الجديد الذي يحمله هذا الكتاب المقدس، وإماطة اللثام عمّا خفي من قبل على العقول من المعارف والخبرات»[2].

فقراءة القرآن ومذاكرته تعتبر من إحدى أهم طرق المعرفة الحقيقية. ولذلك يجب أن تكون هذه القراءة قراءة واعية وعميقة، وليس مجرد عمل روتيني سطحي. وهو ما يلفت إليه الغزالي قائلاً: «فإني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك المتخذ دراسة القرآن عملاً، المتلقن من معانيه ظواهر وجملاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها أو ما كان لك أن تركب مجد لجتها لتبصر عجائبها، وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها، وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها، أو ما تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجوهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها، أما بَلَغَك أنّ القرآن هو البحر المحيط منه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها»[3].

والقرآن الكريم عندما يدعو إلى تحرير العقل، ويطالب المسلمين بالتأمل الواعي والتفكير، إنّما يكرس مبدأ التعلم الذاتي الذي يعتبر ركيزة من ركائز التربية

(1) أبو داود: سنن أبي داود، 2/ 148.

(2) حسين سليمان قورة: «التربية مدى الحياة أساس واضح في منهج التربية الإسلامية، في مجلة التربية، الدوحة، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، جمادى الأولى 1396 هـ/ مايو 1976 م، العدد 15، ص: 37.

(3) الغزالي: جواهر القرآن ودرره، ص: 8.

المستمرة مدى الحياة. ولقد أحدث القرآن الكريم بهذا التوجه ثورة على الرسالات السابقة التي كانت «تعتمد في الاقناع على المعجزات الحسية التي ترغم على التصديق والإيمان، فجاء القرآن بمنهج جديد يتفق مع ما يراد للبشر من اكتمال ورشد، منهج العقل والتدبر والنظر والتفكير»[1]. منهج يدعو إلى التأمل في ملكوت السمٰوات والأرض وجميع ما خلق الله «وفي الإنسان نفسه فهو عالم وحده... وفي سير التاريخ البشري ومصاير الأمم وسنن الله في الاجتماع الإنساني»[2].

فعلى ضوء هذه التعاليم تهيأت نفوس المسلمين للتعلم الذاتي، ونشر العلم ومطاردة الأمية التي اشتهر بها العرب قبل ظهور الإسلام الذي طالما حَثَّهم على طلب العلم من المهد إلى اللحد. فكانت العبادات في الإسلام إحدى طرق التعلم الذاتي المستمر مدى الحياة استجابة طبيعية لتوجهات الدين الحنيف في النهوض بالناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولمعرفة أسرار الكون كان لا بد من زيادة الاتصال بالله تعالى، لأنّ هذا الاتصال يزيد الإنسان المسلم اهتداء لهذه الأسرار ومعرفة بسنن الحياة. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[3].

فالعبادات المفروضة وسائر الشعائر التعبيرية ما هي إلّا محطات للتعلم وأخذ العبر، يقف عندها السائرون في الطريق ليزدادوا بالدروس التي تمكنهم من أن يسلكوا «الطريق المستقيم الذي ينهج بهم إلى تقرير العبودية لله وإلى إيجاد الصلة الدائمة بين القلب البشري وبين الله. هذه الصلة هي التي تدفع الإنسان إلى الرجوع إلى الله في كل شيء يعمله وفي كل لحظة يعيشها في هذه الحياة»[4].

فحرص الإسلام على العبادات يوفر نوعاً من التعلم الذاتي الذي يمكن

(1) محمد شديد: **منهج القرآن في التربية**، ص: 155.

(2) يوسف القرضاوي: **الرسول والعلم**، ص: 40. انظر: سورة: الأعراف، الآية: 185، الذاريات، الآية: 21، آل عمران، الآية: 137.

(3) سورة: البقرة، الآية: 186.

(4) محمد طمان: «**أثر العقيدة في بناء الشباب وتربيتهم**»، في مجلة التربية، الدوحة، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، مارس/ آذار 1993، عدد 104، ص: 219.

المتعلم من أن يجتاز امتحان الحياة بنجاح، لأنّ هذا العالم يوفر له «الشحنة الحية التي تعبىء القلب فتكون الهادي له في الطريق. تهديه وهو في خلوته يفكر ويشعر، وتهديه وهو قائم يعمل بيديه وجسمه، وتهديه وهو يلقى إخوته في البشرية ويتعامل معهم. تهديه وتضيء له كالقبس ظلمات الطريق فلا يتعثر. وإنْ تعثر فلا يجثم في عثرته وإنّما ينفض عنه التراب، ويقوم ما دامت الشحنة حية تضيء»[1].

وبفضل رؤية الإسلام للعلم أصبح من أهم ميزات الحضارة الإسلامية حبها «للكتب ونشرها المعرفة عن طريق الكتب، واحتضانها المكتبات، وتصميمها وجعلها في متناول جميع أفراد الشعب دون اعتبار للعمر، أو الجنس، أو الدين، أو اللون، أو الثقافة»[2].

ولا ريب أنّ المسلمين قد نجحوا في أن يستفيدوا كل الفائدة من المكتبات التي كانت متوفرة في أيامهم. وكان ذلك بفضل حسن استخدامهم للمواد التي توفرت لديهم في هذه المكتبات. «فالمأمون الذكي الطلعة استفاد فائدة كبرى من مطالعاته في مكتباته... وكذلك الجاحظ العالم الموسوعي الذي جمع فأوعى فألف المؤلفات العظيمة استفاد كل الفائدة من دكاكين الوراقين... وإنّ «الفهرست» لابن النديم كان ثمرة لاشتغال مؤلفه النشيط بالوراقة، والنسخ... هذا وإنّ... ابن سينا مدين بعلمه ومطالعاته وكتبه، ومؤلفاته إلى مطالعاته، وحسن استفادته من محتويات مكتبة السلطان نوح بن منصور الساماني (387 هـ/ 997م)... كذلك استفاد المؤرخ الكبير ابن مسكويه (421 هـ/ 1030م) من كونه خازناً لمكتبتين من أشهر مكتبات عصره وهما مكتبة عضد الدولة البويهي (5372 هـ/ 983م)، ومكتبة ابن العميد (360 هـ/ 970 م) فاستمد مادة كتبه في التاريخ والأخلاق منهما»[3].

وتعتبر الرّحلات التي كان يقوم بها الرّحالة والمؤرخون مظهراً آخر من مظاهر التعلم الذاتي في المجتمع الإسلامي. فقد كان هؤلاء يجوبون البلاد ويقفون على أحوالها، وأخبارها، وآخر ما وصلت إليه من تقدم وعمران وحضارة فيستفيدوا

(1) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، 1/ 37.
(2) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص: 9.
(3) سعد مرسي أحمد: تطور الفكر التربوي، ص: 228.

مما يطلعون عليه بأنفسهم، ثم يفيدوا غيرهم من خلال تأليف الكتب ووضعها بين أيدي الناس، لينتفع كل صاحب حاجة بالجانب الذي يعنيه من العلوم. وهو ما يشير إليه المقدسي عندما يتحدث عن الأسباب التي دفعته لوضع كتابه: «أحسن التقاسيم»، فيشير إلى أنّ ما ورد في الكتاب من «علم ترغب فيه الملوك والكبار وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبه العامة والرؤساء وينتفع به كل مسافر، ويحظى به كل تاجر»[1]. ومن ثم يتابع المقدسي ليتحدث عن تجربته الخاصة في إطار التعلم الذاتي الذي تَمَكّن من خلاله أن يقف على حقائق الأمور بنفسه توخياً للصدق فيما تطرق إليه من مواضيع. خاصة تلك الأقاليم التي زارها فيقول: «وما تمّ لي جمعه إلّا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى القراء، وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد، والمتصوفين وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى اتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأذهان حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني إلى الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور حتى فصلتها وبحثي عن الأحرجة حتى أحصيتها»[2].

ولا شك أنّ الصورة التي يعرضها المقدسي تعبر عن مدى التعلم الذاتي الذي حققه من خلال التنقل بين مختلف الأقاليم، ودورانه على التخوم حتى يقف على الحقائق المجردة بعيداً عن التكهن أو الخطأ، لأنّه أراد النصح للمسلمين بعدما رغّب نفسه في الأجر، وطمّعها في حسن الذكر، وخَوّفها من الإثم سائلاً الله أن يعينه على ما قصده يوفقه لما يحبه ويرضاه.

ومن أبرز الذين اشتهروا برحلاتهم في العالم الإسلامي ابن بطوطة (779 هـ/ 1377م). وابن جبير (614 هـ/ 1217م) اللذين يشهد لهما فيما حصّلاه من علوم

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص: 2.
(2) المقدسي: م. ن، ص. ن.

ومعارف في رحلتيهما اللتين وضعا أخبارهما بين أيدي الناس ليستفيدوا مما جاء بهما من معارف وأخبار.

والحقيقة أنّ مبدأ التعلم الذاتي عند المسلمين كان غالباً على جهود العلماء، والمتعلمين الذين استمروا لسنين طويلة يقومون بتعليم أنفسهم بجهودهم الذاتية دون الارتباط بمؤسسات تعليمية، أو بجهات تقدم لهم الحوافز والمساعدات، فكتب التاريخ تزخر بأخبار مثل هؤلاء العلماء الذين ذاع صيتهم في البلاد لما قدّموه من علم لخدمة المسلمين ـ معتمدين بذلك على أنفسهم وتعلمهم الذاتي ـ ويأتي في طليعتهم الأئمة الأربعة وغيرهم من العلماء العاملين كالأوزاعي والغزالي والبخاري ومسلم وغيرهم من الشخصيات التي كان لها فضل كبير على الحركة التربوية والتعليمية في المجتمع العربي الإسلامي حتى يومنا هذا.

5 ـ التعليم العالي المستمر

المقصود به ذلك النوع من التعليم الذي ثابر على تحصيله الحكام والعلماء والطلاب، الذين أنهوا مراحل الدراسة واستمروا في التحصيل العلمي إيماناً منهم بأهمية العلم على الصعيدين الديني والدنيوي.

فحكام المسلمين الذين كانوا على مستوى عال من الثقافة بحكم مسؤوليتهم الدينية والدنيوية أدركوا أهمية التحصيل العلمي، وأثره في تحسين أدائهم في تسيير دفة الحكم وتنظيم إدارات الدولة، وتجلى ذلك بوضوح من خلال المجالس العلمية التي زخرت بها قصورهم، والمطالعات الذاتية التي كانت سبباً في إنشائهم المكتبات ليتمكنوا من الوقوف على المستجدات العلمية، وأخبار الأمم السابقة في الحكم والحروب وكيفية إدارة شؤون البلاد. فلقد كان معاوية «يسمر ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها، وسِيَر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياساتها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة»[1]. ولم يكن معاوية يكتفي بالسّمر كوسيلة لتثقيف نفسه، بل إنّه كان بعد أن ينتهي من السمر والترفيه عن نفسه «يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سِيَر الملوك وأخبارها

(1) المسعودي: مروج الذهب، 3/ 222.

والحروب، والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات»[1]. كل ذلك ليأخذ منها العِبَر ويوظفها فيما يعود عليه بالمنفعة لجهة تعزيز ملكه وتسيير أمور البلاد. ومن المشهور عنه أنّه استحضر عبيد بن شرية الجرهمي (نحو 67 هـ/ 686م) من صنعاء اليمن إلى دمشق «فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة، وأمر افتراق الناس في البلاد... فأجابه بما أمر فأمر معاوية أن يدون وينسب إلى عبيد بن شرية»[2].

وكان خالد بن يزيد (90 هـ/ 708م) الذي أدار ظهره للحكم حباً في التحصيل العلمي من أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صناعة الكيمياء والطب[3]. ورغم علو شأنه في العلم إلّا أنّه لم ينقطع عن الاستمرار في تحصيله مكرساً مبدأ التعلم المستمر مدى الحياة. ومعلوم أنّ خالد «هو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء»[4].

ولم يكن المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم من الخلفاء العباسيين ـ حتى الضعفاء منهم ـ أقل حباً للعلم واهتماماً به وسعياً لتحصيله، فلقد كانت قصورهم ومكتباتهم التي أنشأوها مراكز للتعليم العالي الذي دأبوا على تحصيله من خلال حضورهم المناظرات العلمية، أو اشتراكهم بها، إلى جانب انكبابهم على المطالعة الخاصة في المكتبات التي أنشأوها، أو ورثوها عن غيرهم واعتنوا بها، كعناية الخليفة الناصر (622 هـ/ 1225 م) بمكتبة المدرسة النظامية التي أعاد عمارتها ونقل إليها أعداداً كبيرة من الكتب النفسية، إضافة إلى أنّه بنى رباطاً عرف بالرباط الظاهري غربي بغداد وزوّده بكتب كثيرة من خيرة الكتب[5].

ولقد ورث المستنصر (640 هـ/ 1242م) والمستعصم (656 هـ/ 1258م) عن سلفهما محبة الكتب، والمكتبات وعملاً على رعايتها والاهتمام بها والجلوس فيها

(1) المسعودي: مروج الذهب، 3/ 222.
(2) ابن النديم: الفهرست، ص: 180.
(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/ 224.
(4) ابن النديم: م. س، ص: 680.
(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، 10/ 229.

للمطالعة. فالخليفة المستنصر كان مولعاً بالقراءة، والمطالعة كأن الله تعالى قد خصه في نفسه بميل إلى «العلوم فإنه لم يزل من أول أمره ومبدأ عمره متشاغلاً بالعلوم الدينية صحيح الضبط، ومن محبته للعلوم أنشأ خزانة الكتب بشريف حضرته وقدس سترته جمع فيها من أنواع العلوم على اختلافها وتباينها وائتلافها بالأصول المضبوطة، والخطوط المنسوبة ما جاوز حد الكثرة»[1]. وأمّا المستعصم فقد أنشأ مكتبتين كان يمضي شطراً من وقته في كل منهما في النظر والمطالعة[2].

وإذا كان أهل الحكم قد ثابروا على الدراسة والتحصيل فليس هناك من هو أولى من العلماء بسلوك هذا الطريق الذي هو في الأصل طريقهم. ولذلك فإنهم لم يجدوا أي حرج في أخذ العلم عن غيرهم من العلماء، أو الزملاء، أو التلاميذ الذين تخرجوا على أيديهم وأصبحوا معلمين. فلقد ذكر أنّ المازني (249 هـ/ 863م) «لما قدم بغداد في أيام المعتصم (227 هـ/ 841م) كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علوم النحو، فإذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان المازني ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب - يعني محمد بن عبد الملك (173 - 233 هـ/ 789 - 847م) - فاسألوه واعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه»[3].

وفي حال بعدت المسافة كان العلماء يستعملون الرسائل للوقوف على ما يريدونه من علم. فلقد «كتب نوح بن نصر (343 هـ/ 954م)، إلى أبي سعيد السيرافي (368 هـ/ 979م)، يسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة الغالب عليها الحروف. وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شك فيها فسأل عنها، وكان هذا الكتاب مقروناً بكتاب الوزير البلعمي (329 هـ/ 940 م)، خاطبه فيه بإمام المسلمين ضمنه مسائل في القرآن وأمثالاً للعرب مشكلة»[4].

وكان العالم لا يتردد في كثير من الأحيان أن يرحل لزيارة عالم اشتهر في علم من العلوم أو فن من الفنون. فلقد كان الشيخ كمال الدين بن يونس (639 هـ/

(1) عبد الرحمٰن ابن قنينو الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك، ص: 286.
(2) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية، ص: 269.
(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 4/ 94.
(4) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، 1/ 130.

1242م) مقصد العلماء الذين كانوا يأتون من جميع البلدان للأخذ عنه. يقول الشيخ قيصر بن أبي القاسم (649 هـ/ 1251م) «لما أتقنت علوم الرياضة بالديار المصرية ودمشق تاقت نفسي إلى الاجتماع بالشيخ كمال الدين، لما كنت أسمعه من تفرّده بهذه العلوم، فسافرت إلى الموصل قصد الاجتماع به، فلما حضرت في خدمته وجدته على حلية العلماء المتقدمين... وعرّفته قصدي له للقراءة عليه، فقال لي في أي العلوم تريد تشرع؟ فقلت في الموسيقى، فقال: مصلحة هو، فلي زمان ما قرأه أحد علي فأنا أوثر مذاكرته، وتجديد العهد به، فشرعت فيه ثم في غيره حتى شققت عليه أكثر من أربعين كتاباً في مقدار ستة أشهر وكنت عارفاً بهذا الفن، لكن كان غرضي الانتساب في القراءة إليه، وكان إذا لم أعرف المسألة يوضحها لي، وما كنت أجد من يقوم مقامه في ذلك»[1].

وفي أغلب الأحيان كان العلماء يتابعون تعلمهم ذاتياً من خلال دراساتهم ومطالعاتهم الخاصة، فالإمام الشافعي «كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثاً للعلم وثلثاً للعبادة وثلثاً للنوم»[2].

ولقد أمضى الغزالي عمره في التعلّم والتعليم «وبقي هكذا عالماً معلماً زاهداً ناصحاً مربياً... إلى أن لبّى نداء ربه»[3]. وهكذا فقد كانت «خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ﷺ مجالسة أهله مطالعة الصحيحين البخاري ومسلم... ولو عاش لسبق الكل في ذلك بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله. ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية واشتغل آخر عمره بسماعه...»[4].

والمتتبع لسيرة حياة ابن سينا لا يجد كثير مشقة في العثور على مزيد من صور التعلم العالي المستمر، الذي كان جزءاً من حياة هذا العالم الموسوعي الذي يشير إلى هذا الواقع عندما يتحدث عن نفسه قائلاً: «وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة، فمهما غلبني النوم أو شعرت

(1) ابن خلكان: **وفيات الأعيان**، 5/ 315.
(2) الغزالي: **إحياء علوم الدين**، 1/ 36.
(3) علي القرة داغي: «القسم الدراسي»، في **أيها الولد**، ص: 24.
(4) الغزالي: م. س، ص. ن.

بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي، ثم أرجع إلى القراءة»[1].

وكان الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي (628 هـ/ 1230م) إذا انتهى من عمله اليومي «يأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة. ولا بد مع ذلك من نسخ فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه، ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ويبحث معه فيه ويفهمه إياه بقدر طاقته... فكان إذا فرغت الجماعة من القراءة يعود هو إلى نفسه، فيأكل شيئاً ثم يشرع بقية نهاره في الحفظ والدرس والمطالعة يسهر أكثر ليله في الاشتغال»[2].

فالقاضي أبو علي الفارقي الحسن بن إبراهيم (528 هـ/ 1123 م) تفقه على أبي عبد الله محمد بن بيان بن محمد الكازروني ولازمه إلى حين وفاته سنة (455 هـ/ 1063 م)، ثم رحل إلى بغداد وأخذ عن الشيخ أبي إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي ولازمه حتى وفاته سنة (476 هـ/ 1083م)، وبعد ذلك التحق بابن الصباغ وحفظ كتاب «الشامل» وبقي طالباً للعلم إلى أن توفي في المحرم سنة (528 هـ/ 1133م) عن خمس وتسعين سنة[3].

وخلاصة القول: إن التعليم المستمر مدى الحياة كان من أهم المبادىء التي التزم بها علماء المسلمين، وحرصوا عليها من خلال تمسكهم بمواصلة التعلم استجابة لدعوة الإسلام في عمارة الأرض واستخلاف الله تعالى فيها... هذا التكليف الذي يتحمل فيه العلماء مسؤولية كبيرة لأنهم حسب ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «العلماء ورثة الأنبياء»[4]. ومعلوم أنه لا رتبة تعلو النبوة ولا شرف يفوق شرف وراثة تلك الرتبة. وهو ما جعل من الاستمرار في التعلم ضرورة لا غنى عنها في حياة النخبة من القيمين على رعاية شؤون المجتمع الإسلامي في شتى مجالات الحياة.

(1) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، 3/ 5.
(2) ابن أبي أصيبعة: م. ن، 3/ 391.
(3) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، 1/ 303.
(4) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، 1/ 81.

الخاتمة

إن التربية المستمرة وتعليم الكبار في الإسلام ثمرة من ثمرات العقيدة الإسلامية التي تركت بصماتها على كافة نواحي الحياة عند المسلمين الأوائل. فلقد كان «الإسلام ثورة حضارية كبرى بما فصّل من عقيدة في توحيد وتكوين الوجود، وبما وضع من نظام لحياة الإنسان وحياة المجتمع، وبما دعا إليه من أخوة إنسانية شاملة»[1]. ولا يخفى أن التعليم كان وسيلة المسلمين لفهم ما اشتمل عليه القرآن الكريم من مبادىء الدين ومفاهيم العقيدة الإسلامية. وهو ما عبّرت عنه أولى آيات القرآن الكريم في سورة العلق التي كانت دعوة للقراءة تمجيداً للعلم. والمتتبع لما جاء في التراث الإسلامي «سيجد تأكيداً متواصلاً على التعليم عامة، والتعليم المستمر للكبار خاصة، فالإسلام يؤكد في مستوى المبدأ والعقيدة على التعليم[2]. وضرورة مواصلته من المهد إلى اللحد.

وليس غريباً أن «يكون الأمر بالقراءة هو مستهل الدعوة الإسلامية. وهو مستهل يدل على الشعار الذي رفعه الإسلام، ليدل ـ بعده ـ على جوهر (العقيدة) الإسلامية وعلى المفتاح الذي لا يمكن ـ بدونه ـ فهم الشخصية الإسلامية، وفهم التغيير الجذري الذي أحدثه الإسلام في الذات الإنسانية، فتحولت من ذات جاهلة تعبد الأصنام، والأوثان وتؤمن بشريعة الغاب، إلى ذات واعية عاقلة تحمل لواء حضارة، كانت أساس حضارة العالم المعاصر[3].

فالإسلام الذي بدأ في مكة ابتدأ بالكبار حيث بادر الرسول ﷺ ـ منذ اللحظة

---

(1) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: **إستراتيجية تطوير التربية العربية**، ص: 42.

(2) ضياء الدين زاهر: **تعليم الكبار منظور إستراتيجي**، ص: 29.

(3) إبراهيم عصمت مطاوع وزميله: **في التربية المعاصرة**، ص: 54.

الأولى لبدء الدعوة ـ إلى تعليم المسلمين بنفسه. ومع ازدياد عدد الذين دخلوا الإسلام كان الرسول ـ في كثير من الأحيان ـ يكلف من صحابته من يرى فيه القدرة على القيام بذلك. ولقد ازداد الاهتمام بالتعليم بعد الهجرة إلى المدينة.

ففي موقعه بدر الكبرى كان افتداء الأسرى بتعليم كل منهم لعشرة من أبناء المسلمين. وشكّلت هذه السابقة علامة مميزة على طريق محو الأمية التي ابتدأها الرسول ﷺ بمكة في دار ابن أبي الأرقم التي كانت أول مدرسة لتعليم الكبار في الإسلام.

ومع تقدم الوقت وانتشار حلقات التدريس كان المتعلم حراً في أن يذهب إلى أية حلقة وإلى أي شيخ. فإذا أتم علم شيخ انتقل إلى علم آخر، وكان باب التعلم مفتوحاً لكل من شاء متى سنحت له الظروف بذلك[1]. وفي ظل هذا الوضع التعليمي كان من الصعوبة بمكان ـ قبل اعتماد التعليم النظامي المدرسي ـ الحديث عن تعليم الصغار أو تعليم الكبار من المنظور الحديث لهذا التعليم أو ذاك، حيث أن النوعين من التعليم كانا يتداخلان على نحو ما، حسب ظروف الزمان والمكان والمعلم والمتعلم والمادة التعليمية.

وعلى الرغم من أن مفهوم تعليم الكبار مفهوم حديث إلّا أن هذا لا ينفي وجود هذا النوع من التعليم الذي احتل مكاناً مرموقاً في المجتمع الإسلامي، وكانت له آثاره الإيجابية على جميع جوانب الحياة. فالمسلمون الذين تمسكوا بتعليم الكبار لأسباب تتعلق بالعقيدة، لم يعتمدوا نظماً تعليمية صارمة تُكبل المتعلمين بقيود الزمان والمكان، والامتحانات والشهادات والأقساط، وإنما اعتمدوا تعليماً شديد التنوع يقوم على مبدأ التعلم الذاتي، بعيداً عن صور التعليم التي تقف حائلاً أمام نمو الأفراد، وتفتحهم وانطلاقهم إلى أقصى الآفاق التي تسمح بها قدراتهم وطاقاتهم.

ولا ريب أن هذا التعليم ـ كما يتضح من خلال البحث ـ كانت له طرائقه المتنوعة في التدريس والتي تنبع من طبيعة المادة التعليمية، وتساير المستوى التعليمي للتلاميذ على أمل المساعدة في إحداث التغييرات المرجوة في شخصية

(1) أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، 2/ 66 ـ 68.

المتعلم وسلوكه واتجاهاته، انسجاماً مع الأهداف العامة للتربية الإسلامية النابعة من طبيعة التصور الإسلامي.

إن دلّ هذا على شيء إنما يدل على مدى نجاح المسلمين في مجال تعليم الكبار. لأن تجربتهم كانت تجربة رائدة ومتميزة لما تركته من أثر في حياتهم، حيث أنهم استطاعوا بفضل هذا النسق التعليمي، أن يتحولوا من مجتمع جاهل إلى مجتمع معلم متعلم خلال فترة وجيزة من الزمن. فكان الرسول ﷺ هو المعلم الأكبر، والقرآن الكريم هو الكتاب المقرر، والمسجد هو المؤسسة التعليمية الرائدة. وفي العصور التي تلت كانت شخصية الرسول قدوة المسلمين في التمسك بالتعليم والإفادة منه في بناء الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي.

ففي ضوء هذه الرؤية وما تبعها من ممارسات، لا ينظر لتعليم الكبار في الإسلام على أنه تعلم إضافي أو مهني أو علاجي فحسب، أو على أنه وسيلة لمواكبة المتغيرات الاجتماعية أو العلمية أو التكنولوجية، بل إضافة إلى ذلك كله فهو اعتراف بأن عملية التعليم تتسم بطابع الاستمرار، وهو جزء من هذه العملية التربوية المستمرة التي تشمل جميع جوانب الحياة بما في ذلك تنمية شخصية الفرد من كافة جوانبها المادية والمعنوية. ولذلك لم يقتصر هذا التعليم على لون من ألوان العلوم، بل امتد إلى كل أنواع المعرفة التي يحتاجها الإنسان في صلاح أمور دينه ودنياه.

وإذا كان نظام تعليم الكبار في الإسلام استجابة لعقيدة دينية راسخة، يكون بها الإنسان أو لا يكون، فإن نظام تعليم الكبار اليوم وليد حاجات تنموية، أو اجتماعية، أو علمية، أو تكنولوجية تستدعي نمطاً من التعليم المستمر للتكيف مع الإيقاع السريع للحياة المعاصرة. وفرق كبير بين كلا النظامين. «فهو في الحالة الأولى ـ كما هو بالفعل في الإسلام ـ يكون عميق الجذور ثابت الدعائم بينما يكون في الحالة الثانية ـ كما هو بالفعل في الحضارة الغربية الحديثة ـ قلقا مضطرباً قد يأتي بثمار ولكنها وقتية وسريعة»[1]. فالاضطراب ـ كما هو واقع الحال ـ مرده إلى اختلال ميزان الأولويات نتيجة إقدام الحضارة الغربية الحديثة على تقديم ما يجب

(1) إبراهيم عصمت مطاوع وزميله: **في التربية المعاصرة**، ص: 69.

تأخيره، وتأخير ما يجب تقديمه، عندما أعطت الأولوية المطلقة لتربية الصغار، وميزتها على ما عداها من التعليم بما في ذلك تعليم الكبار.

ويمكن القول: إن من أهم العوامل التي كان لها آثار مباشرة أو غير مباشرة، على نجاح حركة تعليم الكبار عند المسلمين نظرة الإسلام الشاملة والمتكاملة للكون والمجتمع والإنسان. يعزز ذلك موقف الإسلام الإيجابي والمميز من العلم والعلماء والعمل والعبادة، وغيرها من القضايا التي تتعلق بعمارة الأرض. كل هذا يشير إلى أن تعليم الكبار في الإسلام يستند إلى «فكر تربوي متطور من منظور عصره في حدود زمانه ومكانه ومجتمعه هذا التطور الذي كانت وراءه فلسفة تربوية إسلامية تنير له الطريق وتحدد له المسار الصحيح»[1]. ولا ريب، أن تعليم الكبار الذي يعتبر انعكاساً طبيعياً لهذا الفكر التربوي، يمثل الجذور التي تفرعت منها تربية الصغار. فهو الهدف الرئيس الذي من أجله ولأجله كان تعلم الصغار فيما بعد تحسساً بأهمية إعدادهم ليتمكنوا من توظيف طاقاتهم وقدراتهم وإمكاناتهم إلى أقصى الحدود، للإفادة مما يقدم لهم لاحقاً من برامج تعليمية خاصة بالكبار.

فأمام هذا الواقع، تبرز أهمية إعادة النظر في نظمنا التعليمية التي باتت بعيدة عن روح الإسلام، بسبب تقليدها الأعمى للغرب ومستحدثاته. وليس معنى هذا أن نعود إلى التراث ونتشبث به تشبثاً يؤدي لإنكار الجديد لمجرد أنه جديد بل المطلوب هو أن نتمسك بأصالتنا. فالماضي لا بد منه ليكون مصدراً للإلهام. والإصلاح لا يقوم على تقليد الآخرين والاقتباس منهم، وإنما على الاستفادة من تجاربهم في ظل الحفاظ على الأصالة. وهو ما يتطلب منا اليوم أن نعود لتراثنا ندرسه لنستفيد من إيجابياته، ونوظفها فيما ينفعنا، ثم نلتفت بعد ذلك للآخرين لنستفيد من تجاربهم إذا كان هناك حاجة لذلك.

والله أسأل أن تسهم هذه الدراسة المتواضعة بفهم أعمق للتربية المستمرة وتعليم الكبار في الإسلام، وأن تكون حافزاً لمزيد من الدراسات التي أرجو أن نخرج منها بكل جديد يمكن أن يسهم في بناء المستقبل الذي طالما تقنا لرؤياه.

---

(1) محمد منير سعد الدين: **دراسات في التربية عند المسلمين**، ص: 298.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً: المصادر العربية والمعرّبة المطبوعة:

ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد القاسم (688 هـ/ 1269م):
عيون الأنباء في طبقات الأطباء. بيروت، دار الثقافة.

ابن أبي يعلى، القاضي أبو الحسين محمد (527هـ/ 1132م):
طبقات الحنابلة. بيروت، دار المعرفة.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري (630 هـ/ 1231م):
أسد الغابة في معرفة الصحابة. القاهرة، جمعية المعارف المصرية، 1286هـ.

الكامل في التاريخ. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1407 هـ/ 1987م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن عبدالله (874 هـ/ 1469م).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة، دار الكتب المصرية، ط 1، 1353 هـ/ 1935 م.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (614 هـ/ 1217م):

رحلة ابن جبير. بيروت، دار صادر.

ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (833 هـ/ 1429م):

غاية النهاية في طبقات القراء. القاهرة، برجستراسر، مكتبة الخانجي، 1351 هـ/ 1932.

ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي (377 هـ/ 987م):

طبقات الأطباء والحكماء. تحقيق فؤاد سيد. القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 955 م.

ابن جماعة، محمد بن إبراهيم بن سعد الله (733 هـ/ 1333م):

تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. بيروت، دار الكتب العلمية.

الطب الروحاني. دمشق، مطبعة الترقي، 1348هـ.

ابن الحاج العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد (737 هـ/ 1336م):

المدخل، المطبعة العامرة الشرقية، 1320هـ.

ابن حجر، أحمد بن محمد بن علي الكناني الشافعي (852 هـ/ 1448م).

الإصابة في تمييز الصحابة. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، 1358 هـ/ 1939م.

الفصل في الملل والأهواء والنحل. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، 1347هـ.

ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد (241 هـ/ 855م).

مسند الإمام أحمد بن حنبل. بيروت، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي (بعد 367 هـ/ بعد 977م):

صورة الأرض. لايدن/ هولندا، مطبعة بريل، ط 2، 1938 ـ 1939، نسخة مصورة، بيروت، دار صادر.

ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد (808 هـ/ 1406م):

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر. بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1966م.

مقدمة ابن خلدون. بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين بن محمد بن أبي بكر (681هـ/ 1282م).

وفيات الأعيان. تحقيق إحسان عباس. بيروت، دار صادر، 1397هـ/ 1977م.

ابن الخياط المعتزلي، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان (نحو 300هـ/ 912م):

الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1957م.

ابن سعد، أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الزهري (230هـ/ 845م).

الطبقات الكبرى. بيروت، دار صادر.

ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله (428هـ/ 1037م):

كتاب السياسة. في التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات. هشام نشابه. بيروت، دار العلم للملايين، ط 1، 1988 م.

ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم (684هـ/ 1285م):

الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. تحقيق سامي الدهان، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، 1357هـ/ 1956 م.

ابن الصلاح، أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمٰن الشهرزوري (346هـ/ 957م):

علوم الحديث. بيروت، المكتبة العلمية، 1401 هـ/ 1981م.

ابن طباطبا/ ابن الطقطقي، محمد بن علي بن محمد (709هـ/ 1309م).

الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. القاهرة، المطبعة الرحمانية بمصر، 1921م.

ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي الدمشقي الصالحي (53 هـ/ 1546م):

القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية. دمشق، مجمع اللغة العربية، 1401 هـ/ 1980 م.

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي (463هـ/ 1071م):

جامع بيان العلم وفضله. بيروت، دار الكتب العلمية، 1398 هـ/ 1978م.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (571 هـ/ 1176م):

تاريخ مدينة دمشق، بيروت، دار الفكر، 1415 هـ/ 1995م.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد (1089 هـ/ 1679م):

شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت، دار الآفاق.

ابن الفوطي: أبو الفضل عبد الرازق بن أحمد الصابوني (723 هـ/ 1323م):

تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب. دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي مديرية إحياء التراث القديم.

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة. تحقيق مصطفى جواد. بغداد، المكتبة العربية، 1932م.

ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الدمشقي (851 هـ/ 1448م):

طبقات الشافعية. بيروت، عالم الكتب، ط 1، 1407 هـ/ 1987م.

ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (276 هـ/ 889م):

عيون الأخبار. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 343 هـ/ 1925م.

ابن القفطي، أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف (646 هـ/ 1248م):

أخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة، مطبعة السعادة، 1326 هـ/ 1908م.

ابن قنينو الإربلي، عبد الرحمٰن بن إبراهيم، أبو محمد (717 هـ/ 1317م):

خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك. بغداد، مكتبة المثنى.

ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر (774 هـ/ 1373م):

البداية والنهاية. بيروت، دار ابن كثير.

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (273 هـ/ 887م):

سنن ابن ماجه. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري (711 هـ/ 1311م):

لسان العرب. بيروت، دار صادر، 1388 هـ/ 1968م.

مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، (1404 هـ/ 1984م).

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد (438 هـ/ 1047م):

الفهرست. تحقيق ناهد عباس عثمان. الدوحة، دار قطري بن الفجاءة، ط 1، 1985 م.

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (213 هـ/ 828م):

السيرة النبوية، القاهرة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1375 هـ/ 1955م.

أبو حنيفة، النعمان بن ثابت (150 هـ/ 767م):

العالم والمتعلم. تحقيق محمد زاهد الكوثري. 1368 هـ.

أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد (400 هـ/ 1010م):

الإمتاع والمؤانسة. بيروت ـ صيدا، المكتبة العصرية.

المقابسات. سوسة/ تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، ط1، 1991م.

أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (275 هـ/ 888م):

سنن أبي داوود. بيروت، دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1388 هـ/ 1969م.

أبو زرعة، عبد الرحمٰن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان (280 هـ/ 893م):

تاريخ أبي زرعة الدمشقي. بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417 هـ/ 1996 م.

أبو عبيد، علي بن الحسين بن حرب (319 هـ/ 931م):

الأموال. القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1388 هـ/ 1968م.

أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين (356 هـ/ 967م):

الأغاني. القاهرة، مطبعة التقدم.

أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (430 هـ/ 1038م):

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. القاهرة ـ بيروت، دار الريان للتراث ـ دار الكتاب العربي، ط 5، 1407 هـ/ 1987م.

أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي بن المثنى والتميمي (307 هـ/ 919م):

مسند أبي يعلى الموصلي. تحقيق حسين سليم أسد. دمشق ـ بيروت، دار الثقافة العربية.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (256 هـ/ 870م):

صحيح البخاري. بيروت، عالم الكتب، ط 5، 1406 هـ/ 1986م.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن داود (279 هـ/ 792م):

أنساب الأشراف. القاهرة، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالإشتراك مع دار المعارف بمصر، سلسلة ذخائر العرب، رقم 27.

فتوح البلدان. تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع. بيروت، مؤسسة المعارف، 1407 هـ/ 1987م.

بهاء الدين العاملي، محمد بن حسين (953 هـ/ 1031م):

الكشكول. تحقيق طاهر أحمد الزاوي. القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

السنن الكبرى. حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط 1، 1355 هـ.

شعب الإيمان. بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1410 هـ/ 1990م.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (279 هـ/ 892م):

الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي. بيروت، دار إحياء التراث العربي.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (255 هـ/ 868م):

البيان والتبيين. بيروت، دار مكتبة الهلال، ط 2، 1412 هـ/ 1992م.

الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد (393 هـ/ 1003م):

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبد الغفور عطاء. القاهرة، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، 1376 هـ/ 1956 م.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (1067 هـ/ 1657م):

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. بغداد، مطبعة المثنى.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (463 هـ/ 1072م):

تاريخ بغداد أو مدينة السلام. بيروت دار الكتاب العربي.

تقييد العلم. دار إحياء السنة النبوية، ط 2، 1974م.

الفقيه والمتفقه. بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 1400 هـ/ 1980م.

الكفاية في علم الرواية. المدينة المنورة، المكتبة العلمية.

الدارمي، أبو محمود عبد الله بن عبد الرحمٰن (255 هـ/ 869م):

سنن الدارمي. دمشق، مطبعة الإعتدال، 1349 هـ.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (748 هـ/ 1374م):

تذكرة الحفاظ. حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، ط 2، 1333 هـ.

سير أعلام النبلاء. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1402 هـ/ 1982م.

الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (313 هـ/ 925م):

مختار الصحاح. القاهرة، مطبعة وادي النيل بمصر، ط 1، 1289هـ.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (502 هـ/ 1108م):

المفردات في غريب القرآن. تحقيق محمد سعيد كيلاني. القاهرة، شركة مكتبة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الأخيرة، 1381 هـ/ 1961م.

الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرازق الملقب بالمرتضى (1205 هـ/ 1790م):

اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين. القاهرة، المطبعة الميمنية بمصر، 1311 هـ.

تاج العروس من جواهر القاموس. بنغازي، دار ليبيا للنشر والتوزيع.

الزرنوجي، برهان الإسلام (الثالث الأول من القرن السابع هـ/ الثالث عشر م):

تعليم المتعلم طريق التعلم. تحقيق مروان قباني. بيروت، المكتب الإسلامي 1401 هـ/ 1981م.

سبط ابن الجوزي، أبو المظفر يوسف بن فرغلي (654 هـ/ 1256م):

مرآة الزمان في تاريخ الأعيان. حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط 1، 1370 هـ/ 1951م.

السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (771 هـ/ 1370م):

طبقات الشافعية الكبرى. القاهرة، المطبعة الحسينية، ط 1.

السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التيمي (562 هـ/ 1166م):

أدب الإملاء والإستملاء. بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1401 هـ/ 1981م.

السيوطي، عبد الرحمٰن بن أبي بكر (911 هـ/ 1505م):

تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي. بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 1399 هـ/ 1979 م.

المزهر في علوم اللغة القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى (406 هـ/ 1015م):

نهج البلاغة. بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط 1، 1387 هـ/ 1967م.

طاش كبرى زاده، أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل (968 هـ/ 1561م):

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم. تحقيق كامل بكاري وزميله. القاهرة، دار الكتب الحديثة.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (360 هـ/ 971م):

المعجم الكبير، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 2، 1406 هـ/ 1986م.

الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (548 هـ/ 1153م):

مكارم الأخلاق. بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط 6، 1392 هـ/ 1972م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (310 هـ/ 923م):

جامع البيان عن تأويل أي القرآن. القاهرة، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط 2، 1373 هـ/ 1954 م.

العجلوني، أبو الفداء إسماعيل بن محمد (1162 هـ/ 1749م):

كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 6، 1416 هـ/ 1996 م.

علاء الدين المتقي، علي بن عبد الملك حسام الدين الهندي (975 هـ/ 1567م):

كنز العمال. بيروت، مؤسسة الرسالة، 1409 هـ/ 1989 م.

العلموي، عبد الباسط بن موسى بن محمد بن إسماعيل (981 هـ/ 1573م):

مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس. تحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق، 1366 هـ/ 1947م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن محمد (505 هـ/ 1111م):

إحياء علوم الدين. بيروت، دار الكتب العلمية.

أيها الولد. تحقيق علي محي الدين القره داغي. بيروت دار البشائر الإسلامية، 1405 هـ/ 1985 م.

جواهر القرآن ودرره. بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 6، 1411 هـ/ 1990م.

الحكمة في مخلوقات الله. بيروت، دار الكتب العلمية، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، الجزء الأول، 1406 هـ/ 1986م.

فاتحة العلوم. القاهرة، المطبعة الحسينية، ط 1، 1322 هـ.

كيمياء السعادة. بيروت، دار الكتب العلمية، مجموعة رسائل الإمام الغزالي، الجزء الخامس، 1406 هـ/ 1986م.

المنقذ من الضلال. بيروت دار الأندلس، ط 10، 1409 هـ/ 1988م.

ميزان العمل. بيروت، دار الكتاب العربي، 1403 هـ/ 1983م.

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (718 هـ/ 1415م):

القاموس المحيط. القاهرة، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

القابسي، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف (403 هـ/ 1012م):

الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين. في التربية في الإسلام. أحمد فؤاد الأهواني. القاهرة، دار المعارف بمصر، 1387 هـ/ 1967.

القاضي عياض، بن موسى اليحصبي (544 هـ/ 1149):

الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، القاهرة ـ تونس، دار التراث ـ المكتبة العتيقة، ط 1، 1389 هـ/ 1970 م.

الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (764 هـ/ 1363م):

فوات الوفيات. القاهرة، مطبعة بولاق، 1299 هـ.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (345 هـ/ 955م):

التنبيه والإشراف. القاهرة، دار الصاوي للطبع والنشر والتأليف، 1357 هـ/ 1938م.

مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت، الجامعة اللبنانية، 1970م.

مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (261 هـ/ 875م):

صحيح مسلم. بيروت، دار الفكر العربي، 1403 هـ/ 1983م.

المقدسي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر (380 هـ/ 990م):

أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن/ هولنده، مطبعة بريل، 1909م، نسخة مصورة، بيروت، دار صادر.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (845 هـ/ 1441م):

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. المعروف ب الخطط المقريزية. بيروت، دار صادر.

المقري المغربي، أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد (1041 هـ/ 1631م):
نفح الطيب. القاهرة، المطبعة الأزهرية المصرية، ط 1، 1302 هـ.

النعيمي، عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (927 هـ/ 1521م):
الدارس في تاريخ المدارس. دمشق، المجمع العلمي العربي، 1367 هـ/ 1948م.

الهيثمي، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (807 هـ/ 1405م):
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. القاهرة، مكتبة القدسي، 1352 هـ.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد (207 هـ/ 823م).
كتاب المغازي. بيروت، عالم الكتب.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (626 هـ/ 229م):
معجم الأدباء. القاهرة، مطبعة هندية بالموسكي بمصر، ط 2، 1928م.

ثانياً المراجع العربية والمعربة المطبوعة:

آل سعود، محمد الفيصل:
«القرآن الكريم أساس التربية الإسلامية»، في التعليم الإسلامي أهدافه ومقاصده. محمد النقيب العطاس. الرياض، شركة عكاظ للنشر والتوزيع، جامعة الملك عبد العزيز، ط 1، 1404 هـ/ 1984م.

الإبراشي، محمد عطية:
التربية الإسلامية وفلاسفتها. القاهرة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 2، 1389 هـ/ 1969م.

ابن عاشور، محمد الطاهر:
أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. تونس، الشركة التونسية للتوزيع، 1976م.

ابن عرنوس، محمود بن محمد:

تاريخ القضاء في الإسلام. القاهرة، 1352 هـ/ 1934م.

ابن علوي [المالكي الحسيني]، محمد:

أصول التربية النبوية. القاهرة، الأزهر مجمع البحوث الإسلامية.

أبو العنين، علي خليل:

فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم. القاهرة، دار الفكر العربي، ط 1، 1980م.

أبيض، ملكة:

التربية والثقافة العربية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة. بيروت، دار العلم للملايين، ط 1، 1980م.

«مؤسسات التربية العربية في الشام حتى أواسط القرن الرابع الهجري»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات. عمّان، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مؤسسة آل البيت، 1989م.

أحمد، سعد مرسي:

تطور الفكر التربوي. القاهرة، عالم الكتب، 1970م.

أحمد، محمد عبد القادر:

طرق تعليم التربية الإسلامية. القاهرة، النهضة المصرية، 1990م.

أحمد، منير الدين:

«دور المجالس والحلقات في النظام التربوي الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات. عمّان، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مؤسسة آل البيت، 1989م.

الأسد، ناصر الدين:

مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. القاهرة، دار المعارف بمصر، 1956م.

إقلانية، المكي:

النظم التعليمية عند المحدثين. الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، سلسلة كتاب الأمة، ط 1، رجب 1413 هـ.

أمين، أحمد:

ضحى الإسلام. بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1.

ظهر الإسلام. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 3، 1964م.

فجر الإسلام. بيروت، دار الكتاب العربي، ط 1، 1969م.

الأنصاري، فريد:

التوحيد والوساطة في التربية الدعوية. الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، سلسلة كتاب الأمة، عدد 47، ج 1، جمادى الأولى 1416 هـ.

الأهواني، أحمد فؤاد:

التربية في الإسلام. القاهرة، دار المعارف بمصر، 1967م.

الباني، عبد الرحمٰن:

مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام. المكتب الإسلامي.

بدران، عبد القادر:

تهذيب تاريخ ابن عساكر. دمشق، المكتبة العربية، ط 1، 1349 هـ.

منادمة الأطلال ومسامرة الخيال. دمشق، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

البرقوقي، محمد عاطف؛ **التوانسي**، أبو الفتوح محمد:

الخوارزمي العالم الفلكي الرياضي. الدار القومية للطباعة والنشر، 1964م.

البستاني، بطرس:

محيط المحيط. بيروت، مكتبة لبنان، 1870م. نسخة طبق الأصل طبعت بطريقة الأوفست.

بكر، عبد الجواد السيد:

فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف. القاهرة، دار الفكر العربي، ط1.

جلال، عبد الفتاح:

من الأصول التربوية في الإسلام. سرس الليان، المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار في العالم العربي، 1977م.

جمال الدين، نادية:

فلسفة التربية عند إخوان الصفا. القاهرة، منشورات سمير أبو داود، المركز العربي للصحافة، 1983 م.

الجمالي، محمد فاضل:

آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية. تونس، الدار التونسية للنشر، 1968م.

نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي. تونس، الدار التونسية للطباعة والنشر والتوزيع، 1972م.

الجندي، أنور:

التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام. بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1975م.

الجندي، ماجد توفيق:

دراسات وبحوث جديدة في تاريخ التربية الإسلامية. دار الوفاء للطباعة، 1404 هـ/ 1984م.

حب الله، محمود:

«موقف الإسلام من المعرفة والتقدم الفكري»، في الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة. جمع ومراجعة وتقديم محمد خلف الله. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

حتي، فليب:

تاريخ العرب المطول. بيروت، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ط 4، 1965م.

حسن، أمينة أحمد:

نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول. القاهرة، دار المعارف، 1985 م.

حسن، حسن إبراهيم:

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1964م.

حمادة، محمد ماهر:

المكتبات في الإسلام. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 6، 1414 هـ/ 1994م.

خاطر، محمود رشدي:

طرق تعليم الكبار وإمداداته. سرس الليان، مركز تدريب قيادات تعليم الكبار لدول الخليج بالبحرين، 1975 م.

الخطيب، محمد عجاج:

السنة قبل التدوين. بيروت دار الفكر، ط 2.

خليفة، عبد اللطيف محمد:

ارتقاء القيم. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد 60، رمضان 1412 هـ/ نيسان 1992م.

الخولي، البهي:

الثروة في ظلال الإسلام. القاهرة، دار القلم، 1981م.

الدوري، عبد العزيز:

«مدخل تاريخي»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات. عمّان، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية مؤسسة آل البيت، 1989م.

الديده جي، سعيد:

بيت الحكمة. الموصل، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، 1392 هـ/ 972م.

الراوي، محمد:

الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر.

العرب والتربية والحضارة. بيروت، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، 1979م.

زاهر، ضياء الدين:

تعليم الكبار منظور إستراتيجي. مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية ـ دار سعاد الصباح، ط 1، 1993م.

زيدان، جرجي:

تاريخ التمدن الإسلامي. بيروت، دار مكتبة الحياة، ط 2.

سابق، السيد:

عناصر القوة في الإسلام. بيروت، دار الكتاب العربي. 1393 هـ/ 1973م.

السباعي، مصطفى:

اشتراكية الإسلام، دار ومطابع الشعب، 1962م.

عظماؤنا في التاريخ. بيروت، المكتب الإسلامي.

من روائع حضارتنا. دمشق، دار السلام.

سعد الدين، محمد منير:

دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين. بيروت، دار بيروت المحروسة، ط 2، 1415 هـ/ 1995م.

شديد، محمد:

منهج القرآن في التربية. بيروت، مؤسسة الرسالة.

شلبي، أحمد:

تاريخ التربية الإسلامية. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 4، 1973م.

الشيباني، عمر محمد:

«قضايا الإنسان»، في الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادىء. تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987م.

صابر، محي الدين:

الأمية مشكلات وحلول. صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية، 1986م.

الصابوني، محمد علي:

صفة التفاسير. بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1414 هـ/ 1993م.

الصاحب، أحمد فوزي:

دليل المعلم حول المبادىء الأساسية في التعليم والتعلم. عمّان، دائرة التربية والتعليم قسم التعليم المدرسي/ الأونروا.

طبارة، عفيف عبد الفتاح:

روح الدين الإسلامي. بيروت، دار العلم للملايين، ط 18، 1979 م.

طلس، محمد:

التربية والتعليم في الإسلام. بيروت، دار العلم للملايين، ط 1، 1957م.

العابدي، حامد بن محمد:
من حكم الشريعة الإسلامية. الدوحة، الشؤون الدينية بدولة قطر، 1393هـ.
عاشور، سعيد عبد الفتاح:
المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية. القاهرة، دار النهضة العربية، ط 1، 1963 م.

ابن الجوزي وتربية العقل. مكة، شركة مكة للطباعة والنشر، 1986 م.

عبد الباقي، محمد فؤاد:
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. القاهرة ـ بيروت، دار الحديث ـ دار الجيل، 1407 هـ/ 1987 م.

عبد الجواد، صلاح:
اتجاهات جديدة في التربية الصناعية. القاهرة، دار المعارف بمصر، 1962م.

عبد العاطي، عبد الغني:
التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك. القاهرة، دار المعارف، 1977م.

عبد العال، حسن:
التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري. القاهرة، دار الفكر العربي، 1978م.

عبد العزيز، صالح؛ **عبد المجيد**، عبد العزيز:
التربية وطرق التدريس. ج 1، القاهرة، دار المعارف بمصر، ط 7.

عبد المجيد، عبد العزيز:
القصة في التربية. القاهرة، دار المعارف بمصر، ط 4.

عبد المهدي، عبد الجليل:
الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى. عمّان، مكتبة الأقصى، 1400 هـ/ 1980م.

عبود، عبد الغني:

«الأيديولوجيا والتربية في الإسلام»، في الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس. نخبة من أساتذة التربية وعلم النفس. القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1976م.

دراسة مقارنة لتاريخ التربية. القاهرة، دار الفكر العربي، ط 1، 1978م.

الفكر التربوي عند الغزالي كما يبدو من رسالة أيها الولد. القاهرة، دار الفكر العربي، ط 1، 1982م.

في التربية الإسلامية. القاهرة، دار الفكر العربي، ط 1، 1975م.

في التربية المستمرة ومحو الأمية وتعليم الكبار. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1982 م.

مذكرات في تاريخ التربية. القاهرة، الإتحاد الإشتراكي العربي المؤسسة الثقافية العمالية، السلسلة العمالية، العدد 45، 1976م.

عثمان، سيد أحمد:

المسؤولية الإجتماعية والشخصية المسلمة. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1397 هـ/ 1977م.

معالم الثقافة الإسلامية. بيروت ـ طرابلس/ ليبيا، مؤسسة الرسالة ـ مكتبة النور، ط 2.

عرواني، عبدالله:

أصول العقائد الإسلامية. دمشق، دار القلم، ط 4، 1412 هـ/ 1991م.

عزب، صالح؛ جعفر، إبراهيم:

آرلو 1966 ـ 1993: الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار. تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار، 1993م.

عزت، عبد العزيز:

ابن مسكويه فلسفته الأخلاقية ومصادرها. القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، 1946م.

العسلي، خالد صالح:

«التربية العربية قبل الإسلام»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات. عمّان، المجمع العربي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، 1979م.

العقاد، عباس محمود:

أثر العرب في الحضارة الأوروبية. القاهرة، دار المعارف بمصر، 1960م.

التفكير فريضة إسلامية. القاهرة، دار الرشاد الحديثة، ط 6.

علم الدين، محمد:

التربية الإسلامية. القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، سلسلة كتب إسلامية يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، عدد 190، محرم 1397 هـ/ يناير 1977م.

علي، سعيد إسماعيل:

الأصول الإسلامية للتربية. القاهرة، دار الفكر العربي، ط 3، 1992م.

أصول التربية الإسلامية. القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، 1974م.

الأمية في الوطن العربي الوضع الراهن وتحديات المستقبل. عمّان، مكتب اليونيسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية، ط 1، 1991 م.

رؤية إسلامية لقضايا تربوية. القاهرة، دار الفكر العربي، ط 1، 1413 هـ/ 1993م.

فلسفات تربوية معاصرة. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، عدد 198، المحرم 1416 هـ/ يونيو - حزيران 1995م.

معاهد التربية الإسلامية. القاهرة، دار الفكر العربي، 1986 م.

العمري، أكرم ضياء:

«التعليم في عصر السيرة والراشدين»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات. عمّان، المجمع العربي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، 1979 م.

عيسى، أحمد:

تاريخ البيمارستانات في الإسلام. بيروت، دار الرائد العربي، ط 2، 1401 هـ/ 1981 م.

الغزالي، محمد:

خلق المسلم. دمشق ـ بيروت، دار القلم للطباعة والنشر، 1409 هـ/ 1989 م.

غنيمة: محمد عبد الرحيم:

تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى. تطوان، دار الطباعة المغربية، 1953 م.

غوشة، عبد الله:

«فلسفة الحريات في الإسلام»، في مجموعة بحوث الثقافة الإسلامية والحياة المعاصر. جمع وتقديم محمد خلف الله أحمد. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

فهمي، أسماء حسن:

مبادىء التربية الإسلامية. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1366 هـ/ 1947 م.

فياض، عبد الله:

تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم من الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي. بغداد، بمساعدة جامعة بغداد.

فينكس، فيليب:

فلسفة التربية. ترجمة محمد لبيب النجيحي. القاهرة، دار النهضة العربية.

قابيل، عبد الحي محمد:

المذاهب الأخلاقية في الإسلام. القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1984م.

القائمي، علي:

أسس التربية. بيروت، دار النبلاء، ط 1، 1415 هـ/ 1995م.

القرشي، باقر شريف:

النظام التربوي في الإسلام. بيروت، دار التعارف للمطبوعات، 1408 هـ/ 1988م.

الفرضاوي، يوسف:

الإيمان والحياة. القاهرة، مكتبة وهبه، ط 6، 1398 هـ/ 1978م.

الرسول والعلم. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 6، 1415 هـ/ 1995م.

العبادة في الإسلام. القاهرة، مكتبة وهبه، ط 4.

قطب، سيد:

التصوير الفني في القرآن. القاهرة، دار المعارف، 1963م.

خصائص التصور الإسلامي ومقدماته. القاهرة ـ بيروت، دار الشروق، ط 12، 1431 هـ/ 1992م.

في ظلال القرآن. بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط 5، 1386 هـ/ 1967 م.

قطب، محمد:

منهج التربية الإسلامية. القاهرة ـ بيروت، دار الشروق، ط 12، 1409 هـ/ 1989م.

الكتاني، محمد عبد الحي:

نظام الحكومة النبوية، المسمى التراتيب الإدارية. ج1، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم،

كرد علي، محمد بن عبد الرزاق:

خطط الشام. دمشق، مطبعة الترقي، 1346 هـ/ 1927م.

الكيلاني، ماجد عرسان:

تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية. دمشق ـ بيروت ـ المدينة المنورة، دار ابن كثير ـ مكتبة دار التراث، ط 2، 1405 هـ/ 1985م.

فلسفة التربية الإسلامية. مكة ـ جدة ـ بيروت، مكتبة المنارة ـ دار المنارة للتوزيع والنشر ـ دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، 1407 هـ/ 1987م.

اللقاني، أحمد حسين؛ **رضوان**، برنس أحمد:

تدريس المواد الإجتماعية. القاهرة، عالم الكتب، 1974م.

مؤنس، حسين:

عالم الإسلام. القاهرة، دار المعارف.

المساجد. الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة عدد 37، صفر ـ ربيع الأول 1401 هـ/ يناير ـ ك2 1981م.

ماجد، عبد المنعم:

تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963م.

مبارك، زكي:

التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق. صيدا ـ بيروت، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

المبارك، محمد:

نظام الإسلام العقيدة والعبادة. دار الفكر، ط 1، 1388 هـ/ 1968م.

المباركفوري، صفي الدين:

الرحيق المختوم. الهند، الجامعة السلفية، 1396 هـ/ 1976م.

محجوب، عباس:

أصول الفكر التربوي في الإسلام. عجمان ـ دمشق ـ بيروت، مؤسسة علوم القرآن ـ دار ابن كثير، ط 1، 1408 هـ/ 1987م.

مدكور، علي أحمد:

«المضامين الإسلامية لتعليم الكبار في ضوء القرآن والسنة»، في علم تعليم الكبار. ج6، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار، 1993 م.

منهج التربية في التصور الإسلامي. بيروت، دار النهضة العربية، 1411 هـ/ 1990م.

منهج تعليم الكبار النظرية والتطبيق. القاهرة، دار الفكر العربي، 1416 هـ/ 1996م.

مرسي، محمد منير:

التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية. القاهرة، عالم الكتب، 1977م.

مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية:

التميمي. استانبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، 1402 هـ/ 1982م.

مطاوع، إبراهيم عصمت وزميله:

في التربية المعاصرة، دار الفكر العربي. ط 2، 1985 م ـ 1986م.

معروف، بشار عواد:

«مؤسسات التعليم في العراق بين القرنين الخامس والسابع الهجريين»، في التربية العربية الإسلامية المؤسسات والممارسات. عمّان، المجمع العربي لبحوث الحضارة الإسلامية ـ مؤسسة آل البيت، 1979م.

معروف، ناجي:

أصالة الحضارة العربية. بغداد، مطبعة الزمان، ط1، 1389 هـ/ 1969م.

تاريخ علماء المستنصرية. بغداد، مطبعة العاني، ط1، 1379 هـ/ 1959م.

مكي، محمد كاظم:

المدخل إلى حضارة العصر العباسي. بيروت، دار الزهراء، ط1، 1410 هـ/ 1990م.

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم:

إستراتيجية تطوير التربية العربية. بيروت ـ طرابلس/ ليبيا، مؤسسة دار الريحاني للطباعة والنشر ـ المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1979م.

المودودي، أبو الأعلى:

مبادىء الإسلام. بيروت، المكتب الإسلامي.

مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة. الرياض الدار السعودية للتوزيع والنشر، 1405 هـ/ 1985م.

موسى، محمود أحمد:

«قضايا المجتمع»، في الفكر التربوي العربي الإسلامي الأصول والمبادىء. تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1987م.

الميداني، عبد الرحمٰن حسن حبنكة:

أسس الحضارة الإسلامية ورسائلها، ط1، 13 هـ/ 19م.

النحلاوي، عبد الرحمٰن:

أصول التربية الإسلامية وأساليبها. دمشق، دار الفكر، (1403 هـ/ 1983م).

النقيب، عبد الرحمٰن:

الإعداد التربوي والمهني للطبيب عند المسلمين. القاهرة، دار الفكر العربي، 1984م.

النوري، عبد الغني:

التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة. الدوحة، دار قطري بن الفجاءة، ط1، 1406 هـ/ 1986م.

ثالثاً: المجلات والدوريات والنشرات والوثائق:

مجلة الأبحاث. بيروت، الجامعة الأميركية، الجزء 2، السنة 14، أيلول 1961م.

مجلة التربية. الدوحة، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، الأعداد 15، 47، 104.

مجلة تعليم الجماهير. القاهرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار، العدد 2، يناير (كانون الثاني) 1975م.

مجلة الوعي الإسلامي. الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، العدد 86، صفر 1392 هـ/ 1972م.

رابعاً: المراجع الأجنبية:

1 - Foulqe, Paul. Dictionaire de la langue Pe"dagogiqe. .Paris, P.U.F. 1971.

2 - Goldziher, I. "Education", in Encyclopaedia of Religion 8; Ethics. New York, Vol. V.

فهرس المحتويات

إهداء 5

المقدمة 6

الفصل الأول: التربية المستمرة وتعليم الكبار في ضوء تعاليم الإسلام 11

تمهيد 11

التربية المستمرة من المنظور الإسلامي 12

تعليم الكبار من المنظور الإسلامي: 15

من هو الأُمي؟ 15

الكبير من المنظور الإسلامي 18

التكليف وتعليم الكبار 22

التبليغ وتعليم الكبار 23

العبادة وتعليم الكبار 27

معنى العبادة 27

تعليم الكبار والعبادة بمعناها الخاص 30

تعليم الكبار والعبادة بمعناها العام 32

تعليم الكبار فريضة إسلامية 39

أهداف التربية المستمرة وتعليم الكبار في الإسلام 41

أهداف تعليم الكبار في ضوء أهداف التربية الإسلامية 44

أ ـ الأهداف على المستوى الفردي 45

1 ـ الجانب الجسمي 45

2 ـ الجانب العقلي/ الفكري 49
3 ـ الجانب النفسي 51
ب ـ الأهداف على المستوى الاجتماعي 52
الفصل الثاني: طرائق تعليم الكبار عند المسلمين 57
تمهيد 57
أ ـ الطرائق التفاعلية 60
1 ـ المناقشة 60
2 ـ المناظرة 66
3 ـ المراسلة 69
ب ـ طرائق التعلم الذاتي 71
1 ـ القراءة 72
2 ـ المذاكرة 74
3 ـ الممارسة والعمل 76
4 ـ الرحلة 78
ج ـ طرائق العرض والإلقاء 83
1 ـ التلاوة (التلقين) والتكرار 83
2 ـ المحاضرة 86
3 ـ الإملاء 88
4 ـ القدوة 91
5 ـ القصة 95
الفصل الثالث: مؤسسات تعليم الكبار عند المسلمين 101
تمهيد 101
الكُتّاب 105
البيوت الخاصة 111

المساجد 114
القصور 117
دكاكين الوراقين 121
المكتبات 124
1 ـ المكتبات العامة 127
2 ـ المكتبات الخاصة 132
الربط والزوايا والخوانق 134
1 ـ الربط 134
2 ـ الزوايا 138
3 ـ الخوانق 140
البيمارستان 142
المدارس 145
الفصل الرابع: الأوجه المختلفة لتعليم الكبار 150
تمهيد 150
الخصائص المميزة للتربية الإسلامية 152
1 ـ الربانية 152
2 ـ التكامل والشمول 153
3 ـ التوازن 155
4 ـ العمل والسلوك 156
5 ـ الفردية والاجتماعية 157
6 ـ الحرية 160
7 ـ الأصالة والتجدد 162
الأوجه المختلفة لتعليم الكبار في الإسلام 164
1 ـ التعليم الأساسي 164

2 . التعليم الوظيفي 166
3 . التعليم المهني 169
4 . التعليم الذاتي 172
5 . التعليم العالي المستمر 177
الخاتمة **182**
فهرس المصادر والمراجع **186**
فهرس المحتويات **212**